غلوريا ألكورتا

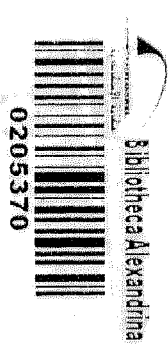
الوسادة السوداء

مجموعة قصص



ترجمة:
علي باشا

روايات عالمية «٥٥»



الإشراف الفني :
زهير الحمو
الخطـوط :
عبد الرزاق قصيباتي

الوســادة الســوداء

مجموعة قصص

روايـــات عالميــــة

« ٥٥

غلوريا ألكورتا

الوسادة السوداء

مجموعة قصص

ترجمة:
علي باشا



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٥

العنوان الأصلي للكتاب :

GLORIA ALCORTA

L'OREILLER NOIR

BERNARD GRASSET
PARIS

1978

الوسادة السوداء : مجموعة قصص = L'oreiller noir /
غلوريا ألكورتا ؛ ترجمة علي باشا . ـ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٥ . ـ
١٩١ ص ؛ ٢٤ سم . ـ (روايات عالمية ؛ ٥٥) .

١ ـ ٨٤٣ : ل ك و   ٢ ـ العنوان   ٣ ـ العنوان الموازي
٤ ـ الكورتا   ٥ ـ باشا   ٦ ـ السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ـ ١٥٩٧ /١٠/١٩٩٥

وسادة حمراء ، وسادة سوداء

النوم ، والثدي على جانبه

بين النجم والمربّع ،

كم الأعلام الممزّقة !

«رونيـــه شـــار»

امتداد حياتي مربّع من الآلام

«غ . أ .»

الزوجان

« لاتتحرّك ، يا « فلنتان » ، ولا تبذل أي جهد » .

ركعت السيّدة « بولين » على ركبتيها بجانب سرير الزوجية وأسرّت في أذن الرجل الذي كان مستلقيا عليه ، قائلة : « سوف نكون سعيدين ، يا عزيزي » ثمّ وضعت خدها المغتطى بالمساحيق على خد زوجها المندى بالعرق .

ومضت تقول : « أتذكر ، لحظة وصولنا الى فرنسا ؟ كنت ، في الميناء ، تبدو كلوحة ، بمعطفك وقيثارتك التي كنت تحملها . أمّا أنا فكنت نحيلة جدا » .

واسترسلت السيدة « بولين » بضحكة طويلة بينما كانت تفتح قميص نوم زوجها وتكشف عن صدره الذي تتوزع فيه شعيرات بيضاء، ثم أخذت تجسته خلالها ، بيد خبيرة .

« ان قلبك بحالة جيدة ، ولكن يجب أن نفسح المجال للدواء لكي يعمل عمله . وبعد ذلك سأساعدك على ارتداء ملابسك » .

كان شعر الفنّان يتموّج على الوسادة دون نظام . وتابعت زوجته الكلام ، قائلة : « نحن أناس طيبون ، وجميع سكان الحي يحبوننا ، أليس كذلك يا فلنتان ؟ » والكن الرجل لم يتفوّه بأي جواب . كانت عيناه مغمضتين ، وفمه مطبقا . وجبهته لاتخلو من سيماء الشهامة . كانت رائحة الكافور تفوح من الأغطية . وبعد صمت لم يستغرق سوى

بضعة ثوان ، انحنت السيدة « بولين » عليه وأسرت في أذنه : « اني أحبك ، يجب أن تصدقني حتى النهاية . (كان صوتها قد فقد نبرتـه الخفيفة) . وتابعت قائلة بأعلى صوتها : وبطبيعة الحال ، ما المانع من ان يحب كل منا الآخر ؟ فنحن أناس سعداء ، والسعادة فضيلة . كما قال الكاهن في القداس منذ بضعة أيام » .

وأضافت قائلة وهي تترنم بالكلمات : « عندما كان القارب يسـير بنا صعودا عبر النهر ، أيام الأعياد ، كنت تحملني وتضعني على قاعدة أحد التماثيل الرخامية ، هناك في جزيرة « السول » . كنت تدور بي وأنا بين ذراعيك . كنت عند ذلك أشعر بمنتهى السعادة . كذلك ، عندما كنا نخرج من حفلات الرقص ، كان يجب رؤية النساء كيف كنّ ينظرن اليك . لقد جن جنونهن بهذا الفرنسي الذي كان يعزف على الكمان أمام الجميع كأنه موسيقي ايطالي . وبدرت من السيدة « بولين » تنهدة نمّت عنها حركة ثدييها ، وقالت : « أعطني يديك ، هو ذاك ، هكذا ... انت ترى جيدا أن ذلك ليس صعبا . والآن قل لي أنك تحبّني . اني بحاجة لأن تقول لي ذلك وأن أسمعه منك . لا تهز رأسك . أخشى أن يهرب قلبك من صدرك . أنت تعلم أن المرء يستعيد ذكرياته عندما يكون متعبـا . »

وأمسكت يدي « فلنتان » ثانية وغطت بهما وجهها . وعندما رأت أنه ظل صامتا ، انتصبت واقفـة ، وبحركة سـريعة ، فتحت درج المنضدة ، وأخرجت منه أداة لامعة وأخذت تمر بها على خد المريض . وبعد عمل دقيق ، عثرت على شعرة متمردة قرب فتحة الأنف اليسرى . فأمسكت بها بين فكّي الملقط الفولاذيين ، واقتلعتها .

ها قد انجز العمل . أريدك أن تكـون نظيفا عندما يراك الجيران تمر بعد قليل . ان هذه اللحى التي تشذب على الطريقة الفرنسية تبدو متميزة ولكنها أخذت تنتشر انتشار الأعشاب الضارة . ولو لـم أكن هنا ، او لم أتخـلّ عن مشغل الخياطة الـذي كنت أملكه كي أستطيع

العناية بك ، لكنت أصبحت عجوزا بائسا قـذرا . وتابعت قائلـة : « والآن سأرتدي ملابسي ، فالجو رائع صباح هذا اليوم . لقد كتبت الى دونا « كلارا » والى المفوض ، لأني أريد أن يعرفا أننا فكرنا بهمـا اليـوم . »

لم تفقد السيدة « بولين » مرونتها ودماثة خلقها . فنهضت وهي تصوفر وتدندن بجملة من اغنية « في سبيل قليل من الحب » . وفي الشارع المبتل ، مرّ موزع البريد دون أن يتوقف ، ولكن قبل أن يختفي وراء بقالية « ماكسيمو غوميز » ، التفت ليحيي باشارة من يده المرأة القصيرة ذات الشعر البرتقالي ، التي كانت تقف على عتبة منزلها . عند ذلك غمزت السيدة « بولين » بعينها . وانثنت ركبتاها ، ولكنها بعد برهة قصيرة استردت لونهـا الطبيعي . وتمتمت بين شفتيها : « كنت أعرف أن تلك الرسالة لن تصل : فمن يبالي أو يهتم بشخصين قد بلغا سن الشيخوخة ؟ بالتأكيد لا أحد يهتم بهما . وعلى أية حال، أنا لا أهتم بهما مقابل أي شيء في العالم . » ودست اصبعها بسرعة في شعرها ونثرته على جبينها ، وقالت : « انه لن يذهب الى الملجأ وأنا على قيد الحيـاة . »

فتحت السيدة « بولين » الباب ودخلت .

« أين كنت يا عزيزتي ؟ » كان صوت الزوج ينفذ من تحت الاغطية.

« أشعر بحرارة شديدة ، اني أكاد أختنق . »

اجتازت السيدة « بولين » قاعة الطعام .

ولكن رغم شدة أنين وشكوى « فلنتان » ، فان زوجته لم تقترب

من سريره . فقد كانت تتأمل وجهها في المرآة المعلقة فوق المغسلة .
« بولين ، يا صغيرتي ... »

لم يكن يبدو على المرأة ما يدل على أنها قد سمعته . وبحركةرشيقة، نزعت بلوزتها ، وغسلت جبينها وتحت ابطيها وجففتهما . كان شعرها مشعثا . فأخذت تلف بعض خصيلات شعرها حول سبّابتها وتوزعها على جبينهـــا .

« بولين ، حبيبتي بولين . آه ، انك تتظاهرين بأنك لا تسمعينني.» وعندما انجزت تزيّنها ، التفتت نحو زوجها بوجه تعلوه سيماء الصفاء والهدوء . ونجمت عن « فلنتان » دمدمة تنم عن التذمر ، تبعتها دمعتان انسكبتا وسالتا عبر شعر لحيته .

فقالت رفيقة حياته وهي تقترب منه : « هيا ، هيا . أنت ترى جيدا أن الدواء قد اخذ يحدث تأثيره . لقد كانت دونا « كلارا » على صواب : فأنت تســتطيع الآن التحركّ ، وها أنت أيضا تتكلم ، بـل وتستطيع الجلوس . بلى . دعني اعمل . برافو ! هذا حسن ، كمـا ترى ... والآن ، مدّد ساقيك لأتناولهما . » وأخذت تساعده على اخراج ساقيه من تحت الأغطية وعلى وضع قدميه على البلاط .

« يجب أن تصدقني ، يا « فلنتان » . فأنت تعلم بأن لدي فكرة معينة ، وتعرف بأننا سنكون سعيدين . فهل أنت تثق بكلامي وتصدقني؟؟

ـ نعم ، يا بولين ، نعم .

نظفت له السيدة « بولين » وجهه ، وربطت حذاءه الذي ينتعله في الحفلات الموسيقية ، وألبسته قميصا نظيفا وبزّة جديدة أخرجتها من احـدى العلب . وعندما انتهت من الباســه ملابسه ، مشطت له شـــعره .

« لا اريد أن يقول الناس أني أهمل العناية بك لأني أصبحتعجوزا وأنك لم تعد تميل اليّ . »

لم يكن « فلنتان » ينبس ببنت شفة . كان يدعها تعمل به ماتريد. كان أحيانا يضغط على ذراع زوجته التي ظلت تتحدث اليه وكأنه طفل صغير . « هاك ! لقد وضعت لك ربطة عنقك الجميلة . أنت ترى كم أنا طيبــة . »

كانت قاعة الطعام تبدو مريحة بستائرها الزاهية ، واواني الزهور التي تزينها ، وصور الشباب الملصقة تحت تمثال السيد المسيح ، والتي يمثل بعضها « فلنتان » متدثرا معطفه وهو يخرج من احدى دور السينما ، فلنتان بلباس الرياضــة ، متأبطا ذراع خطيبتــه ، مغنّيــة المستقبل « بولين دارتوا » ، فلنتان وهو يتقبل تهاني السيد العمدة . ثم الوثيقة التي تمثل انتصار « فلنتان » : صورته وهو يصعد سلالم باخرة « الأتلنتيــك » كي يذهب ليعــزف في أميركا الجنوبيــة ، في الأرجنتين ، الــى حيث يذهب الموسيقيون العباقرة ليحظى كــل من يستطيع منهم بأكاليل الغار الذهبية .

كانت السيدة « بولين » قد انتهت من الباسه ثيابه . وقبل أن تطوي الأغطية ، قدمت لزوجها بضع جرعات من القهوة ، قائلــة : « يا عزيزي ، أن لنا كل الحق ، أن نتمتع صباح اليوم بكل الملذات » .

كان الزوجان قد اجتازا عتبة المنزل . وكان « فلنتان » وهو يقف في الشارع ، يبدو فخم المظهر بملابسه الأنيقة .

ولكنه أخذ يئن ويشكو ، صارخا : « أوّاه ! ساقاي ، سترين ، انهم سوف يقطعونهما لي » .

ـ « لن يقطعوهما لك . افعل ما أقوله لك . »

واستند « فلنتان » الى كتف رفيقتــه كي يصــل الى الرصيف المقابل . وسارا بخطى بطيئة دون أن يحاولا الاسراع ، فبلغا احدى

زوايا الشارع حيث كانت تتدلى شلالات نبات « زهر العسل » من شرفات أحد المنازل المصبوغة جدرانه باللون الأزرق . وخرج رجل مشمر الساعدين من أحد المخابز ، وأخذ يصرخ وعيناه جاحظتان : « أرأيتم هذا الرجل !؟... هذا غير ممكن ! ايه ، « جوزيه » ؟! هذا هو بالذات ، انه « المايسترو ! »

فخرج الجيران من أبواب عديدة وتجمهروا على الرصيف : « كيف حدث ذلك ؟ انها لأعجوبة . » وأخذ تجار ذلك الشارع يحيون الموسيقي كأنه شبح عائد من عالم الغيب : « برافو ، سيد فلنتان ! ـ تشجع يا سيد فلنتان . ـ متى ستسمعنا موسيقاك العذبة ؟ »

لقد رأى الجميع الزوجين يمران ذلك اليوم : الخباز وزوجته ، صاحبة البقالية ، وبائع الصحف . وقد فرحوا جميعا بعودة «المعلم» . وامتدحوا صبره وحسن تحمله للبؤس والمصائب . « انه لأمر قاس أن يحرم المرء من أية موارد عند تقدمه بالسن . » وأخذوا يتحدثون عن صفاته المتميزة وعن شهامة وشجاعة رفيقة حياته . » كانت تعتني بنفسها على الدوام ، وتبدو دائما أنيقة . ـ انها باريسية حقيقية .ـ ومن المؤكد أنهما تلقيا رسالة من الحكومة . وعلى أية حال ، يكفي أن يتمتع المرء ببعض الأمل ، في الحياة ، لكي يستعيد صحته . ـ وبعد ذلك أضافت فتاة ترتدي بلوزة ضيقة تشد على نهديها ، قائلة : « مهما ابتعد المهاجرون الى آخر الدنيا في هذه البلاد ، فانهم ينعمون بحياة ذهبية » .

وأخذ التجار الذين تجمهروا أمام المخبز يتحركون وقد بدا عليهم الاضطراب . واندست بينهم سيدة عجوز ترتدي الملابس السوداء على رأسها قبعة صغيرة من القش . وتحدثت بصوت موسيقي قائلة : « عفوا ، ان السيد « فلنتان » ليس مهاجرا ، انه فنان . وقد أتى من فرنسا ليعلمنا تذوق الموسيقا وتقديرها حق قدرها . ومن أجل ذلك عبر المحيط ، وقد استمعت الى عزفه في كازينو البلدية . »

وهزّ الخباز راسه لدلالة على تفهمه لما قالت المرأة ولموافقته عليه: « السيدة الصغيرة ليست مخطئة . فالفنان لا يعتبر مهاجرا . ولكنه ان كان مهاجرا أم لا ، فقد مضى وقت طويل على كونه بحاجة الى دخول مأوى العجزة . ولو لم تتخل زوجته عن عملها في الخياطة ، ولو لم تحرق دمها وتبذل قصارى جهدها لتسقيه جرعات الدواءوتدلك له ساقيه المعروقتين ، لما ظل « فلنتان » للآن على قيد الحياة . »

كانت صاحبة البقالية توجه نظرها الى الزوجين وهما يبتعدان بخطوات بطيئة . ثم قالت وهي تتنهد : « النساء ، يا للنساء ! انهن شيء هام . فها هي احداهن ، انها من اللواتي يفضلن الموت علىالتخلي عن أزواجهن . »

وهزّ بائع الصحف رأسه مفكرا وقال : « لقد مررت بالأمس أمام منزلهما ، فدخلت . وبينما كنت أتحدث مع السيدة « بولين » ، سمعت انين العجوز وشكواه . لقد كان مستلقيا . كانت تقدم لي الشراب وتحدثني عن العطلة والاجازات ، ولكني أنا كنت أشعر تماما أنه يتألم وقد تملكه الخوف . »

واسرت الفتاة في اذن زوجة الخباز : « أتعلمين يا سيدة «غوميز» اني قد استمعت انا الى عزفه . فقد كانوا قد وضعوا له بالقوة الكمان بين يديه ، وعيناه كانتا تغمزان . ثم أخذ يقلب الكمان بيديه كما لو كان يرى احدى هذه الآلات الموسيقية للمرة الأولى . ثم ... ثم .. تناول القوس الذي كانت تقدمه له احدى السيدات وأخذ يعزف .

ــ وماذا عزف ؟

ــ لا أدري . شيئا عاليا ، قويا وصاخبا ، كما لو كان كل شيء قد كاد يتحطم ويتقطع .

وساد بعد ذلك صمت عميق . كان الشارع خاليا . ومرت سيارة مسرعة ملأت الجو بالضجيج . وسمعت فرقعة الأبواب ، وصراخ الأولاد وهم يتراكضون وطقطقة احدى الدراجات ، وصوت السيدة «كاسترو» التي كانت توجه لطمتين صباحيتين لابنها .

أما السيد والسيدة « فلنتان » فقد كانا يتابعان نزهتهما، متشابكي الذراعين وقد ضما بعضهما بلطف . وعندما وصل الزوجان الى الحاجز، كانت الشمس قد ارتفعت عاليا في السماء .

وقالت السيدة « بولين » وهي شديدة التأثر : « أشعر اني بخير، وانت ، كيف حالك ، ياعزيزي ؟ »

ــ « انا ، أيضا بخير . »

كان الخط الحديدي خاليا ، والسماء زرقاء صافية . وبين خطّي سكة القطار نبتت بعض زهور شقائق النعمان ونباتات الشمرة البرية .

فقالت السيدة « بولين » وقد ساورتها الدهشة : « يا له من أمر غريب : ففي هذه البلاد نجد دائما نبات الشمرة بين قضبان سكة القطار » .

وتوقفا لحظة بين مجموعتين من النباتات البرية ، عند ذلك بدرت منهما ضحكة تشجيعية . وهز الرجل رأسه . وفجأة ارتعش كتفاه وتقلصت أصابعه .

« أتسمعه ، قل ، انه هو أليس كذلك ؟

ــ نعم ، انه هو ، ولكنه ما يزال بعيدا . لا تتحركي . »

تنبه « فلنتان » وأصاخ السمع . فلم يسبق أن كان لصوت زوجته هذه الصراحة وهذا الوضوح في الارتفاع والقوة .

قالت وهي تتوسل اليه : « ضمني اليك ، ضمني اليك بقوة . »

فأغمض عينيه لكي يتذكرها ويتصورها بشكل أفضل ، مستلقية تحت ثقل جسمه على رمال النهر ، كأية فتاة ، بعد ممارسة الحب .

« فلنتان ، حبيبي ، قلبي ، ضمني اليك . »

كانت أشعة الشمس شديدة الوطأة والحرارة على كتفي الفنان ، كما أنها كانت تشوّش له الرؤية . كانت « بولين » رغم موهبتها قد رفضت أن تغني في مكان عام . والآن ها هي تهم بالرحيل دون أن تكون قد غنّت أبدا لأحد سواه . انها تهم بالرحيل ، الا اذا أرادت ... الا اذا غيّرت رأيها ...

اعترته قشعريرة ذات صفات مجهولة هزته من أخمص قدميه الى رأسه فاضطر للتشبث برفيقته والاستناد عليها . أما « بولين » ، فانها كانت تتذكر الآن تمثال الثور الرخامي الذي كان يضعها عليه وكأنه يضع طاقة من الزهور ، هناك في جزيرة « السّول » ، على بعد بضعة كيلومترات عن « بوينوس ايريس » . كانت تتذكر وصولهما الى الأرجنتين ونجاحه لدى السيدات عندما كان يصعد على المنصة ، شعره متطاير في الهواء ، ويعزف لهنّ معزوفة « الدانوب الأزرق » الرائعة .

لم يعد « فلنتان » يشعر بالخوف . فقد سبق له أن احتفل بعيد ميلاده الثمانين ، بينما لم تتجاوز رفيقته الحادية والستين ونصف . لقد كانت « بولين » كثيرة الحركة والنشاط على الدوام ، بل ونشيطة اكثر مما ينبغي ، حتى أنه كان عليه أحيانا أن ينفرد بنفسه ، بل وأن يتخلص منها ، أحيانا أخرى ، كي يستطيع التركيز على أعماله الموسيقية . فقد كانت « بولين » تجهل فوائد الصمت والهدوء . وكانت تدور وتحوم حوله طيلة الوقت وكأنها نحلة كبيرة .

وقد حدث له ذات يوم أن شعر باعياء غريب ، فتوقف عند ذلك عن العزف .

اعترت جسم « فلنتان » انتفاضة ، واصطكّت أسنانه ، وأحنت ظهره شمس الظهيرة . فألقى نفسه بين ذراعي زوجته وضمها اليه بقوة أشد مما كان يضمها بها على الاطلاق .

وسألته وهي تلهث : « أتحبني ؟ »

ـ كلا ، ... اني أعبدك . »

كيف استطاع « فلنتان » المضي الى أفكار مماثلة اتلك الأفكار ازاء زوجة كزوجته ؟ لقد كان ذلك أمرا معيبا . هزته ارتعاشة باردة . لقد كانت « بولين » قديسة . وكانت هي الأقوى ، وهذا كل ما هنالك .

أخذ يتمتم : « حبيبتي ، حبيبتي .

فأجابته « بولين » :

ـ حبيبي . »

أخذ « فلنتان » يتنفس بعمق . كان صوت زوجته هو الموسيقا بالذات ، وكان الخريف في « بوينوسيرس » يضع حدا لحرارة الصيف ، ويحمل معه الراحة والرفاهية للجميع .

كان حولهما بعض الأشجار التي تشققت قشورها وانهارت على الأرض ، فنما حولها كثير من الزهور الحمراء . وكانت السماء صافية بشكل لم يسبق له مثيل .

وشعر بقلب « بولين » يدق بعنف شديد بحيث تكاد تتقطع أوصاله. لقد كان بخير وهو ملتصق بجسد المرأة التي أسعدته وغمرته بالأفراح والمسرّات خلال فترة تزيد على أربعين عاما والتي تهم بابتلاعه .

كانت معنوياته حسنة وبينما كان الموت قادما اليه عبر كتلة هائلة من الحديد ، تجري لاهثة يكتنفها السّخام والدخان ، لم تبدر منه ارتعاشة تنم عن الندم ، أو الأسف على ما فعل .

آب « اغسطس » ١٩٧٧



الدسكرة
أو القرية الصغيرة

اسمي « ايزابيل بود » . عمري ثلاثة وأربعون سنة . أسكن في المنزل رقم (١٢٩) شارع « المين » وأنا مستعدة لايضاح كل ما يتعلق بموضوع الرجل الذي تبعته ، في اول شهر آب (اغسطس) في شارع « البلانت » . وسأفعل ذلك بمزيد من الرضى ، لأني بعد أن أمضيت فترة تخللها مزيد من المغامرات أصبحت منهكة من التعب والاعياء .

اني أجهل فيما اذا كنت أوجه كلامي الى الفضوليين ومحبي الاطلاع ام الى جماعة من اللامبالين ، ولكني أعلم أنه في بعض الأحيان يصبح من دواعي الأمن والسلامة القيام بتعرية الخلفيات الأكثر ايلاما لبعض التجارب . يمكن أن يكون الأمر بسيطا بالنسبة لي لو اقتصرت على ذكر الأحداث والوقائع ، ولكني أود لو أستطيع ، حتى ولو ظهرت بمظهر المغالية ، أن أكشف عن قرب الصور التي بحوزتي والتعابير التي اضمرها ، ليس لأنها جميلة وحسب ، بل لأنها تتسم أيضا بقسوة غريبة .

كان الجو ثقيلا جدا ، ذلك اليوم ، في باريس . كان هنالك شخص مجهول يسير أمامي ، قبة قميصه مفتوحة ، كما لو أنه كان يرغب امتصاص كل أشعة الشمس التي كانت تنصب على صدره . كان هنالك شيء متثاقل ومتكلف في مشيته ، وكانت تسريحة شعره تبدو

قديمة الزي ، وهذا ما ذكرني بأحد الأشخاص ، وربما أيضاً بأحد الأماكن أو بوقت من الأوقات . كان ينبعث من ذلك الشخص الكهل جو يجذبني للقيام بنزهة . ولم الاحظ الكلب الكبير الذي كان يمسك بمقوده الا بعد ذلك ببضعة دقائق .

وعند تقاطع بعض الشوارع ، توقف الرجل ، فالتفت الى جهته . وفي الحال ، تحركت يدي اليمنى بحركة عفوية وغير مقصودة وتوضعت على رأس الحيوان . كانت حرارة الجو شديدة تدفع المرء لالقاء نفسه في أول بحيرة يصادفها . كنت حانقة بسبب حركة يدي السخيفة ولكن انما تبدأ القصص الكبيرة هكذا ، بحركة سخيفة .

« أتحبين كلبي ؟ »

لم يكن صوت الرجل غريبا بالنسبة لي ، ولكنه بدا بعيدا ، بعيدا جدا ، وتابع دون أن ينتظر اي جواب :

« أنا ضرير ولكن ، عندما يداعب أحد ما كلبي « سكوت » فاني أشعر بذلك . اذ يحدث عند ذلك تفريغ شحنة كهربائية منه الي . فأنت تعتقدين انك تضعين يدك على الحيوان ولكن تأثير ذلك يقع على شخصي أنا . »

لم أجد ما أجيب به على كلام شخص يمسك بالعصا البيضاء ويستخدمها على طريقة المتباهي الغندور الذي كان صوته الوقور ،الذي تتخلله ضحكات حادة وقصيرة ، تتردد أصداؤه في أعماقي كأنه صوت داخلي . ولأني لزمت الصمت ، شاردة اللب في ماض شديد الحرارة ، فقد انفجر ضاحكا ، ورغم أن الأمر يبدو مستبعدا ، فإني عرفت هذه الضحكة الرنانة المتلونة المتلوية . فقد كانت تشكل جزءا من كل ما تبقى عالقا في ذاكرتي . كنت أعرف اني لم أكن مخطئة وكم كنت أود لو أن تلك الضحكة قد استمرت الى ما بعد الظهر ، وان تسمع في الشوارع

البعيدة وان تتردد أصداؤها في رأسي زمنا طويلا . فقد كان لها رائحة كثير من الأشياء الثمينة المخبأة في علب تلك التي أطلقوا عليهــا أسم « ماميتا » ، في المحل رقم « ٣١ » ، شارع « بيّير » : اطواق وعقود ، اكياس وجزادين معطرة ، قفازات سويدية لا تفتح الا" بمقص من العاج. كل هذه الكنوز كانت في متناول يدي ، وقد انتزعت مني ذات يوم .

« أين تذهبين ؟ »

كان الرجل الذي أتبعه ، يســأل ، ولكني كنت قد فقدت عادة استعمال الكلمات . ولذلك كان هو الذي اتخذ القرار :

« عليك أن تأتي معي . »

كان وجهه ، بعد ان غمره الضوء ، قد أصبح يبعث على الاطمئنان . يشع منه سحر بعض وجوه اباطرة الرومان فيما لو كان هيكلها مكونا من بشرة شديدة الطراوة . وقد لاحظت أيضا ، مع بعض الانزعاج ، أن بشرته التي لو"حتها الشمس قد اعترتها التجاعيد التي شكلت انتفاخين حول عينيه . كان لا بد أنه قد تجاوز الستين من العمر رغم نضارة أسنانه التي حافظت على وضعها السليم في لثته . وكانت بشرة يده التي يمسك بها مقبض عصا نظيفة ، نحيفة وناعمــة ، وأظافره مقصوصة بعناية . أما نظارته فكانت تتسرب منها نظرة لا يشوبهــا الانطفاء وقد وصفتها دون تردد بأنها ساخرة . ولذلك لم تكن لتعتريني الدهشة لو أن هذا الضرير أمسك بكتفي في وسط الشارع وفتح لي فمي بالقوة ، كما يفعلون بالخيل لمعرفة عمرها .

وعند وصولنا الى تقاطع شوارع ثان ، تــوقف ولامس صدري بطرف عصاه :

« الآن ، وبعد أن راقبتيني جيدا ، أيتها الآنسة ، اذا كان لديك عمل يجب أن تقومي به ، فيجب ان تنسيه في الحال . »

ومع حركة سريعة من منكبيـه ، استأنف سيره نحو الشـوارع الخارجيـة .

* * *

عندما استعدت كل ذلك بجميع تفاصيله ، مساء ذلك اليوم ، كان بامكاني أن أؤكد أني اذا لم أكن بكامل وعيي ، فانی بالتأكيد كنت قد سبق لي أن فقدته قبل تلك الفترة ، ذلك لأن اللحاق بشخص يشكو من عاهة ، وكان يمكن أن يكون غشاشا أو محتالا والذي كان يبدو أنه لا يختلف بشيء عني ، أي أنه لا يسير على بساط من ذهب ، يعتبر عملا يدل على فقدان الصواب . لقد تبعته كما كانت تفعل الجارية ، بـل الأمة عندما كانت تسير خلف بائع التوابل حاملة له تلك المواد أو وراء تاجر الرقيق في سوق النخاسة . هذا الغريب الذي تنم مشيته عن ساقين مقوستين كؤلئك الذين قضوا زهرة شبابهم على ظهور الخيل ، كان قد أيقظ في نفسي الكثير من مشاعر وعواطف الصبا التي لم أستطع التخلص منها رغم انقضاء سنوات طويلة بذلت خلالها جهودا مضنية في سبيل ذلك . كنت أعرف أنه بكلمة منه كان يكفي لكي تستأنف حياتي مسيرتها من حيث تركتها ، أو بالأحرى من حيث تركتني منذ ما يزيد على ثلاثين سنة . كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها هذا الرجل في حينا ــ الحي الرابع عشر حي غامض تكتنفه الأسرار بساحاته الضيقة وأزقته المغلقة ، ولكنه ليس متاهة على أية حال . فأين كان مختبئا ، هذا الذي يستجيب في ذاكرتي الى اسم : « كاتشو رودريكز » والذي كان من عادته كثرة المرور في جادة « بييّر » ؟ وماذا يريد مني ، صباح هذا اليوم الحار ، بينما لم يسبق لي أن كنت بالنسبة له فيما مضى سوى ما يشبه ذيل ستارة في الاطار والزينات الأنيقة التي كان ينعم بها . وقد حدث له أكثر من ألف مرة أن مرّ بي دون أن يراني ، كما لو أني بالكاد كنت كرائحة الحبر أو رائحة الصمغ . كما كان « دون الفونسو » و « ماميتا » يستقبلانه بالترحاب والعناق . أما الخدم فكانوا يتزاحمون

لسماع كلماته الحلوة . لم يكن عليه أن يشعر بشيء آخر سوى شهرته ومآثره الخاصة . ولكن في صباح ذلك اليوم من أواخر تموز (يوليو) ، لم يكن وجودي بالنسبة لـ « كانشو » أكثر من وجود أية مارة اخرى يمكن أن تضع يدها على كلبه الذي يرافقه ، وهي شاردة الذهن لا تعير ذلك أي انتباه . ومن جهة أخرى ، لم أكن قد تجاوزت السابعة أو الثامنة من العمر عندما كان يلعب بكرة المضرب مع « دالميرو » و « جاك »، شقيقي « فيكتوار » ، ويحاول الامساك بـ « ليونتين » الجميلة بين اشجار الغابة المحيطة بالقصر الذي كنا نقضي فيه العطل والاجازات .

عندما توفيت « ماميتا » بذلك الشكل المفاجيء الذي لم يتوقعه احد ، ولما اغلقت أبواب المنزل رقم « ٣١ » على كل ما ظل طيلة ربع قرن ينبض بالحرارة والعبقرية ، لم أكن قد تجاوزت الثالثة عشرة كذلك ، ولماذا لا أعترف بكل شيء ؟ فأنا ، في الواقع لم اكن أحد افراد الأسرة ، وكل ما هنالك اني كنت اختا بالرضاع للصغيرة « فيكتوار » ، أي أكاد أكون دخيلة على العائلة .

* * *

لم أنس شيئا من تفاصيل ما حدث في ذلك اليوم الذي كان يسوده حر شديد ولا مما حدث في الأيام التي تلته . كان العرق يتصبب من جذور شعري ويسيل لينساب الى فمي الذي كنت أجد صعوبة في ابقائه مغلقا بينما كان ذراعاي المبللان شديدي البرودة . وكان هنالك على الجانب الآخر من الشارع بعض الأشجار وركن ظليل يتوسطه مقعد سنستطيع الجلوس عليه . وكنت على عجلة من أمري للوصول اليه ، بينما في ذهني ، ما كان لهذا المقعد أن يتواجد الا خلف منزل «فيكتوار»، في الأرجنتين ، عند نهاية شارع « جاكارنداس » . شعرت باحساس بالاختناق شبيه بالنعاس الذي يسببه المخدر ، كاد يجعلني أنهار . كان منزل « فيكتوار » مغطى بالياسمين وتعلوه شرفة كجميع المنازل

الراقية المبنية في السهل . وقد حدثتني صديقتي مائة مرة عن جدرانه الأرجوانية التي صبغها اجدادها بذلك اللون انصياعا لأوامر أحد الطغاة ـ كان جنرالا ازرق العينين استعبد بلاده فترة طويلة من الزمن. وقد حافظت أسرة « آكونا »على نضارة ذلك اللون المعيب تمجيدا لضحايا التعذيب . وكانت « فيكتوار » الصغيرة تصف لي بحماسة ومغالاة شبكات السياج الحديدي التي كانت تغلق مداخل منزلهم ، والصور الرائعة ، والأرائك التي كانت تجلس عليها السيدات المرتديات الملابس السوداء اللواتي كنّ يقهقهن بالضحك في كل مناسبة ولكنهن لا يعرفن كيف يبتسمن . وفي شوارع باريس الحارة ، عندما كنت أتبع شخصا مجهولا ، كانت روائح البابونج وروث البقر تتصاعد الى دماغي . وكنت أسمع وقع حوافر حصان « المعلم » وهو يعدو عائدا عند حلول الظلام وكانت النسوة تنتظره على شرفات المنازل . وكنت أشعر بوطأة قدمي جسم صارم وعنيف على الركاب . وأتصور السهل الفسيح عند حلول المساء ، وقد ابتلعته سماء ملتهبة بضياء الغسق . ولكني لم أكن أرى الرجل الذي ذكرني بكل ذلك . فالذين يعيشون في عزلة عن الناس يتخيلون المشاهد والمناظر . واذا ما بقيت على قيد الحياة بعد هذا الاعتراف ، فاني سأظل أذكر على الدوام ، وقلبي منقبض ، نزهتي التي قمت بها في شارع الـ « بلانت » . كان حينذاك واضحا جدا بالنسبة لي اني بانصياعي الى ذلك الشخص الذي لم أكن بالنسبة له سوى امرأة مجهولة ، كنت أدفن ما بقي لي من رأسمالي كبرجوازية صغيرة ، ذلك الرصيد المحشو بالنحيب والتنهدات والأفراح والانتصارات الهزيلة. ولماذا كل ذلك ؟ من أجل لا شيء . أم أن ذلك كان عبارة عن نية سرية بأن أسترد نفسي متمسكة بحلم قديم ممنوع كي أنجو بجلدي ؟

كان يسير متحاشيا السيارات ، ذلك المجهول الذي يحمل العصا البيضاء ، يغمره الفرح بالتحايل على كلبه متصنعا التسلل بين الدراجات . كان يصفر بهدوء لحنا مرحا ، عندما انتابتني وسوسة شوشت لي الرؤية . كان ذلك الذي يستجيب في ذهني لاسم «كاتشو»

يلاحق كرة بيضاء بين قوائم قطيع من الحيوانات ذوات القرون التي كانت تحمّله وتطلقه عبر الحقول .

انتابني دوار ، فأمسكت الكلب « سكوت » من جلد ظهره ، وألفيت نفسي لاهثة في الجانب الآخر من الشارع حيث كان صاحبه ينتظرنا مستندا بهدوء واسترخاء على عصاه .

رغم قربنا من أشجار الزيزفون ، التي بدأنا نشم رائحتها عبر رذاذ خفيف ، فانّ الحرارة لم تخفّ وطأتها . وعندما استأنفنا سيرنا ، اخذ صديقي الجديد يربت بأصابعه على كتفي .

« أين تسكنين » ؟

لم يكن لدي رغبة بالاجابة ، ولكنه الح كمن يخاطب طفلا عنيدا :

« أين تسكنين » ؟

ـ في جادة الـ « مين » .

ـ اسعيدة انت ؟

احيانا .

ـ امتزوجة ؟

ـ كلا ، ليس بشكل حقيقي .

ـ الك اولاد ؟

ـ كلا .

ابطأ في مشيته كما لو أنّ ازدحام الرصيف قد استأثر فجأة بكلّ انتباه عصاه . وبعد بضع خطوات ، رفع رأسه وقال بنبرة قوية :

« أمّا انا فأسكن في قرية صغيرة . لديّ بلبل وبستان . ويقول لي البعض اني سأجني منه الرمان عما قريب . ويبدو لي أنّ هنالك كثيراً من الناس الطيبين يحبون بشكل غريب تقديم كل شيء للأشخاص العاجزين . وعند تقديم هداياهم يجعلون صوتهم يتفق مع المناسبة . وبعد بعض الوقت لن أستطيع المشي . وربما كانت هذه النزهة آخر نزهاتي . فأنا لست سوى حطام انسان . فتصلب الشرايين يضايقني . وأنا أداريه وأحتال عليه بمختلف الحيل ، كما أفعل مع كلبي «سكوت» ، ولكن ذلك لن يدوم طويلا . فعما قريب سوف أصبح كبطل اسباني متجمد في كرسيه الحجري ، وسيغطونني بأنواع الحلوى : شاي صيني ، تمور ، ليمون ، مربى ، مثلما كانوا يحيطون قديما أمراء « الأزتيك » (١) بقطع النقود الفضية . اني أتصور بلذة وسرور ذلك الزمن . هل سمعت بأمراء الأزتيك ؟ لقد كانوا يخشون فرسان الاسبان » . والتفت قليلا وابتسم ابتسامة طويلة باردة .

« هناك ، في قريتي الصغيرة ، جارتي التي يقع منزلها الى يسار منزلي كانت تصنع الأدوات الموسيقية ، والتي الى اليمين تملك مغسلا . وهي تهوى جمع الطوابع ولديها مجموعة منها . وأنا منذ زمن طويل لم أعد أتلقى أية رسائل ، ولذلك اخذت تهمل غسل ملابسي . وهناك أيضا ، على الرصيف المقابل ، « شارلو » الحذّاء ، الذي يقدم لي ألف خدمة . ولكنه يشرب بعض خمرتي عندما أكون منصرفا الى العزف على الغيتار . ولماذا لا يفعل ذلك ؟ وهو يجلس احيانا على كرسي هزاز ويصغي اليّ وهو يدق المسامير . أنا أحب الكلام . وعلاقتي جيدة بصانع التماثيل . انه فاشل : وانا أحب الفاشلين . فقد عرفوا كلّ الناس . وانما من اجلهم يعمل العمالقة . ومن هم هواة الفن الحقيقون ؟ هل سبق لك أن فكرت في ذلك ؟ انهم أولئك الذين يمكن أن يكونوا متمتعين بالعبقرية ، الذين يعرفون ممّ وكيف تتكون ، في حين أنّ

---

(١) « الأزتيك » : شعب مكسيكي قديم سيطر على البلاد حتى قدوم الاسبان عام ١٥٢٠ .
— المترجم —

العملاق ، من جهته ، لا يعرف شيئا عـن قدرتـه وأنه ، في أغلب الأحيان ، يتمتم لعجزه امام اللوحة او كتلة الصلصال ، مندهشـا لرؤيته أشكالا تتوضع فيها فوق بعضهـا ، وهي التي يعرف عنهـا الآخرون ، الفاشلون ، من جهتهم ، كل شيء . ثم ... »

سكت « كاتشو » . كان قد اختـار دربا زرعت على جانبيـه شجيرات الخوخ البري .

وتابع حديثه قائلا : « كان ذلك المثّال يتخذني موديلا لأعماله . لأن مظهري زاهٍ على ما يبدو . لقد عاش في بلدي ، ذلك الشخص الفذ، ويؤكد أنه رآني هناك أخرج من أحد الملاهي الليليّة ، ممتطيـا صهوة جواد . ويقول أيضا أنه كثيرا ما كان يلتقي بي وبرفقتي بعض النساء السيئات السمعة . فهل تعرفينهن أنت ، النساء السيئات السمعة ؟ . . . ففي الأرجنتين لا يزال يوجد الكثير منهن . وهن يرتدين جوارب وردية ومطاطات سوداء تجعل سيقانهن تبدو كسيقان الدمى المصنوعة مـن البورسلين . وعندما يرقصن ، يدخلن لك بين الفخذين ركبة يصقلنها كل مساء بعناية شديدة . تأملي ، كان لي عم ٌ عسكري ٌ يجمع نماذج الملابس العسكرية لمختلف البلدان ولمختلف العصور . كان ، مثلا ، يحارب في الباراغواي مرتديا زي الخيالة « السباهيين » (الأتـراك أو المغاربة) . وقد ورثت عنه لا موهبته كخبير عسكري ، بل بزاتـه العسكرية . وانا أرتديها بانتظام لأدخل السرور الى قلب صانع التماثيل . ثم سألني فجاة بصوت منخفض : وانت هل حققت حلما من احلامك ؟ » .

ورغم البرودة التي بدأت تنبعث من شجيرات الزيزفون ، فقد تلقيت سؤال الضرير كأنه مقذوفة حارقـة .

واضاف قائلا : « أنا لا يساورني القلق عليك . إنّ لك ذراعين مثل بندقيتين صغيرتين » .

كان هنالك ركن ظليل تحت الأشجار ومقعد جلسنا عليه متلاصقين. وجد « كاتشو » حجرا بين الحصى فقذفها بعيدا . انصاع « سكوت » للأمر ولكنه أتى بالحجر وهو يجرّ قائمته ، ووضعه على ركبة صاحبه . اخذ « كاتشو » خطم (بوز) كلبه ، وقال لي :

« هـذا رفيقي . وانا أعابثه لأدخل السرور الى قلبـه . نحن شريكان قديمان . يجب أن تحوزي على تقديره اذا كنت مهتمة بتوثيق العلاقة فيما بيننا ، وأنا أعرف أنك شديدة الاهتمام بذلك . فأنا أعرف على وجه التقريب كل ما يفكر به جميع من يجرؤون على التقرب مني . حسن هكذا أن تكون ساقك ملتصقة بساقي . لأن ساقي لن تعيش طويلا . ولذلك يجب استغلالها حاليا ، فالأطباء لم يعد بامكانهم عمل أي شيء من أجلها . ومع ذلك ، فهم يرفضون قتلي ، كما أنهم يرفضون أيضا أن يدعوني أعيش في الوقت الذي ما زالت لدي فيه القدرة على ذلك . أليس هذا أمراً غريبا ، بل جنونيا ؟ انهم يريدون مني تعريض نفسي للحرمان وغايتهم الوحيدة من ذلك ادخال السرور الى قلوبهم » .

لم اعد أشعر بالحر ، ولا بأي انزعاج آخر . وفجأة امسك صديقي الجديد بيدي ، وربت عليها وأخذ يقلبها ، ثم قال :

« لست أعمى تماما . فأنا أرى الأجسام والأشياء كالظل وأرى النور خافتا جداً . أرى مجموعة شعرك ، وأرى الظلام كجدار بيني وبين الشمس . لم اعد أرى الشمس ، ولكني أشعر بها . فهي التي غذتني وهي التي أكلتني » .

ولزم الصمت . كانت يدي ملقاة في يده . سحبتها دون أن يحاول الامساك بها . ثم نهض ، وأدار لي ظهره وسار في المشى وهو يبعد المارة بطرف عصاه . رأيته يسير في المشى ، حاني الرأس ، وبدت لي عصاه فجأة ، شـديدة البياض . وكان « سكوت » أيضا يبعـد

المارة . ولكي يعبر الجادة ، تشبّث « كاتشو » بمقود كلبه بيديه الاثنتين .

* * *

عندما عدت الى المنزل مساء ذلك اليوم ، لم أرَ الشمس تغرب عن باريس ، ولم ألاحظ من نافذتي ، كما هي عادتي ، أسطحة المباني المكدسة فوقها مجموعات من القرميد بالطين الرملي ، ولا الأربع حدائق المستطيلة ، ولا السقائف التي تقرر هدمها كي أرى عما قريب أبراجا عالية ترتفع مكانها . لم أغلق أباجور النافذة كي أتحاشى الهلاك من شدة الحرارة . ألقيت بنفسي على الاريكة ، منذهلة وبنفس الوقت متمرسة ومنهكة بتأثير حالة دفعت بي الى اللحاق بشخص مجهول برزت قامته القوية المتسلطة من الخفاء بعد غياب وصمت استمرا أكثر من ثلاثين سنة . أعجبت بهذا الضرير الذي كان قد فهم منذ اللحظة الأولى التي وضعت فيها يدي على رأس كلبه ، انني كنت طائرا منهكا ، فاقد الأنفاس وانه ما كان لأحد سواه أن يعمل على تهدئتي وتأنيسي. و«كاتشو روديكز » الرجل الذي باركته الآلهة الذي كان يسري بسهولةٍ ويسرٍ بين مصانع « مونبرناس » والقصور الأميركية في الدائرة السادسة عشرة ، والذي كان ينشر بكل وقاحة نصا مثيرا للغرائز والشهوات في احدى مجلات الطليعة تماما كأي حديث أو خطاب موجه الى الفتيات المتزوجات حديثا ، ينشره في مجلة « ايلتستراسيون » ! هذا الرجل لا يمكن ألا أن يكون قد عاش الحياة المزدوجة ، بل الثلاثية الأطوار الملك يتحلى بضحكة الطيور الجارحة وقد نصب بشكله الطبيعي في ردهة احدى الكنائس . كان من هذه الزاوية الغريبة أن بدا لي البطل الذي ترصدت منذ الطفولة تصريحاته المستندة الى المبادىء . ولم يكن قد رُفض شيء لذلك الذي كانوا يسمونه على سبيل المزاح وبكل رضى وسرور : « البوهيمي ذو البنفسجة » .

« ليونتين » ، التي كان والدها قد خصصها لملك البواخر الايطالية، كانت قد تركته يلمس صدرها تحت ملابس الرقص التي كانت ترتديها ، مساء يوم عيد الميلاد ، حينما كنت مختبئة تحت البيانو . وقد خرجت من هناك ملتهبة الوجه . كان « كاتشو » ناجحا ويبدو منتصرا في الألعاب الرياضية تماما كما كان يبدو في المقاهي والصالونات الأدبية . كلا ، لم يكن يرفض له أي شيء . واليوم ايضا ، رغم فشله وسقوطه ، فهو يجد الوسيلة ليحصل على المجاملة والدلال في المكان الذي كان يسميه قريته الصغيرة ، من قبل بعض ذوي النفوس الطيبة والقلوب الكبيرة المتلهفين للاطلاع على ما كل ماهو عجيب وغريب .

قبل قليل ، كان قد أمسك يدي بيده وضغط على ساقي بساقه التي قال عنها انها مقضي عليها . يجب علي أن أجده وأن ألقاه سرعة . كنت أعلم أنه أصدر لي أمرا بذلك ، رغم رحيله المفاجيء . أما بشأن أشجار الخوخ البري التي كنا قد جلسنا في ظلها ، فاني لم أكن أعرف فيما اذا كان هذا هو اسمها الحقيقي أم أن تلك التسمية ماهي سوى نزوة من بنات خيال « فيكتوار » التي كانت تحب أن تطلق عليها هذا الاسم عندما يحدث أن نكتشف بعضهافي الاماكن المجاورة لـ «التروكاديرو» كان ذلك أثناء تلك اللقاءات الزراعية أن كانت أختي بالرضاع تحدثني عن بيتها في الأوجنتين الذي كان يخرج منه عند الغسق قطيع من الخيول كأنه مجموعة من الأشباح . كان البيت قرمزي اللون . نمت حوله أشجار سوداء بينما كان الياسمين يعرش ملتفا حول الأعمدة وكذلك حول أكتاف تلك السيدات المسنات اللواتي كنّ يطقطقن بسبحاتهن وهن يتمتمن بالشتائم للأولاد الخبثاء وللأزواج السيئين وللخدم الشريرين . وأنا مستلقية على اريكتي ، كنت اتنفس بشكل متقطع ، متمددة على بطني وقد تدلت ذراعاي الى أسفل . كان علي أن أبدأ من الصفر ، أن أزيل من نفسي كل ماكنت قد عشته منذ رحيل سكان جادة « بيير » ، وأن أمحو موت « ماميتا » على سريرها الكبير وكذلك العائلة الجنوب أميركية التي لايحصى عدد أفرادها الذين يوالون العويل مرتدين

أوشحة الحداد السوداء . ولكن رؤى مشوشة ظلت ملتصقة كالديدان على جوانب دماغي . كنت أتخيل نفسي متعلقة الى عنق « فيكتوار » الصغيرة المتصلبة الجسم في فستان الحداد الأسود ، وقد جحظت عيناها كأنها تدفع الى محرقة هيئت خصيصا لها . كانت « فيكتوار مارتينيز دو آكونا » قد تقاسمت كل شيء مع أختها بالرضاع : الصداقات ، الألعاب ، المفاجآت ، الرحلات ، ولكنها أبدا ، ــ وأنا كنت أشعر بذلك جيدا ــ لم تكن لتتخلى لها عن أي جانب مما تعانيه من ألم . لأن ذلك الألم كان لها ، لها وليس لأي كائن سواها . « فيكتوار » كانت تعلم ، وقد ولدت بعد اخوتها باثنتي عشر سنة ، أنها ثمرة انصال غرامي ، وأن موت « ماميتا » سيظل سرا خفيا بالنسبة للجميع . وعندما حملوا بموكب مهيب ذلك الجثمان الجميل المعطر كي ينقل الى مسقط رأسه اكفهرت نظرة أختي وحال لونها من الأزرق الى الرمادي الداكن . وكل شخصها اكتسب ما أسماه « فاليري لاربو »(١) في الرواية التي كنت أطالعها : « الشباب المهيب » . لأزال أتخيلها ، وهي تجري الطقوس المعتادة لأمها ، ثم تغلق أبواب الخزائن ، وتمر بأصابعها على قطع الأثاث ، وتفرز البريد ، وترتب الستائر . لن أراها مطلقا تبتسم بعد الآن . لقد سافرت مع التابوت وكنت أعرف أنه ، لا بالنسبة لها ولا بالنسبة لي ، يمكن أن يكون هنالك نور في أي مكان بعد الآن . ومنزل آل (مارتينيز دو آكونا » الذي كان ملتفا حول الساحة ، حوّل خلال بضعة أسابيع الى مجموعة كنائس خاصة . لم يبق هناك شيء الا ووشح بالسواد حتى غرفة الكلاب . ماذا سيكون مصير تماثيل « دون الفونسو » ؟ أما غرفة الملابس التي كنت أتسلل اليها لكي أفتح هناك بيد حذرة الألف علبة صغيرة المحشوة بالأزرار والخيطان الحريرية ، كان يمكن أن تزول هي أيضا . وفي غرفة الملابس هذه ، انما كانت تجتمع الخادمات لكي يناقشن كل ما كان يجب على المرأة أن تعرفه عن الحب ، والرجل والخيانة ،

---

(١) « فاليري لاربو » : كاتب فرنسي ولد في « فيشي » ١٨٨١ ــ ١٩٥٧ .

ــ المترجم ــ

وكذلك عن الأعشاب المفيدة التي تخلص هذا العالم الدنيوي من عدد لانهاية له من أبناء الزنا .

وفي مطلع حزيران (يونيو) عام ٤٠ ، قامت أختي بالرضاع ، دون كلمة أو اشارة منهـا ، كما لو كانت خاضعة لقدر لا مردّ له ، بالانتقال من نصف الكرة الشمالي الى نصف الكرة الجنوبي ، بينما بقيت انا على رصيف اوروبا الباكية والدامعة العينين . « دون الفونسو » سيرحل ، بعد أن أدخل « دالميرو » و « جاك » في مشاريع مثمرة ومربحة أمّا « ليونتين » فسوف تنزوي في قصر ايطالي مع زوجها . ولن يكون مطلقا لأيّ شيء معنى بعد الآن بالنسبة للّذين أقاموا في المنزل رقم ٣١ الكائن في جادّة « بيتّر » . لن يعود أحد ، كلا لا يمكن أن يعود أحد ، لأنها كانت هي ، « ماميتا » التي تعرف أسرار كل الكواليس ، التي كانت تستقبل الأقطاب والشخصيات الهامة تماما كما تستقبل الخيّاطين والأميرات الشرقيات ، والتي تبتكر زيّا جديدا بصورة مرتجلة وذلك بوضع فردة قفاز سوداء باحدى يديها وفي اليد الأخرى فردة قرمزية اللون ، والتي كانت تشتري من « فينيسيا ، لا عقدا ، بل مصعدا زجاجيا لم يكن أحد يستطيع أبداً أن يجعله يصعد ولا أن يهبط ، ولكنّها كانت تتأرجح فيه بعد أن عملت على تعليقه في سقف الصالون . كانت « ماميتا» هي التي لم تكن تخرج من منزلها إلا بأبهة اللباس الرسمي وباقة الورد وذلك لتخلب لبّ جميع الفضوليين الذين يتواجدون على طريقها بينما تسير في الشارع بخطوات صغيرة ومتسارعة على كعبي حذاء جميل مكسوّ بجلد السمك .

كان ذلك في باريس ، بعد خمسـة وثلاثين سـنة ، وبالمصادفـة في أحد الأحياء الموسرة، أنّ ذلك الماضي الذي كان قد سرق مني أخذ يبرز فجأة من خلال جوّ آب (أغسطس) الثقيل ومن تحت عصا شخص مجهول أمرني أن أتبعه . نعم ، في باريس ، ودون أن أكون قد فعلت شيئا أو قمت بأي عمل كان لتحدي الشـيطان واثارته أو لايقـاظ الاشـباح .

« اذا لم تحترس من ذلك ، فان بقايا الانسان تتبعثر ، يا «أيزابيل» ولذلك أرسلت لنفسي احدى الساحرات . وهـي افضل من احـد المتنكرين ، صدّقيني . وهنالك تنبعث رائحة لحم البقر المشوي على اللهـب ... » .

ولبضعـة ثوان ، اعتقدت أنني قد فقدت عقلي . كان ذلك بالتأكيد صوت « كاتشو » الذي كنت أسمعه . فكيف دخـل هذا الصوت الى منزلي ؟ وبأية حيلة من حيل الحواة والمشعوذين استطاع التسلل مـن تحت باب بيتي ، ذلك الصوت الذي جهدت طيلة ستة ايام لأجد جسم صاحبه في ازقة الاحياء المجاورة . وكان هنالك ما يدعو الى الانهيار من الغيظ . والواقع انني بقيت ملتصقة بالجدار دون ان أجرؤ علـى القيـام بأيـة حركة . وفي حالة السكون التي عشتها ، رأيت بعين الخيال طفلا نظراته جوفاء ، كان بالأمس قد هرب مسرعا عندما رآني ادخـل المنزل .

كان لدى «كاتشو» عبيد لخدمته ، مستعدين دائما للقيام بكل المهام والأعمال . وكان يشبه أولئك الأبطال الصغار الذين كنا نراهم في صور حرب اسبانيا حاملين بنادقهم بأيديهم. كان الصوت في مكان ما بالتأكيد، تحت السرير ، داخل المكتبة أو وراء مشعاع التدفئة . ولكن لماذا فكرت بحرب اسبانيا عند وجود ذلك الطفل على عتبة باب منزلي ؟ كان رأسي يدور والصوت يلح : « ايزابيل ، لو تعلمين ... قد تنبت القرّة » تحت أذرع الساحرات . نعم ، في التجويف الكائن تحت ابطهن ... ــ ولماذا لا تنبت زهور « ازرار الذهب » ؟ اسكتي ! » ! هكذا صرخت بأعلى صوتي . كنت منهكـة من التعب ، أكاد أجن غيظاً بعد ستة أيام من البحث المضني كنت قد قرعت خلالها نحو مائة بيت ، متصنعة ابتسامة المتسوّلة . لم يكن أحد قد رأى ضريرا ولا كلبا ، ولا أي رجل تتفق أوصافه مع أوصاف « كاتشو » . وعندما كان يحدث لي ، لدى مروري قرب احد المشافي ، ان التقي باحد العجزة ، يتبين لي دائما أنه ليس سوى انسان بائس يسير في سبيله . وهاأن ولدا متحدرا من صورة مأساة

قد تجاسر على أن يدخل الى منزلي صوتا كان جسمه قد اختفى . على ألاّ يكون هذا الجسم لم يسبق له وجود سوى في ذهني أي في ذهن انسان منزو انهكته شدة الحرّ .

« اسكت ، اسكت ... » .

ولكنّها كانت تتابع السير في طريقها ، وهي تزداد شعورا بالراحة والحرّية ، مترفّعة وساخرة .

« انّها لجميلة بقايا الرجل ، خاصّة اذا سبق له أن كان رياضيا يكفي أن نتأمّل معالم وآثار الفن اليوناني . وان كنت انا اكشّر واقطب وجهي ، فان الرخام ، من جهته ، لا يكشر . وكانت احدى صديقاتي تقول : « الرجال ، انا اعبدهم ، ولكنهم يبعثون السأم في نفسي ! واذا بالمصادفة عثرنا على رجل جيد ، نكون نحن النساء ، الأقوى دائما .. » فالرجل ، يا « ايزابيل » يظل على الدوام على وشك الانحلال والاستسلام ويكفي أن تندس يد امرأة بين كاحليه (عرقوبيه) ، اقول بين كاحليه ، حتى في الحـــال ... » .

ماذا يريد منّي ؟ وما هي غايته من القيام بهذه اللعبة التي لا يقوم بها سوى الخبثاء والأشرار ؟ كيف عرف « كاتشو رودیکز » عنواني ؟ وقبل كل شيء ، كيف عرف من انا ؟ « أترين يا ايزابيل ـ كان صوته يتابع دون أن يضعف ـ كان عليّ أن أنسى كثيرا من الأمور . مثلا ، أني بكيت على جيتار لأوهم الناس أني كنت شاعرا معدما . ولذلك استأجرت ساحرة . ثم كان علي أن انسى اني كانت لدي الجرأة أن امثـل دور الأيتام ، نعم ، وحتى على خشبة المسرح ، في حين كنت أمضي أكثر وقتي بالقفز وراء كرة موجها ضربات بالصدر الى امثالي ، من صغار الفتيان الطيّبين حاملي عصا « الهوكي » تحت سقف على شكل غطاء المدخنة . نعم ، أن انسى أني قد تفوهت ببعض الحماقات كقولي : « أن فتيات فلوريس يضممن افخاذهن خوفـــا من أن .. أعضاءهن التناسلية .. »

لخ . حسن . لا اهمية لذلك . لقد فعلت على الدوام ما أردته وكل ما أردته قد اندثر ومات . ومع ذلك فان هذا البيت عن فتيات « فلوريس » ليس لي ، فقد سرقته . كنت قد سرقت أيضا « فزاعة » كانت تقف منتصبة بملابسها وراء حاجز دارتي . كانت تضع نظارة مفردة وتكتب شاهدات القبور . وماتت هي أيضا . والمنزل رقم ۳۱ ، شارع « بيير » مع مصعد « موورانو » الذي كان هناك ، قد مات وبيت أهلي الذي كان يقع على ضفة النهر قد مات أيضا . والسهل مع عرباته والأراضي البور التي كنت أبحث وأنبش فيها الى أن اعثر على بعض قعور الأواني الزجاجية لأجل النساء المذنبات اللواتي كن ينتظرنني في مخدعهن حيث كان مسحوق الرز منثورا بين قطع الأثاث المزيفة أي المصنوعة بشكل يجعلها شبيهة بالاثاث طراز « لويس الخامس عشر » ، لقد ماتوا، قعور الأواني الزجاجية والنساء المذنبات أيضا . وأخواتي الجالسات على شكل حلقة على الشرفة . انك لن تصدقني ، ولكنهن كن يدخن وهن متحلقات ، ويشتغلن بالسنارة ويطرزن وهن متحلقات ، ويغتبن الناس وهن متحلقات. يا الهي كم كن منفرات ويبعثن على القرف ! لقد متن بسبب ذلك . وقد انهار كل شيء ، فيما عدا أنت ، يا « ايزابيل » نعم ، مثلما انت الآن هنا ، مستلقية على سريرك . فيما عدا أنت ، يا ايزابيل ... » .

منذ برهة ، لم أعد أتحرك . لم يسبق مطلقا لأي عين أن تفحصتني كما فعل صوت « كاتشو » . اعترتني رعشة ، أخذ سقف غرفتي يدور فوق رأسي ثم هبط . وعندما استعدت وعيي ، كنت أسبح في عرقي .

« أيتها الطفلة المسكينة ، لقد تفحصت الحي بكل دقة ، فأنا اعرف ذلك جيدا ، وتسكعت في الشوارع التي تنتشر فيها حاويات الأوساخ على الأرصفة . انها لجميلة ، العاصمة في الصيف بأكشاكها المقامة في الزوايا من أجل لقاءات وأوساخ الصعاليك والمتسكعين ... » .

لم يكن « كاتشو » مخطئا . فقد بحثت عنه بينما كان يركب آلته الجهنمية في جدراني . ولكني كنت سأحولها الى نتف ، آلته الجهنمية

تلك ، قبل أن تنال مني . كانت كتلة من الغضب قد تجمدت في حلقي وظل الصوت مستمرا ، لم ينقطع .

« كنت اكره اخواتي . لم انم الا مع بنات عمي . أما أمي فكانت متدثرة على الدوام بملابس رئيسة دير من صنع « بواريه » . وكانت تقوم بدورها كزوجة بصورة تنم عن السأم والخضوع بينما كان أحد الالبانيين يقص لحية أبي . ولو تجاسر على ذلك لكان اصطحبه معه صاحبه الألباني في احدى الرحلات . كانت تربكه كثيرا على المراكب ثلاث بقرات حلاّبة . يجب القول أننا كنا ثمانية ، الكل متساوون في الأصالة من حيث النسب . كان اخوتي يحظون بالكثير من المكافآت المدرسية والرياضية والجامعية والميداليات الذهبية . بينما أنا ، كنت الفوضوي . هنالك دائما في المساكن البرجوازية في الريف ، غرفة خاصة للفوضوي . وفيها كنت اقيم . كانت مكسوة بالقماش الأخضر. كانت تتزاحم فيها كراسي وثيرة توحي لي بأفكار ظريفة ومتأنقة . كنت أحلم برفع ملابس الفتاة في حديقة الخوري . أما أخواتي فكن مدللات مزوّقات ومدلكات ويوزعن وقت فراغهن بين الزّنا والمزين . انه لساحر عجيب ، ذلك المزين . كن يخرجن من عنده جذابات يكدن يثرن الشهية. ولكن كلا ، كلا ، كن يشبهن نهرنا كثيرا . أف ! لقد كن صفراوات . كان أبي يراس المائدة العائلية بطريقة تنم عن البراءة والصراحة كانت تدخل الفرح الى قلوب الخدم الذين كانوا يقفون خلف ظهره . لم أستطع ابدا أن أتعامل معه بجدية رغم وقاره . كان ينظم الأشعار ويكتبها على ورق بنفسجي وأرجواني ثم يخبئها في أكثر الأماكن مدعاة للخجل والعار ، في مأوى الكلاب ، مثلا . كان لا يخرج الا في عربة سوداء ، يقف فيها منتصب القامة تماما ، ونظارته مثبّتة جيدا على أنفه الاسباني الجميل .

« والحقيقة أن أبي كان يعتبرني تافها وغبيا . كنت أحمل اسمه: « جوزي انداليسيو رودريكزاي مورينو » . مسكين أبي ، كنت مع ذلك

اشعر نحوه بالشفقة . كانت خيبة أمله مني كبيرة ولكنه لم يكن يرفع صوته مطلقا . كان يكتفي بتأنيبي بقسوة تتسم بالحنان . أكان يعلم ذلك ؟ كلا ، دون شك . أني كنت أحبه . كان في بعض الأحيان ، يستقبلني بعد وجبة الغداء ، في غرفة التدخين ، ثم يقدم لي سيجارة روسية ويقهقه ضاحكا وهو ينظر الي قائلا : « انت حقا ابني ، هيا ، بكل ما أتصف به من صفات سيئة : الزهو والكبرياء ، الحساسية ، اللامبالاة . ولكنك انت تنطلق على هواك وتتصرف على سجيتك . » اعتقد انه كان يتأملني باعجاب وهو يتحدث عن تلك الامور . ثم بحركة عصبية كان يركز نظارته وينصرف قائلا : « اتدري ، يا كاتشو ، لن يدهشني شيء بعد الآن . حتى ولا ان اكون قد انجبت شاعرا . فهذا العالم الجديد مجبول على قلة الحياء . أنا لدي موهبة بلهاء تجعلني لا أستطيع العيش دون أن أعمل . فلا تعتقد اني سعيد بذلك ، انه يكاد يقضي عليّ . » ثم كان ينطلق بسيارته السوداء الفارهة نحو واجباته الضخمة .

كم كنت أود أن أصبح رفيقه ، ولكنه كان يمتنع عن توطيد أي شكل من أشكال الصداقة الحميمية مع اي كائن كان . كان صمته المطبق يجعل نساء الجوار يرتعشن من شدة الرغبة ، ومن الغضب أولئك الذين كانوا يعتقدون أن من حقهم ان يحظوا بقليل من صداقته . أترين يا ايزابيل ، لقد كان ذلك دون شك بسبب تلك القمة المدببة والعالية بحيث لا يمكن بلوغها والتي ترعرعت تحتها ، أني عانيت على الدوام من نقطة ضعف حيال الساحرات . والنساء يدّعين البطولة ولا يبحثن في حقيقة الأمر الا عن الحنان المريب والمشبوه لدى الضعفاء والعاجزين . وبالمقابل ، أنت من أصل طيب . فقد هجرت زوجك الابله واحدثت عقدة في حياتك البسيطة الطيبة والهنيئة تماما لتحصلي على استقلال مريح . لقد انتفضت على الملل الناتج عن رتابة المسرّات اليومية التي تتوالى كالماء الذي يجري دائما في الاتجاه نفسه . وأنا أهنئك على ذلك . فهذا جيد ، جيد جدا . لا تدافعي عن نفسك . انك

شجاعة ، في مسكنك الصغير الكائن في الطابق الرابع عشر حيث لا يعرفك احد . أنت تعطين دروسا شبيبية لفتيات يرتدين الملابس اللاصقة التي تضيق بأجسامهن . ان ماضيك اعتبارا من عام ١٩٤٠ ، هو صفحة رمادية داكنة لا تريدين معرفة النص الذي تتضمنه . « ايزابيل » ، استسلمي للحب ، انصرفي للعمل ، هنا ، هكذا ، وانت مستلقية على ظهرك ... اتأملك . وأفكر بعدم امكانية رؤيتك . كان بامكاني أن أزعجك بركلة من قدمي لو أردت ذلك ، فيما مضى . من الصعوبة بمكان اخفاء أي شيء عن شخص ضرير . فقد عرفت كل شيء عنك وذلك دون أن يكلفني ذلك كبير عناء . فأنت تسكنين ذلك الحي منذ ثلاث سنوات . وقد هجرت زوجك تاركة اياه بين ذراعي أمك ، او بالأحرى على ثدي أمك لأن تلك التعيسة لم تكن تشعر بشهية الا لزوجها السكير الذي تنتظره، والكأس بيده ، وهي ترتب الكلمات المتقاطعة في صحيفة « فرانس سوار » . انها تتنهد عندما يتعلق الأمر بابنتها . كما أن السيدة « كلاريس » تعرف ، رغم كونك ترتدين القمصان المدرسية ، انك قد اصبحت شابة تتمتعين بالأصالة . وهي تواسي نفسها عن تصرفاتك الجنونية بالانصراف الى حل الكلمات المتقاطعة . وقد أحسنت صنعا بتخليك لها عن زوجك . فهو يدبر أمورها ويؤمن لها حاجياتها ، ويحدثها عنك . واني لاأتذكر أمك جيدا ، فقد كانت رائعة القوام ، تضع في اذنيها قرطين لهما شكل الجرس . كانوا يلقبونها بـ « نونو » . وكانت « ماميتا » تلبسها الأزياء الأندلسية . ولكن « دون ألفونسو »، من جهته ، كان يفضل أن يجعلها تبرز وتجلس له عارية تماما . ويجب أن تقول أنها عندما كانت تجلس له كموديل يكون في يدها دائما صحن في داخله تفاحة . وأنت ، حالما كنت ترينني ، كنت تختبئين خلف أحد التماثيل أو بين طيات تنورة « فيكتوار » ، هذه العاهرة التي قضيت عمري وأنا أتحاشاها دون ان أتوصل أبدا الى ذلك . انها هي التي نصبت لي فخا واصطادتني . لا تنقمي عليّ لأني اختفيت ، ياايزابيل ، فقد كنت بحاجة للتفكير . واذا كنت ، رغم المظاهر ، قد انتهى بي الأمر الى الانزواء في محبس في الطابق الرابع ، فذلك لأني شخص عاقل .

وقد بقيت على الدوام أحلم بالسكنى في قرية صغيرة الوانها زاهية ، وردية اللون من أسفلها الى أعلاها كقرى منطقتنا ، قرية أكون سيدها يحبني فيها الجميع . لقد قلت لك ذلك ذات يوم ، أني حققت احد احلامي ، بتلك القرية الصغيرة التي جعلت عبيدي السود الصغار يلونونها لي باللون الوردي الزاهي ، انهم أطفال الحي الذين يحبون أغنياتي .

والأن أعرف أنك سوف تطيعنني . لقد كنت تراقبينني بدقة عند ما كنت أجلس الى البيانو في صالون جادة « بيير » . وانظر بفضول واشتهاء الى « ليونتين » . يا لك ، أنت من بعوضة غريبة ومضحكة . كنت دائما أشعر برغبة شديدة بأن أسحقك عندما يحدث لي أن ألمحك . والآن أتى دوري كي أترصدك وأراقبك بدقة . أعرف أن لك وجها دقيقا وشعرا أجعد ، وانك تعطين دروسا الشباب في المنزل رقم ٢٠ الكائن في جادة « الجنرال لوكليرك » لكي لا تكوني مدينة بشيء للأبله الذي تزوجتيه . دروس شبيبية . وانك تحيطين نفسك بالحدباوات والمسلوعات اللواتي تعلمينهن البقاء شابات وأن لا يصبحن عجائز . ونتساءل لماذا كل ذلك . فحمدا لله ، لن تتمكني من أن تمنعيهم من الموت . وبالانتظار فان معهد (N. P. V.) يتيح لك مزيدا من الرضى والمسرات . انه لأمر جميل الا يتقدم المرء بالعمر والا يصبح عجوزا . وأنت ، حقا ، كم عمرك ؟ ثماني وعشرون ، ثلاثون ، ثماني وثلاثون ، أربعون ، خمسون ؟ بالتأكيد ليس أكثر من ذلك . الا اذا كان الزمن قد مرّ وانقضى دون أن يلامسك . ولكنه قد مرّ وانقضى مع ذلك ، وعلى أية حال . وأنا ، كم يمكن أن يكون عمري ؟ ولكن لا أهمية لذلك ، فأنا عنصر سيء . والعناصر السيئة ليس لها ضابط أو معيار . وفمك ، أستطيع تصوره ، أنه مالح كفم الاطفال . وجسمك يتمتع بشفافية شديدة ويكاد يكون غير محسوس . هيا ، اخلعي ملابسك . »

وصمت الصوت ، حينما بدأت أعتاد على ضحكاته المكتومة . وتصاعد في داخلي شعور بالمد والجزر ، فأصبحت كأني مطمورة داخل

مغارة مظلمة . لم أكن أعرف شيئا عن تلك الآلات التي يسمونها مانيتو (مولد كهرطيسي) ، وترانزيستور ، ولا عن أية أداة أخرى للتعذيب تستعمل في البيوت أو في الثكنات . كان المد والجزر يتعاظم ، مهددا بخطر جسيم ، اخذت اتحسس الجدران ، اتفحصها ، وأفتشها ، عندما برز فجأة نتوء تحت أصابعي . ضغطت عليه بحيطة وحذر في البداية ، ثم بكل قواي وفي الحال سمعت شخيرا تبعته حشرجة . وكانت تلك هي النهاية . أدرت حلمة الثدي نحو اليسار فتصاعد منها هذه المرة صوت أجش مبحوح . وكان هنالك تنهدات يتخللها نقيق متكرر . كان الصوت عند قدمي ، يتلوى ويلتف كالأفعوان حول مرقدي . وأعتقد أني سقطت ثانية على ظهري مرسلة أنين امرأة مشبعة وراضية .

في السادس من آب (اغسطس) لم يكن الحر الشديد قد خفت حدته ، ولم أكد أضع قدمي خارج المنزل بقصد شراء بعض المواد التموينية ، حتى دفعتني ثانية الى قاع المدينة روائح العرق الممزوجة بالرياح المنطلقة عن الاسفلت الشديد الحرارة .

كان هنالك بعض لاعبي الكرة الذين يكتنفهم البخار الرمادي ، يتابعون مباراتهم بحركات تشبه حركات الناقهين . والكشك ، وعلم دار العمدة ، والسيارات المصطفة على طول الرصيف ، بدت لي فجأة أكثر مدعاة للشفقة من أوان قديمة من البورسلين ملقاة في ركن قصيّ من احد المستودعات . وكانت أعضائي ، بعد ثلاثة أيام من التوتر والارهاق ، تبعث في جسمي الألم الشديد ، وبينما كنت أعبر الساحة، لامسني أحد راكبي الدراجات . لم يكن هذا الشخص من جماعتنا . واليوم ، كان أطفال حديقة « الأسبيران » يلعبون تحت نظرات خفيفة يلقيها الناس عليهم . وقبل موعد العطلة بقليل ، لاحظت وجود رجال يرتدون الملابس الفامقة اللون ، كانوا يتأبطون حقائب انيقة ، بل وسائح أو اثنين قد ضلا طريقهما . ولكنّ حيثما كان في حالة من الغيبوبة في

صباح ذلك اليوم الحار . كان وحـده تمثال « ميغيل سيرفيت »[1] الواقف بين السلاسل المحيطة بالرخام ، يحتفظ برفعته ومركزه العالي : « ١٥١١ ــ ١٥٥٣ » ، ميغل سيرفيت ، أحرق حيا ــ وتحت هذهالعبارة المكتوبة على القاعدة ، أضافت يد منصفة بالقلم الأحمر مايلي : « من قبل الكنيسـة » . وبينما كنت اسير بخطى ثابتة في شارع « موتـون دوفيرني » ، بدت لي صورتي الظليلية التي كانت تعكسها واجهة بائع البورسلين ، أقل حجما مما كانت عليه قبل احتجازي .

لم أعرفها في باديء الأمر : علمت فيما بعد أن السيدة «سيرافين»، بائعة الألوان ، قد أدهشتها مشيتي التي كانت تشبه مشية النائـم . ونادتني فلم أستجب لندائها . لم أكن ، والحق يقال ، متأكدة تماما بأني حية ، حتى ولا أني كنت كذلك عندما كنت ملقاة على سريري ، لا انهض الا لأسد" رمقي بقليل من الشاي والبسكويت ، دون أن أهتم أو أشغل بالي بالرسائل التي كان يدسها البواب تحت باب غرفتي . وعلى كل حال ، ربما لم يكن الموت سوى نعمة وحالة من العفو يبلى بها الجسم تدريجيا ليسمح للماضي أن يطفو على السطح . كنت قد تعلمت كيفية تنظيم الصوت الذي كان قد حبسه « كاتشو » من اجلي وأثناء الليـل كما في وضح النهـار ، كانت آليته تـستجيب لضغوط أصابعي . كانت الايام تمضي دون عثرات ، وشيئا فشيئا أخذتالكلمات التي كانت تصدمني ، تصبح ضرورية بالنسبة لي . كان الصوت يخضع لمتطلباتي . وكانت الصور تبرز حالما أشعر برغبة بذلك وكنت أعـود فأصبح فتاة صغيرة حتى في ذاكرة الاخرين . كان صديقي يستعيـد لهجات جنسه ، في الشعر أو في الموسيقا : « ان فمي ممتليء بالرمل . افتحوا صد"ارياتكم . هنالك عصفور يصو"ت حتى الموت ــ ومن جنة النعيم هذه ، التي تعلمت التعرف اكثر من مرة على غروب شمسها

---

(1) « ميغيل سيرفيت » : طبيب وعالم لاهوت اسباني ، ولد في عـام ١٥١١ واحرق حيا في جنيف عام ١٥٥٣ بتحريض من « كالفان » . ــ المترجم ــ

المرهق ، كان يتصاعد غبار سيء يسد لي انفي ويسبب لي أحيانا نوبة سعال حادة .

كان « كاتشو » يلهو في بعض الاوقات باستعادة ذكرى ماض من العنف كان يحيله الي بصفعات متتالية . ودون تمهيد كان يتخلى عن تحركاته وتنقلاته السريعة أثناء شبابه ليدخل في طفولة امرأة لم يكن قد تنازل مطلقا ان يلقي نظرة عليها . حينئذ كانت تماثيل جادة « بيير » تبرز حية من قبورها ، وكذلك السيدة « كلاريس » في فستانها الاندلسي . و « دون الفونسو » يعطّر لحيته أمام مرآة صغيرة ، وأبناؤه يزرعون ممرات المنزل جيئة وذهابا صارخين صراخا وحشيا . وكان صوت « كاتشو » يعود لاذعا وحزينا : « في ذلك البيت الذي ولدت فيه ، كانت « ليونتين » هي التي اشتهيتها في بادىء الامر . لم يكن لها عضو تناسلي . انت لا تعرفين شيئا عن الهوّات المغرية والمثيرة للرغبة والشهية ، يا ايزابيل ، ولكنها صرّحت لي ذات مساء بصوت ضعيف : « أريد أن تتيح لي مشاهدة عملية اعدام . « كان يتخلل عينيها اللتين تشبهان عيني السيدة العذراء ، تيارات سوداء . فأجبتها : « بالتأكيد ، اعتمدي عليّ » .

رغم ما كان يبدو من قسوة على آلية الآلة التي وصفتها في بادىء الامر بأنها جهنمية ، فانها كانت تستطيع ان تصبح رقيقة ومتساهلة وبدات أعرف نوابضها ودوافعها . وهكذا ففي كل مرة كنت أتوصل الى تبديد الاشباح التي كان « كاتشو » يرغب فرضها علي ، والتخلص منها كانت تبرز فجأة وبقوة بعض الصور الملونة والفاتنة من بين مجموعة من العلّيق : ذيل ثوب « ماميتا » ، أبرتها وهي تثقب قماش مريلة . كنت أتابع تحرك الابرة عبر العديد من الطيات والوصلات . والالم الذي اخذ يسري تحت شعر السيدة « مارتينيز دو آكونا » والذي كاد يقضي عليها ، كنت أشعر به . وعما قريب يمكن أن تصبح هذه المراة باردة الجسم تماما كأي ميتة اخرى .

ورغم يقظتي الشديدة ، كان صوت « كاتشو » في كثير من الاحيان يغيّر الموضوع دون أن أستطيع منعه من ذلك والمريلة المطرزة ، وذيل الثوب المخملي ، كانتا تذوبان ، وتمحي الصورة . كان الصوت يقول : « فيكتوار ، فيكتوار » . وكأنه يتحدث عن السم الزعاف . كنتما تذهبان سوية الى القداس . كانت هي تسير بسرعة الفرقاطة ، وكنت أنت تسيرين كزورق صغير من الورق . ولم يكن هنالك بالنسبة لها سوى الصرير ، وكان لسانها مشقوقاً ومتشعباً كأصابعها . ولم أستطع أبدا القضاء عليها ولا الاستغناء عنها . ولكنك لا تعرفين شيئا عن هذه الامور يا « ايزابيل » ، فالجرائم الصغيرة غريبة عنك . فهل بامكانك أن تمنحيني ثانية طعم الحرير ومحبته » .

طعم الحرير ومحبته ... ماذا كان يعني بذلك ؟ لم أكن اعرف شيئا ، بالفعل ، عن تلك الهوات الجذابة والمثيرة للرغبة والشهية ، ولا عن تلك الجرائم الصغيرة التي كان يتحدث عنها .

قال مدمدماً : « لقد ساورني هاجس « فيكتوار » . وكم كانت « فيكتوار » ترغب أن أُفرّغ كما يفرّغ كيس عتيق تكون قد دفنت فيه كلباً ميّتاً أو اية قذارة اخرى . كانت تعلم أنّي كنت أشتهي « ليونتين » وأني كان عليّ أن اخترع باستمرار بعض الرذائل والعيوب كي اوقظ لدى اختها ما يشبه الرغبة . كانت تعلم أنّ « ليونتين » كانت فاتنة ولكن في «بياريتز» كانت هي ، «فيكتوار» الصغيرة ولا أحد غيرها ، التي كنت أتاملها باعجاب من تحت فستان « ماميتا » بينما كانت هذه تتمطى وتسترخي وهي تنتظر ولادتها . من أين أتت ، ثمرة ذلك البطن ؟ ..

كانت الروايات الأكثر تناقضاً تنتشر وتروى عنها ، ولكن بالنسبة لي ، إن كانت من أمير أو من رجل عبقري ، فاني كنت أعلم أنها سوف تتفتح في الشمس دون أن تساورها الوساوس ، وكنت اعزها . كانت « ماميتا » تسخر ممن يعجب بها . وتقول ضاحكة : « إنّ طفلي ،

حالما يولد ، سيجعلك ترى منه جميع الألوان . كان « دالميرو » و « جاك » يقذفاني بأواني ملأى بالماء على رأسي حالما يفاجآنني وأنا أتعبد . « إنّ الجنين قد سحره ! » وكانت « ماميتا » تلامس بلطف رقبتي من الخلف . « يا للشجرة الصغيرة المسكينة ، لسوف تجفين وتيبسين بسبب بقائك ساكنة هكذا ، دون حراك » . والواقع انّ الامر اقتضى مني بذل الجهد خلال سنوات كي أبلغ المستوى الجمالي الجيد ، أو بلاهة الأبطال ، وذلك لكي تقلع سيدة أحلامي عن ارسالي لألعب في الحديقة . ويجب القول اني في قرارة نفسي ، كنت أعرف أنّ ذلك الشوط ، بل ذلك السباق ، مهما عملت ، فاني لن أربحه أبداً » .

كان يمكن ان يكون « كاتشو » قاسيا ، ولكنه في كل مرة كان يلمس في جسدي موضعا مؤلما ، كان يبدأ في الحال يروي شقاوات شاعرية قديمة ، وكأنه بأسلوبه اللطيف ، ليس سوى كلب صغير . كان يترجم بعض أغاني بلاده التي كانت تصبح حكايات تروى على أنغام الجيتار : « السمبا في بلادنا تشبه عدو الحصان في السهل الفسيح » ، هذا ما كان يقوله أيضا : « إنّ رائحة القمح والذرة الصفراء تفوح من حكاياتنا . وهنالك كذلك « Les Tristes » (المراثي والقصائد الحزينة) (١) وهذه تصلنا مع ريح الشمال ، الذي يعلن عن نوبات الغضب الكبرى . وفي الوقت الذي كان فيه الرجل يجدل الجلد الخام ليصنع منه الزنانير ، كانت المرأة تدير « كأس » المتة وتنقلها من يد الى يد . كانت مهمتها تقضي بتسخين الماء ، تارة لتأمين راحة ورفاهية العامل ، وتارة من أجل ولادة طفل ، سيكون له ، هو أيضا ، الحق بالحصول على حصان » .

---

(١) « Les Tristes » (المراثي) : قصائد مؤثرة نظمها « اوفيد » أثناء اقامته في « توميس » . وهو شاعر لاتيني ولد في « سلمونا » (٤٣ ق.م — ١٧ م) وكان شاعراً لامعا ، سهل العبارة ، أبعد الى « توميس » وهي مدينة « كونستانزا » الرومانية الحالية الواقعة على البحر الأسود ، وقد توفي الشاعر فيها .

— المترجم —

كان « كاتشو » يكثر من سرد القصص البسيطة بصوت حزين ، ثم بشكل مفاجيء ، كان يبسط جناحيه ويطير محلقاً نحو القمم ، حيث قوانين الزمن وقوانين الوزن والجاذبية الأرضية تصبح مختلفة عن قوانيننا . وإني لأذكر قصة مراهقين كانا قد اكتشفا قصرا مهجورا في أرض بور مهجورة ، وكذلك قصة شاب كان مغرماً بثلاث أخوات كانت تتداخل احداهن في الأخرى عند حلول الظلام ، كالدمى الروسية . كان «كاتشو» يستطيع أن يخترع ، أن يتحدث أو يغني ، دون أن ينال أبدا قسطا من الراحة ، وكانت حياتي ، تمضي يوما بعد يوم ، منسوجة بكل غرزات وحبكات سجادة بربرية . ولكن ، ويا للأسف ، كان عليّ ، ذات يوم ، أن أضع رجلي على الأرض ، وانزل الى الشارع ، ومجابهة حر المدينة ، اي ان أعود فاصبح وحيدة مهمومة ، تقوم بالمشاوير لتقضي حاجاتها .

أترك الكم أن تتصوروا مبلغ يأسي عندما عدت الى منزلي في نحو الساعة الثامنة عشرة ، ودون أن أمضي الوقت بخلع ملابسي ، أسرعت الى الحلمة السحرية ، ادرتها في كل الاتجاهات ، وأدرتها ثانية دون أن احصل منها على صوت .

لقد لعب عليّ « كاتشو روديكز » لعبة جديدة ، هي لعبة ، بل حيلة الصمت . وهذا الصمت ، كنت أسمعه . كان هنالك باب يفتح محدثا جلبة قوية ، كانت جارتي تعاني من آلام الوضع ، وكانت الصحون تتساقط عن الرفوف . وفي الشارع الرئيسي كانت السيارات تصطدم ويدخل بعضها في البعض الآخر والطيور ، نعم ، الطيور ، كانت تثقب لي اذني .

ومرت الساعات الواحدة بعد الأخرى ، وكذلك الليالي ، دون أن يقبل الصوت بالرجوع . وذات صباح ، بينما كنت افتش من جديد جدار غرفتي ، ادركت أنّ جهودي لا جدوى منها ، وأنّ الصوت كان قد هجرني : ولم تكن تلك حيلة أو مهزلة « كاتشو » الأولى .

حينذلك عزمت على الذهاب للبحث عنه . ولكني هذه المرة كنت مطلعة على سره ، سر قرية صغيرة وردية ملونة بلون الدم .

لا أحد يعرف زقاق « الزهـرة » **La Fleur** المغلق . إنه أضيق من دهليز في أحد السجون وأكره رائحة منه . ومع ذلك ، فاني في ذلك اليوم ، بعد مشوار طويل غير مجد ، قررت الدخول اليه . وبعد مسافة خمسة عشر مترا تقريبا ، لمحت الباب الكبير الذي كنت أبحث عنه والذي ظلت صورته عالقة على شبكية عيني من أيام مشاويري الأولى ، وذلك دون شك بسبب فخامته المزيفة ، وسط تلك القذارات . ترددت بدفع الباب ، الى تلك الدرجة كان المكان التي كنت موجودة فيه يجعلني أفكر بعمل أحد المازحين الذي يمكن أن يكون قـد حفر سردابا في ذلك المشى الواقع في الطابق الرابع حيث كان يقيم منـذ خمسين عاما ساعاتي ، وخياطة ، كما كان يوجد فيه مكتبان لدفـن الموتى . ولم أكن أتصور أنه يمكن أن يوجد خلف حاجز تعلوه دالية برية كبديل لزهور الياسمين ، ومع ذلك كنت أعلم أن تلك هي ما كانت تسمى القرية الصغيرة، تلك القرية التي كان يعدني بها «كاتشو رودريكز» بين حكايتين سيئتين .

لم تنخفض درجة الحرارة . كان الوقت ظهرا وبقيت جامدة على عتبة عالم جذبت اليه رغما عني وكان يبعث القلق في نفسي . وعندما دفعت الباب ، لم يسمع أي نباح ، كان هنالك مساكن ، أو بالأحرى أكواخ ، موزّعـة على صفّين ، اكثرها مزدان بأحواض زرعت فيهـا الزهور . كانت مطلية باللون الوردي ، وهذا اللون الوردي كان غريبا جدا لا يتناسب مـع منظر الواجهـة المهدمـة والأسطحة التي تغطيها الأعشاب الكثيفة . كنت أشعر كأني موجودة في أحد أحياء ايطاليا الدنيا وأخذت أسير بخطوات حـذرة بين تلك الجدران حيث كانت النوافـذ والأبواب مغلقة . لم يكن يبدو أن أحدا كان يشعر بوجودي . وفي لحظة معينة ، اعتقدت أني محتجزة في مدينة مهجورة ، بل وميتة . وأخـذت

مياه لزجة تنزلق على خدي ، كنت عند ذلك قد أخذت أفكر بالعودة من هناك عندما هتف بي صوت : « من هنا ، ادفعي ... » وألفيت نفسي أمام منزل مؤلف من طابقين ، كان يبدو جميلا . وكان « كاتشو » الـذي ما زال متيقظا يترصدني ، قد عرف وقع خطواتي. دفعت الباب ودخلت الى قاعة غارقة في الظلام ، ولو لم يهدىء الصوت من روعي ، لكنت أخذت أصرخ بأعلى صوتي ، قال الصوت ، « تبدين كفتاة صغيرة . نحن وحدنا هنا . والجميع نيام ، الجميع ما عداي . الدرج أمامك ، بل تحت أنفك ، هيا اصعدي !» ...

كان « كاتشو » يصدر الأوامر ، واخذت من جديد أتنفس بحرية . كان الصـوت حازما . بعـد فترة وجيزة لم يعد هنالك أثر للدرج . توقفت . صمت الصوت وشعرت بأنه يجب علي مراعاة تعليماته دون أن أطرح أبدا أية أسئلة . « لا تخافي ، أنا مستلق على سريري ، وهذه هي غرفتي . ويوجد من كل شيء في غرفتي : الحرب ، اللذة ، الرسـائل والنصوص المكتوبة بيد أصحابها ، نعم ! رسائل أولئك الذين آمنوا بي . يجب أن يكون دائما لدى النوابغ وأصحاب العبقريات نقاط ضعف حيال الناس التافهـين . وهنـالك الحيوانـات التي أحببتهـا ، أخـواتي و « فيكتوار » . « مشيث في الغرفة الغارقة في الظلام ، سعيدة جـدا لشعوري بأن « كاتشو » يرغب بتعذيبي . كنت أعرف من زمن بعيد أن براءتي كانت توقظ خبثه ومزاحه . وبعد برهـة ، أخذت أميز بعض الاشكال وأدركت طبيعة بعض الأشياء . تحسست بأصبعي صندوقا معدنيا صغيرا وضع فوقه تمثالان صغيران . حدثت طقطقة وأخذت بعض الدمى ترقص وتدور . ثم قفز على ذراعي شيء مغطى بالشعر . قهقه « كاتشو » ضاحكا : « هذا ليفار[1] ودبه » . شعرت بشيءيخمشني في جبيني . لا شك أنه غصن دردار عالق في درفة النافذة . كسرت منه

---

(1) « سيرج ليفار » راقص ، واضع رقصات ومدرب رقص فرنسي ، ولد في « كييف » عام ١٩٠٥ . الراقص الأول ورئيس فرقة الباليه في الاوبرا منذ ١٩٢٩ . ـ المترجم ـ

قطعة وقربتها من أنفي . كنت أشمُّ عبر رائحتها حزن الحدائق القديمة. لمست لوحة مثبتة في اطارها . منظر أم تجريد ؟... ربما لم تكن سوى صورة احدى القريبات جالسة على أريكة كبيرة . كان « كاتشو » صامتا . كان ايقاع تنفسه يدلني على اللذة التي كان يشعر بها لادراكه اني أقوم بلعبة الاستفهامية في منطقة نفوذه . وقال : « ان اللوحات التي على رف المدفأة هي من عمل « ماكس » . هذه بريطانيا . بريطانيا الحقيقية . وعلى الجدار الآخر ، « فيغاري » ، مخبر حسن التهذيب كان يرسم شياطيننا . آه نعم ! ذلك التمثال النصفي الكائن على الحامل ، هو لزوجة شاعر ــ أو بالأحرى لنصف زوجة شاعر . كان قد قطعها في ليلة غضب . كنت قد أردت ادخال السرور الى قلبه بانقاذي نصفها أو بالأحرى نصف نصفها ، وباعادة صبها في قالبها ، ولكنه لم يرغب بذلك . كانت هنالك الحرب في بلاده . ففضل أن يشتري سلاحاً . ثم ودع الجميع قبل أن يسافر ليؤدي واجبه . كان ذلك البائس يرتعد خوفا . اشترى معطفا من الفرو وذهب ليقيم وحيدا ، في غرفة في أحد الفنادق ، هكذا متدثرا بالفرو . يجب القول أن الفصل كان فصل الشتاء وأن البرد كان قارسا جدا ، خارج اسبانيا » .

وبيد مرتعشة لمست التمثال النصفي الذي كان « كاتشو » يحدثني عنه فشعرت بالغثيان . فقد انغرس اصبعي في شيء لزج . كان هنالك قرطان يتدليان على كتفي التمثال المذكور وبلامسان الثديين بحيث كان بامكاني أن أروز بل وأن أنتزع قليلا من الشمع ، ولكني سحبت يدي وقد شعرت بقرف شديد . كان صوت صديقي أجشا ، وبينما كنت أتابع رحلتي على جدران غرفته ، اصطدمت أصابعي بشيء ضيق ومسطح ، تابعته ، فاكتشفت شكلا كان يتطاول نحو الأعلى متوسعا . لامست الشكل باحترام فطري . تفوه « كاتشو » قائلا : « نعم ، مادة جميلة . فالمثال عرف كيف يستغل عيوب العاج ليثبت الساقين على الخشب . المسامير تعود للقرن الخامس عشر ، وكذلك الدم . والذراعان كسرتا ، ثم أعيد وصلهما بواسطة المسامير ، اما الصليب فهو حديث . وكلما سارت

الأمور بشكل أفضل ، كلما عمدنا الى التعذيب . كنت أعلم أنك يمكن أن تحبي الرب ، في هذه الغرفة التي سجنته فيها . « لم يكن هناك أي شك بأن الضرير كان يتابع حركاتي بكل دقة وكنت أعرف انه كان يطلب مني أن أتابع البحث والتفتيش . كانت تفوح في الغرفة رائحة الدخان البـــارد .

كانت كل النوافذ مغلقة ، في القرية الصغيرة ، والزهور التي كانت لا تزال تحيط بما بقي من المنازل ، قد ذبلت . « لا تخافي ، فالجيران هنا ، يعانون من الحر الشديد . وقد دهنت أكواخهم كيفما اتفق وخربشتها ، وكنت قد دللتهم ، طيلــة سنوات عديدة ، والآن فهم ينامون من شـــدة الجوع . ولا تزال باريس عاصمة الأرجنتين ، ولكن بلادي لم تعد سوى كيس عتيق من العفن . اقتربي يا ايزابيل. لقد حان موعد حقني بالابرة. وانا مصاب بمرض خطير . فلن أستطيــع المشي بعــد الآن . أحضري الصندوق الصغير ، نعم ، انه على الخزانة الصغيرة . والعلبة المعدنية ، وهناك ... القارورة ، زجاجة الكحول الصغيرة ... لا تخافي ... القارورة ... هذه هي ، برافو ! اكسري القارورة ، نعم على الرخامة ، اكسريها ... » . كان صوت « كاتشو » منقبضا ، قويا إكثر مما ينبغي ، ويكاد يكون انثويا . ولكن لماذا كان علي أن أطيعه . فلو كان حقا بحاجة للعناية وللمعالجة لكان أحدهم تكفل بالقيام بذلك . تحسست الخزانة الصغيرة ، القارورة ، والمحقن . كان « كاتشو » يئن : « أسرعي .. » ولكن كيف يمكنني أن أعترف له بأني أجهل كل شيء عن هذه الأمور ، وأني لم يسبق لي مطلقا أن لمست محقنا ، وأني أكره كثيرا كل أدوات معالجة الأمراض والآلام . « لا تخشي شيئا ! اسرعي ! لقد رأيت بالتأكيد كيف كانت « ماميتا » فيما مضى تدس يدها تحت ملابسها الداخلية دون أن تكف عن الابتســام . لقــد كانت قويــة جدا حيال هــذا النوع من الأمور والأعمال . لم أعد أستطيع الاحتمال ! « كان الصوت قد أصبح سيئا . وجدت العلبة وكذلك القارورة . وأعادتني رائحة الكحول على الفور الى المنزل رقم ٣١ ، شارع « بيير » ، والى الصالون الصغير حيث

كانت « ماميتا » تدس فعلاً يدها تحت ملابسها الداخلية . « افتحي العلبة ، هيا بسرعة » وكان هذا الصراخ الأخير مؤثرا جدا لدرجة انـه حطم ما بقي لدي من وسائل الدفاع ودفعني ، والمحقن بيدي الى قربه .

لم أعد أقاوم بعـد ذلك وانحنيت على صديقي . جسيت ساقاً ، ركبةً ، خاصرةً . غرست الابرة في البشرة . فقال : « هذا حسن » ثـم اعترته انتفاضة شملت كل جذعه الأعلى ، تبعتها تنهيدة عميقة جدا . تمدد جسمه ، واسترخى ، ارتفع ذراعاه وجذباني . « لاتستغربي ولا يدهشك ذلك ، كنت أعرف أنك ستحضرين . سوف أجعلك تتذوقين حبي لك ، ياايزابيل ، وبعد ذلك تستطعين الانصراف » . لم يعد صوت هذا الذي أطعته سوى شبكة . « لقد أتت « فيكتوار » في الشهر الماضي. وغمرتني بالزهور ، ولكنها رفضت أن تحقنني بالدواء . فهي تحب أن ترى الآخرين يتألمون . وقد فتحت النوافذ لكي يسمع الجميع صراخي . اذ أن « فيكتوار » كانت على الدوام تعجب بالمشاهد السيئة . فهي لايساورها الخوف ولا تجيد الارتجاف . فالارتجاف هو موهبة الشعراء. خذي يدي يا ايزابيل » . لم يعد « كاتشو » يتحرك . التصقت به ؛ ألقيت رأسي على كتفه . أخـذت يداه تعبث بشعري ، أطبق فمه على فمي ، وأخذ يتزايد ضغط ذراعيه حول خصري .

« لا تدهشي لغياب « سكوت »(١) . لم يكن قد بقي لديّ ما أطعمه اياه . وكنت أسمعه احيانا يبكي في الليل . ولكن لقد انتهى الأمر ، اني لن أستطيع المشي بعد الآن . وطالما أنت هنا ، فهذا افضل » : كانت يدا الرجل تطيل ملامسة ظهري وتعبث بي ، وشعرت شيئا فشيئا بعذوبة تغمرني . ولم أكن لأغير وضعيتي مقابل أي شيء في العالم . « اني أعرف عنك أكثر مما تظنين ، يا ايزابيل . لقد كنت أنت الدفء ، وكنت الوجه

(١) « سكوت » : هو الكلب . — المترجم —

الآخر المعاكس للكذب . فأنت تمثلين كل ماكنت أحلم به ، وكل ماكنت أشعر بالجوع منه » .

وأنا مستلقية بجانب « كاتشو » ، كنت أصغي اليه ، وقد كتمت أنفاسي . كان لجسمه المبلل رائحة الحرير . فتحت قميصه وأدخلت يدي في الفتحة . أسندت فمي على صدره ، وفككت أزرار ملابسه بينما كان يداعب خصري باحدى يديه ويباعد بين فخذيّ بيده الأخرى الى أن قلبني على بطنه . لم يعد الزمن يمضي فقد توقف . كان جسمي مثبتا على جسم تمثال على قبركنت أكتشف ماتحت ابطيه واعضاءه التناسلية . كانت الأشجار تنبت في المدن . وبعض الشوارع تحازينا وتمر بنا ، وكان هنالك نهر تغطيه المراكب . كنت مستلقية فوق جسم اشتهيته من زمن الطفولة . كنت أشم انفاسه ، أقضم فمه . وفجأة أمسكت عضوه ، رفعته الى أعلى كالعمود وأدخلته في جسدي ليبقى هناك الى أن انفجرت الدموع التي انبثقت من نظرة صماء وغمرتني .

أرجو الا يسألني أحد عما حدث بعد ذلك . لقد نسيت كل شيء . أعرف أني بقيت زمنا طويلا أترقب عودة أنفاس « كاتشو » ، وأنا أتنسم حتى آخر قطرة من تلك المتعة التي منحني اياها . وأعرف أني غرقت بكل فرح ثم طفوت على السطح وذبت من جديد وفي كل مرة ، كنت أتجرّع السعادة من ملموم مقضي عليه ابتلعته بشرتي .

أرجو الا أُسأل عما حدث بعد ذلك. لقد وجدت جثة في منزل يقع في آخر زقاق قديم . وقد علم رجال الأمن الذين استدعاهم الجيران أن امرأة مجهولة كانت قد حضرت الى زقاق « الزهرة » ودخلت الى منزل السيد « رودريكز » ، الشاعر . فقد قام الجيران بواجبهم . ولكن الأوصاف التي أعطوها عن المرأة الغريبة كانت غامضة : انها بالأحرى شقراء ، ليست مسنة ولا شابة ، لا طويلة ولا قصيرة . وقد انصرفت واختفت بسرعة كما تتبدد الغازات في الهواء ، ولكن لا تسألوها فيما اذا كانت قد شعرت بالخوف أو بالألم . فهي لاتعرف شيئا عن ذلك . لقد قتلتُ

رجلا ، انا ، « ايزابيل بود » ، وأعترف بذلك . وان كانت هنالك تلك الحقنة ، فهل أنتم متأكدون بانها قد أوقفت قلب ذلك الرجل ؟.. ربما كان يريد العيش ، وأن الحقنة لم تكن مخصصةالالاطالة سروره وبهجته. وربما كان يريد العيش متجاوزا بؤسه .

تأملوا ، مهما كان قرار العدالة ، فاني حرة وسوف اظل أبدا حرة، لدي ذكريات يجب أن أفرزها وأستعرضها ، كميات كبيرة من الذكريات، ولدي صوته . ربما تكونون أنتم الذين دسستم ذلك الصوت بين سريري والجدار ! فأنا ممتنة منكم من اجل ذلـك . لن تتأخـر « فيكتوار » بالحضور . فهي لايمكن أبدا أن يفوتها حضور دفن أحد الشعراء . وعلاوة على ذلك ، ألم تكن قد تزوجته ، « هو بالذات ، كاتشو رودريكز » في الأرجنتين فيما مضى ؟ لست خائفـة ، كلا ، لا تقلقـوا فاذا كنت أبتسم فذلك لأني لا أشعر بالخوف . وكاتشو معي ، هنا بالذات ، وهو بخير ، انه يغني ، بل ويقهقه ضاحكا في بعض الأحيان . لقد خفت حدة الحرارة ، فلماذا يمكن أن أشعر بالخوف ؟؟

تموز (يوليو) ١٩٧٧



السيدة القصيرة ذات الرداء الأسود

دفعت السيدة « ايلزا » الباب الخارجي ، اجتازت صحن الدار ودخلت الدارة (الفيلا) . وحالما أصبحت في منجى من الشمس ، وقفت أمام مرآة ونزعت قبعتها . كانت الردهة ، رغم فخامة أثاثها الواضحة ، مريحة وحفيّة . وكانت رائحة الخريف تفوح من الكتب القديمة الموجودة في المكتبة . كانت السيدة « ايلزا » تعيش طيلة السنة في البيت الذي ورثته عن والدها ،عضو مجلس الشيوخ : « رونديني » . وكان هذا البيت يقع بالقرب من أحد الشوارع الرئيسية . كان هنالك في الخزانة الزجاجية ، بين القوارير ، شيء يكاد لا يرى ، سن طفل أو رصاصة استخرجت من جرح أحد الأبطال ، كان شيئا ظريفا من الأشياء الغريبة التي تثير الفضول . وعلى الجدار ، فوق الموقد ، كانت قد توارت الصور التي أخذت في العطل والاجازات لتحل محلها صورة بارزة لرجل ضخم يتحلى بابتسامة عريضة وبشارب صفف على الطريقة الايطالية . وعلى ذلك الجدار نفسه ، كان هنالك صورة منفصلة عن اطارها لعروس برفقة رجل قصير القامة يبدو عليه السرور . وفي الجانب الآخر ، كان عضو مجلس الشيوخ « السيناتور » يقف بجانب تمثال « جوريس »(١) يخطب

---

(١) « جان جوريس » : سياسي فرنسي : (١٨٥٩ ـ ١٩١٤) ولد في « كاستر » ، خطيب لامع وأحد زعماء الحزب الاشتراكي الفرنسي ، مدير صحيفة « لومانيتي » ومؤسس الحزب الاشتراكي الموحد . قتل في ٣١ تموز ١٩١٤ — المترجم —

في حشد من الطلاب الذين يرتدون الزي الرسمي « الريدنفوت » . كل هذا العالم القديم ، المثبت بين الصور النصفية والمراوح اليدوية ، كان يبدو مستقرا تماما وفي غاية الراحة في ردهة آل « روندينى » .

فتحت السيدة « ايلزا النافذة » واستنشقت رائحة الزيزفون . نزعت وشاحها ، تناولت قبعتها عن الرف ، تأملتها ووضعتها في الخزانة مع القفاز . كانت القبعة قديمة ، تكاد تكون في مثل سن السيدة « ايلزا » ولكنها كانت لا تزال تثير الاعجاب . وكانت بائعة الخضار تؤكد بكل سرور قائلة : « ان هذه القبعة العتيقة ليست بالنسبة الي سوى احدى حدائق الفردوس » .

بدأ الجو يبرد في الغرفة التي لا تدخلها الشمس الا على استحياء، ولكن يدي السيدة القصيرة كانتا رطبتين وشعرها المصفف جيدا على جبينها ، كان رطبا أيضا . هزت رأسها ، أسالت الماء من صنبور على أصبعها وجلست قرب النافذة على كرسي هزاز . أخذت تشعر فجأة بأنها متعبة ، كما لو أنها كانت قد ابتلعت قطعة من الاسفنج امتصت كل هواء تلك الأمسية وتحولت الى سدادة عندما وصلت الى حلقها . وبيد عصبية ، أخرجت منديلا من تحت تنورتها وجففت جفنيها . ثم استندت على الجدار وأغلقت عينيها . وبعد لحظات معدودة ، تنبهت مذعورة . لقد دفع أحدهم الباب الخارجي . وأخذ يمشي في صحن الدار بحيث كان وقع أقدامه يسمع على الحصى . كانت السيدة « ايلزا » تستطيع معرفة زوارها من طريقتهم بقرع الجرس . ولكن هذا الزائر لم يقرع الجرس ليعلن عن نفسه .

« من هـذا ؟

ـ أنا ، « جواكان » .

وفتحت السيدة « ايلزا » الباب لتفسح المجال بالدخول لشاب ذي وجه جميل ولكنه ينم عن القلق والاضطراب .

« كنت بحاجة لأتحدث اليك عن ...

ـ اجلس » .

تمخط « جواكان » عدة مرات وأخذ يسعل . تناولت السيدة « ايلزا » دورقا من الخزانة وقدمت له شرابا .

« هل أتيت لحضور الاجتماع ؟ »

لم يجب « جواكان » . كان بالكاد قد بلغ العشرين من العمر . وكان وجهه باهتا بعض الشيء ، وعنقه نحيلا جدا ، فتبادر الى ذهن السيدة « ايلزا » أنه عنق شخص مقضي عليه ، ودارت في خلدها كلمات الرثاء والشفقة . ولكنها كانت تكره الرثاء والشفقة .

« أرجو المعذرة ، لقد أتيت قبل الموعد ، لرغبتي بزيارة منزلك . » كان يبدو منزعجا لخلو يديه الكبيرتين من أي شيء

« يا سيدة ايلزا ، بيتنا جوّه خانق . أخواتي يتعاطين المخدرات، أمي تلعب القمار مع بعض الجماعة ، وأبي غني جدا . أما هنا في منزلك ، فالمرء يشعر أنه بخير ، يتنفس بحرية . »

بدت الكآبة في عيني الشاب بينما توردت وجنتا السيدة القصيرة: « أحسنت بالمجيء مبكرا ، سأطلعك على أسراري . »

أمسكت بيد الشاب ، سحبت ستائر الردهة وأدخلته الى غرفة صغيرة تنيرها بعض المصابيح . كان هنالك مرآة متحركة كبيرة عكست صورة « جواكان » والسيدة « ايلزا » . وعلى مكتب مستدير كان يوجد

ورق باهت اللون وبعض المغلفات . وعلى الجدران بعض مناظر مدينة باريس .

« كانت هذه هى ردهة ماما « لولا » ، وقد ماتت في التاسعة عشرة من عمرها . » هذا ما قالته أخيرا السيدة القصيرة بصوت واهن ، ثم أضافت قائلة بسرعة : « لقد عشت على الدوام بجانب والدي . ومن نافذة غرفتي ، كنت أستطيع مراقبته وهو يمشي أثناء الليل . كان والدي يعرف أشياء كثيرة . »

وفتحت السيدة « ايلزا » باب غرفة يكتنفها الظلام ، وبعد برهة، أدرك « جواكان » أن قناع الموت لمن كان بمثابة آله بالنسبة لابنته : « دون أرنولدو روندينى » كان يرقد مغلفا بالسواد على منضدة من الخيزران .

ولاحظ « جواكان » تحت النافذة ، وجود رقعة شطرنج غريبة الشكل ذات رسوم هندسية وتتخللها صور الأبراج موضوعة على قطعة اثاث مثلثة الشكل .

« انها احدى ابتكارات السيناتور ، وقد أطلق عليها اسم « اللعبة العالمية الموحدة » . فهي تضم بمفردها جميع ألعاب العالم الأخرى .

— لكم أود أن أتعلم اللعب ب « اللعبة العالمية الموحدة » .

كان « جواكان » شديد القرب من السيدة « ايلزا » وكان يشع من عينيه بريق غريب .

ربما كان عليك أن تمضي بقية حياتك لتحقيق ذلك . فعندما توفى والدي كان قد بدأ فقط يتفحص خفايا وأسرار الفوضى التي كانت تعم العناصر والمادة قبل خلق العالم » .

صمت الشاب والسيدة القصيرة . وبعد بضعة ثوان ، قال « جواكان » بلهجة حادة :

« اني أعرف ذلك . فاليوم لم يعد الامر يتعلق باللعب . ولكني يا سيدتي ، أنا نقطعة الضعف ، بل الجانب السيء في التمرد ، الجانب الذي ينهار . وقبل أقل من عام ، أطلقت رصاصة في أذني . هذا سخف يثير الضحك ، أليس كذلك ؟ »

شعرت السيدة ايلزا بتيار بارد يسري بين كتفيها وعندما عادت الى تحت صورة السيناتور ، وضعت يديها النحيلتين على خدي « جواكان » . وهمست بصوت منخفض : « أحبك ، انك متحمس ، مشبوب العاطفة ولكنك لست من جنسي . أصغ الي جيدا : عليك أن تغادر هذا البيت في الحال . »

ـ كلا . . . كلا ، لست أنا !

كان الشاب قد أخذ يترنح .

« عليك أن تهدأ ، فهنالك طرق عديدة تجعل المرء يشعر أنه مستقيم في الحياة .

ـ لا يجب أن تقولي لي هذا ، أبدا .

كانت شفتاه بيضاء اللون .

« عليك أن تطيعني . »

ـ ولكن هذا جنون . اني أعرف ، أعرف ما يحاك في هذا المنزل . انهم سيأخذونني ، ويتغلبون علي .

ـ « عليك الا تتكلم . »

كانت اللهجة حازمة . فاغرورقت عينا الشاب بالدموع . وانحنى على اليدين اللتين كانت السيدة العجوز تمدهما له وشد عليهما بيديه. وعندما اعتدل في وقفته ، كانت نظراته جامدة وخالية من أية فكرة . ثم أبدى ابتسامة مغتصبة ، فتح الباب وخرج .

كانت الأشجار التي في صحن الدار تنشر رائحة الصيف الزكية . وشمس المساء تضفي اللون الأحمر على الأزهار البيضاء ، وكانت السيدة الصغيرة تحلم بزهور « الجرّيسة » التي تتسلق جدران منزلها . اغلقت الباب واخذت تنتظر . وفي آخر الشارع ، كان « جواكان » يبتعد مبديا حركات كتلك التي يبديها من به سكر شديد . ظلت ساكنة لا تبدي أية حركة خلال فترة طويلة تحت نظرات والدها ونظرات زوجها ، وهو شاب نحيل خداه موردان كان رجال الأمن قد قتلوه ذات مساء في « سان جوان » بطريق الخطأ . كانت قد بقيت متزوجة مدة ثلاثة اشهر ، وكانت تجد صعوبة كبيرة في تذكر اسم ذلك الذي ، لكي يكف عن احترامها ، كان قد انتظر مدة تزيد على المدة التي عاشها .

ثم جلست باسترخاء على أريكتها . كان جفناها يرزحان تحت وطأة خدر ثقيل يتسم بالكآبة . ولو لم يسرع مدعووها لكانوا وجدوها فاقدة الوعي في هذا المكان نفسه . كان يجب عليها أن تأخذ الأمور على عاتقها، أن تتصرف وتعمل . والضغط الدموي يرتفع حالما نتحرك . كانت تعرف ذلك وتعرف بشكل خاص أنه لولا « ايلزا رونديني » ، ولولا طاقة النشاط التي ورثتها عن أبيها ، ما كان هنالك شيء بامكانه انقاذ تلك البلاد التي هي بلادها . كانت تعلم علم اليقين أن أي أمل بالسلامة والخلاص كان يكمن في يديها وفي يديها وحدها فقط . كانت حرارة الشمس تزداد حدة . نهضت واقفة ، تخلصت من ملابسها السوداء وارتدت فستانا خفيفا . بعد ذلك اخذت تنتظر من جديد ، وكانت كل ثانية تمر على ذلك الصمت الذي يكتنفها تسبب لها ألما شديدا . وكانت لاتزال تتراقص أمام عينيها بين أشجار الشارع صورة « جواكان » المخلعة الأوصال .

كان الوقت قد تجاوز الساعة السابعة ، حينما كانت لم تعد تتوقع قدوم أحد ، عند ذلك سمعت رنين الجرس ثم وقع أقدام مألوفـة . شعرت كأن كتلة من القطن أو شيئا شبيها بها قد سدت حلقها . فتحت الباب قليلا ومدت يدها لشاب تسلل الى البيت ، يتبعه على فترات منتظمة شباب آخرون يرتدون الملابس الغامقة اللون ، تبدو من عيونهم نظرات باهتة لا لون لهـا .

وفي صمت مطبق ، اصطفوا تحت صورة السيناتور .

« حسنا ، يا أولادي ، يمكننا أن نبدأ . »

ــ ولكننا لسنا سوى ثمانية .

ــ لا أهمية لذلك .

ــ أليس « جواكان » هنا ؟

كانت السيدة « ايلزا » قصيرة القامة لا تبلغ بطولها ذقن أقصـر رفاقاتها . والح أكبرهم سنا الذي يبدو أنه كان يتولى القيادة عنـد وقوع الأحداث :

هل تعلمين ماذا يعمل أبوه ؟

ــ « جوليو » على صواب ، يا سيدتي ، فالأمر لا يتعلق بنا بـل بالقضيـة .

ــ ان القضية مدينة لكم بالشكر .

كانت اللهجة حازمة ، بـل وساخرة ، ودون أن تتابـع اهتمامها بضيوفها ، اخذت السيدة « ايلزا » تفرز صفحات كبيرة من الورق كانت تتقاطع عليها صـور وأرقام . وعندما التفتت كانت نظرتها تنـم عن الكآبة والغضب .

« عليكم أن تعرفوا أيها السادة أن أبناء الوحوش المخيفة ومشوّهي الخلقة لهم الحق بالحياة . فهل سألتكم أي بطن أنجبكم عندما ألحقتكم بالقضيــة ؟ »

ودون أن تنتظر جوابا ، وضعت رزمة من الورق في يد كل منهم .
« هيا ، الى العمل . »

أحنى الشباب رؤوسهم . وحاول أصغرهم سنا أن يضحك خلسة، وبدر من شاب آخر ما ينم عن التذمر .

أنتم أحرار ، ولكن عليكم أن تختاروا أحد أمرين : اما أن تنزلوا واما أن تتجهوا الى الباب .

حدث هرج ومرج أخيرا بين المجموعة القليلة العدد الملتصقة بالجدار ثم قرر أكبرهم سنا بلهجة حاسمة :

« اننا موافقون . »

عند ذلك التقطت السيدة « ايلزا » أنفاسها . وذابت تلك الكتلــة الاسفنجية التي كانت تسد حلقها . وتطاولت على رؤوس أصابع قدميها ووضعت قبلة على جبين كل رفيق من رفاقها .

« هيا ، أسرعوا ، لقد تأخر الوقت . »

وبطرف حذائها أزاحت البساط فكشفت عن فتحة سرية فيأرضية الغرفة الخشبية . وبدأ الشباب يهبطون الدرجات المؤدية الى القبو . ولم يفتح الأخير منهم فمه ، ولم يعبر وجهه عن أي انفعال ، عندمــا مد يده مفتوحة الى السيدة القصيرة ، فناولته شيئا ثقيلا ومدورا .

وهمست باذنه : « كالعادة » وأمّن الشاب على ذلك بحركةمن رأسه. اضطر أن يحنيه قليلا لكي يهبط ويغوص في الظلام .

أعادت السيدة « ايلزا » البساط كما كان على الفتحة السرية ، ونفشت شعرها . فمنذ خمسين عاماً عاما لم يتعرّق جسمها ، والآن ، منذ نصف ساعة ، أخذ الماء يسيل على صدغيها كما كان يحدث في زمن شبابها عندما كانت تتهيأ لاحدى حفلات الرفص . فكّت أزرار قبة قميصها . كان نسيم الليل الذي يتسلّل عبر شقوق النافذة ، عذبا . اختارت السيدة القصيرة كتابا وجلست على أريكتها .

وفي الأسفل ، في القبو ، كانت الآلات تعمل بشكل جيد . كان السيد « رونديني » قد اشتراها من روما ، عام ١٩١٣ . كان مستوى عملها ممتازاً . وغداً عندما يكون أصدقاؤها قد انصرفوا ، ستذهب للنزهة ومعها حقيبتها الضخمة وقبعتها الصغيرة . وسوف يردد الجزّار ما قاله مرات لا يحصى لها عدد : « من يصدق أنها ما زالت تقوم بهذا العمل مع انّها ربما احتفلت ببلوغها التسعين من العمر في شهر نيسان ! » وسوف توزّع المناشير الطافحة بالنقد والتهجم على السلطات ، فتنزعها من حقيبتها وتدسّها كيفما اتفق في المدارس وفي الحدائق . كانت تجربتها في هذه الأعمال تربو على سبعين سنة . ولم يكن أحد يعتبر ابنة « روندينى » الا ّ فتاة صغيرة ومسيحية صالحة كانت تحب الجو الريفي الذي يسود حيّها . وعندما كان الصباح يبدو لطيفا ، كانت تطيل نزهتها لتبلغ أرض البرية البور وتقطف الأزهار . كان ذلك الاثنين الأول من الشهر جوّه بشكل خاص ، ثقيل وحار . لذلك ربما قامت في اليوم التالي بزيارة الدكتور « كهون » ، وان لم تكن على تفاهم وعلاقة طيبة معه منذ أن اخذ يضايقها بالحاحه كي تتخذ لها خادمة ، بينما كان العيش وحيدة وبمفردها يناسبها كثيرا . فهي لم تكن اكثر عجزا من جاراتها ، اللواتي يقل عمرهن عشرين سنة عن عمرها . والله وحده يعلم لماذا أخذ الجميع منذ بعض الوقت ، يكيلون لها النصائح دون حساب : « حذار ، يا ايلزا ، يبدو أن فقدان الوعي يتزايد لديك باستمرار ، وأشجارك القديمة تكاد تسقط فوق أرض الدار . وباب منزلك يظل مفتوحا على الدوام . وبالأمس أيضا ... » .

ولكن كم كانت تلك الحيوانات المسنة سخيفة وبليدة ! لقد كان « روندريني » يكرهها . وكان يقول : « سوف ترون ، سأموت شـابا كيلا أرى النساء الجميلات يذوين وقد اضمحلت أجسامهن وترهلت واعترى 'دمغتهن الوهن والضعف » . وقد مات بالشكل الذي تحدث عنه لكي لا يرى صديقاته يتقدمن بالسن ويبلغن ارزل العمر ، وكذلك دون شك كيلا يسمع شكاوى وأنين عالم غائص في المظالم . تنهدت السيدة « ايلزا » . ففي كل مرة تتذكر والدها يعتريها شعور بالضيق تليه ضربة سوط على جنبيها ترغمها على التقلص والانكماش . وقبل أن تعود الى غرفتها ربما ستكتب رسالة الى ابن عم « ارنولدو » الموجود في « ميلانو » كان تلامذتها قد جعلوهاتفقد وقتا ثمينا . وهي أيضا كانت شابة ولكنها لم تستسلم أبدا للخوف . فلا شيء هنالك أخطر من الخوف . ووالدها كان يعتبر الخوف من زمرة الأفاعي . ولكن لم يكن لدى السيدة الصغيرة رغبة بالكتابة ، فميلانو كانت بعيدة جدا . وابن العم يمكنه أن ينتظر . فهي ربما أطلعته فيما بعد على ما كانوا يعملون أثناء الليل . وبطبيعة الحال ، فان لا أحد يستطيع تركيز تفكيره عندما يكون الجو ثقيلا وحارا الى هذا الحد . وهكذا ، فمنذ بضعة دقائق كان كتابها قد سقط من بين يديها ، وكان هنالك شيء يمنعها من تنظيم أفكارها ، شيء لم تكن تعرف منشأه ، ولا كنهه ولا اسمه . اعترتها رعشة . ثم ، ماذا أتى يعمل هذا العرق على عنقها وعلى فخذيها ؟ .. ربما لم تكن الحياة سوى انتظارا عبثيا لا طائل تحته ! لم يسبق لها مطلقا أن تاثرت بأفكار من هذا النوع وهي لم تكن تؤمن بالله ولا بالشيطان ولكنها لم يساورها ابدا أي شك بمبرر وجود الانسان . كان الامر واضحا ولم يكن هنالك مجال للخطـأ فقد كانت أسنانها تصطك . وكانت هنالك مياه لـزجة تتسرب في الخطوط والتجاعيد الكائنة حول فمها . لقد كانت تود أن ترزق طفلا ، واحدا فقط ، يكون جميلا مثل « جواكان » ، يكون بامكانها أن توحي له بالأفكار الجديدة ، بمثل ما فعلت تقريبا لابن صديقتها « ليونور » ، الذي كان يرحل من بلاد الى أخرى متنقلا بين أمم مختلفة ، تقوده أحدى اليابانيات ، داعيا الى التمرد والثورة ، الى الثورة ضد مديري وموجهي

الضمائر الذين ينشرون الجريمة وفساد الاخلاق ... ومع ذلك ، كلا ، لقد كانت مخطئة ، فابن « ليونور » لم يكن يدعو الى التمرد والثورة ، بل الى الظلم والطغيان . الا اذا كانت معلوماتها قد أعطيت لها بصورة مغلوطة . ومنذ بعض الوقت لم تعد واثقة من شيء . وجورجي لم يعد يأتي لزيارتها . لقد كان في الماضي يحب قضاء أمسيات الصيف في مكتب « رونديني » ، أمام اللعبة الموحدة التي كان يحرك قطعها وهو يهز رأسه كانت السيدة « ايلزا » تسمح له بذلك لأن أمه كانت متزوجة من احد الفوضويين ، المعجبين بـ « سبنسر » والذي كان يحلم بجزيرة مهجورة يمكن أن يبني فيها هو و « رونديني » عالما جديدا . أعتدلت في جلستها ما هي الجدوى من أن تروي لنفسها الحكايات ، وأن تغش بل وتخادع نفسها بالتفكير بـ « جورجي » وبصديقاته اليابانيات ؟ كان هنالك ضجة خلف الباب الخارجي ، ضجة خطيرة تعرفها جيدا ، وكان مصير عدة أرواح بشرية يتوقف على رباطة جأش « ايلزا رونديني » . كانت الضجة تزداد وضوحا وكان رفاقها محتجزين في القبو الذي اقتادتهم اليه بنفسها قبل ساعة من الزمن . أخذت الضجة تتزايد قوة ووضوحا ، واخذت تضغط عليها وتزعجها . كان هنالك أشخاص مجهولون بملابس رسمية قد اجتازوا الباب الخارجي دون أن يقرعوا الجرس . يا للشيطان ، بماذا كانت تفكر حتى أنها لم تشعر بذلك ؟ ... من المؤكد أن ذهنها قد اعتاد منذ بعض الوقت أن يمضي ويسرح خارج رأسها .

ودوت على باب غرفتها طرقات قوية كادت تحطمه ، في حين أن الآلات ، هناك في القبو ، كانت قد توقفت وصمتت . كان يجب العمل بسرعة لبناء عالم خال من البؤس والشقاء . فالجشع العام يقضي على الأذهان ويميت النفوس والشقاء شيء معيب وغير مقبول . وكانت السيدة « ايلزا » قد عملت تحت ادارة « رونديني » الذي استمر باسدائها النصيحة حتى بعد موته . كان قد رفض أن يحصل على الثروة والغنى وقد لفظ انفاسه الأخيرة في السجن لأنه كان يصرخ بأعلى صوته في كل مكان بأن الشقاء لم يكن سوى جريمة منظمة ترتكبها جماعة من

المنحرفين الذين يتولون المناصب الرسمية . وعلى شاكلة السيدة « ايلزا » ، كان هنالك عشرات الوف الملايين من المؤمنين يعملون لصالح العدالة وفي خدمتها . ولذلك فان الانسان سيصبح حرا عما قريب .

طرقة أكثر عنفا من الطرقات الأخرى على الباب الخشبي السميك هزت السيدة القصيرة وأيقظتها من أحلامها . واستردت روعها فلاحظت بارتياح أن حلقها ووجهها كانا جافين . ادارت المفتاح في القفل وابتعدت قليلا لتفسح المجال للمعتدين أن يمروا .

« قليلا من الهدوء ، أيها السادة ، فأبوابنا غير مصفحة » . كانوا ستة . ولدى مرور أضخمهم جسما أمام المرآة أصلح تسريحة شعره . وكانت رائحة الكحول تفوح من آخر ، وبما كان أكبرهم سنا . لم تكن السيدة « ايلزا » تضمر أية كراهية للكحول اذا كان من نوعية جيدة ، ولكنها كانت تستهجن شرب المسكرات الرديئة والعادية . أبدت استياءها عندما تقدم نحوها هذا الرجل الذي كانت تسمع صوت تنفسه .

« أين هـم ؟

ـ من هـم ؟ ...

ـ لا مجال لكثرة الكلام ، نحن نعرف كل شيء » .

كان للرجل أسنان كبيرة وجديدة تماما ووجهه وسخ .

« أبـن هـم ؟

ـ انهـم يعملـون .

ـ انه لأمر مضحك وغريب جدا ! الصفار الطيبون ، يعملون ، أين يحدث ذلك ؟ .. » .

أزاحت السيدة « ايلزا » البساط بطرف حذائها وكشفت عن الفتحة السرية . كل شيء كان يبدو محكوما وميسرا بقوانين قدر منظم بحكمة ودقة . لم يكن هنالك أي شك بأن « جواكان » قد اعتقل . ولا بد أن هذا البائس قد عذّب كثيرا . حيّا الضابط بهدوء صورة السيناتور :

« عزيزي المغفل العجوز ! » وقبل أن يندفع ويهبط على الدرج المؤدي الى القبو ، ألقى نظرة معسولة على السيدة القصيرة . « ألا تخجلين ، بعد كل ما حدث لزوجك ولأبيك ! ؟ وبعد أن ساور السلطات الضعف فتخلت لك عن الفيلا . تسعون عاما من السلوك الحسن لكي ينتهي بك الأمر وكأنك لم تكوني تعلمين أن الفوضى قد قضي عليها ! » .

أحنت «السيدة ايلزا» رأسها قليلا الى جهة كتفها وتحركت شفتاها، كان في ابتسامتها شيء من كل المشاعر والاحساسات : الحنين ، السخرية، التهكم والشفقة ، كان فيها من كل شيء ، فيما عدا الخجل .

أضاف ضابط الشرطة : « سنتحدّث عن ذلك هناك . سوف ترين يا « روندين » الصغيرة الظريفة بأننا سنكون سوية ، أنت وأنا والرفاق » .

أعادت السيدة القصيرة ما قاله الضابط :

ـ تماما ، أنت ، وأنا والرفاق .

وبينما كان الضابط وأعوانه يهبطون درجات الدرج الذي يؤدي الى القبو ، أرسلت السيدة ايلزا صراخا مكبوتا دوّى في أرجاء المنزل كنعاب الطيور الكاسرة :

« حذار ، تأهبوا أيها الصفار ! »

وعند انطلاق هذه الاشارة انفجرت ضحكات تتسم بالدهشة والذهول تبعتها همهمة هستيرية دوّت بين جدران القبو حيث كانت

ستتمزق أربعة عشر جثة شابة وتسقط مضرّجة بدمائها . وتبع الانفجار الأول انفجار آخر اشد عنفا وروعة زعزع أرض الفيلا وقذف البارود والغبار الى ما فوق سطح المنزل والى اعلى ذرى أشجار الزيزفون ، وحطم زجاج النوافذ ، وحوّل الاخشاب وبلاط البورسلين الى فتات . وانفجار آخر اصاب مباشرة وجه السيدة القصيرة فاخذت تتدحرج كدمية طفل حتى بلغت الرصيف ودفنت بين الركام والانقاض .

(تموز ، يوليو ١٩٧٧)



الفصد والنزيف

البارحة ، كان لا بد أن يكون الوقت ظهرا على وجه التقريب ، عندما أيقظني ألم حاد في أسفل جمجمتي ، والأمر الغريب لدى شخص معتدى عليه (كان الألم قد سببته أداة حادة) ، أني كنت واقفة . واقفة أمام مكتب وضعت عليه يدا امرأة ملأتاني رعبا . كانتا غير مألوفتين لديّ ، مثلهما في ذلك مثل المكتب نفسه والساعة الصغيرة أو المحبرة . وعبر فتحة لم أكن أستطيع تحديد موضعها تماما (كان الألم يرغمني على ابقاء ذقني ملتصقة بصدري) كانت أشعة الشمس تسقط على ذينك الكفين اللذين كانت أصابعهما ممددة ومسترخية على شاكلة الرخويات . وعلى طول الجدار ، كانت نتف من الأوراق تتعرش حول أشياء باهتة اللون . كان السكون ثقيلا ، وشريط معدني ينشر زلعومي . وفي وقت الظهر هذا ، كنت قد سمعته دقة بعد دقــة ولكني ، لم أكن أعرف شــيئا عن الكنيسة التي لا يمكن الاّ أن تكون قريبة منا ، كما اني لا أعرف شيئا عن قبة جرسها . حتى ولا أكثر من هذه الغرفة التي اخذ جوّها يصبح لزجا . كان كتفاي يتصببان عرقا ، وعنقي على حافة الاختناق . وفي لحظة معينة ، شعرت ببرد شديد يسري في أوصالي ، وبسرعة كبيرة أخذت لا أشعر بأن لي سوى حرقا في أسفل الجمجمة وجذع امرأة غرقى .

وحيث أني عزمــت على الاّ أدع نفسي ادوخ او اســقط ، فقد استطعت البقاء واقفة . لم يكن يتصاعد أي ضجيج من الخارج . وكل

ما هنالك ، كان من وقت الى آخر ، صفير خفيف على سوية مؤخرة رقبتي . ولم يكن في المنزل أية ضجة أو صوت . وفي أعلى المدفأة ، كان هنالك طفل رضيع في غلاف مخملي ، يمد لي ذراعيه . كان للغرفة شكل قطعة حلوى محفوظة في خزانة ، ورغم الجهود التي بذلتها لأتذكر ، فاني لم اتوصل لاعطاء اسم لا للتلميذة التي كانت ترتدي تنورة راقصة ، ولا للكلب الضخم الذي كان مربوطا الى حجر على قارعة الطريق . كل تلك الكائنات الملقاة مسمّرة في أطرها المزينة بأشكال حلزونية كانت تبدو لي في غاية البشاعة. أما العسكري ذو النطاق المشدود الى وسطه والذي كان ينظف نظارته المفردة لكي يثبّتها في الحال في تجويف عين فقدت لونها ، ما كان به كي يتبختر على رفوف المكتبة على شاكلة المهرج وأساليبه ؟

ولكون ساقيّ كانتا متعبتين وذهني تائه ومشوّش ، وليس لدي أية نقطة علاّم اهتدي بها سوى تلك الأشياء التي لم تكن تشكل شيئا بالنسبة لي ، كدت أتخلى عن الجولة وأدع نفسي أنزلق على طول الجوانب والجدران عندما لمحت شيئا قاطعا سمّرني في مكاني . أذكر أني كنت لفترة طويلة متأكدة أن الأمر لم يكن يتعلق بمقذوف عادي ، بل بنظرة صادرة عن صورة قديمة كان يبدو فيها على خلفية سوداء منظر خمس سيدات مسنات مسترخيات على أرائكهن . كانت شرفة البناء مغطاة بما يقيهنّ من الحر ، الذي يبدو أنه كان شديدا ، تدل على ذلك سرعة ايقاع المراوح اليدوية التي كنّ يستعملنها . وفجأة ، ودون سبب ظاهر ، تشبثت اليدان اللتان كانتا على المكتب واللتان سببتا لي الذهول ، بصدّارتي ، وعين المهرج العجوز بصقت على وجهي نظارتها المفردة والكلب الذي كان مربوطا تخلّص من سلاسله وأحدث فوضى في كتب المكتبة دون أن يدفع هذا العمل السيدات المسنات الجالسات على الشرفة الى الكف عن تحريك مراوحهن . كانت نظرتهن الفريدة والقاسية بنفس الوقت قد فقدت صفتها كقذيفة ، والتصقت بجذعي ، وكأنها احدى الكرات الدبقة ، وبينما كنت أرفع ذراعي لأحمي نفسي

من تلك الحملقة التي كانت بمثابة الامتصاص ، أصبت بدوار شديد وسقطت على المكتب ، وراسي في اليدين نفسهما اللتين كانتا قبل قليل منبسطتين تحت أشعة الشمس .

وعند المساء ، شعرت بانزعاج شديد عندما تذكرت أني سررت بالبقاء هكذا ، منهارة على منضدة ، لا أفكر الا على شكل اندفاعات : « لقد قتلوني ... ودفنوني ... واذا رقدت في هذا المدفن فاني لن أستيقظ الا لأشهد تفسخي ... الأطفال يتعفنون في شوارع الضاحية ... الا اذا لم يقبلوا أن يكبروا . وهكذا فقد دفنت لكي أنسى أن أكبر . العسكريون ، النظارات المفردة ، والفتيات المرتديات ملابس الراقصات ، كل هذا من سقط المتاع . ومع ذلك ، فان تلك اليدين اللتين كانتا تسنداني قبل قليل ، كانتا حيتين ، وكانتا تخدشاني . « والواقع ، أني أتذكر جملة أشياء : عقوبات : خروع ، مخ ، غرفة مظلمة . كان هنالك تفاحات صغيرة حامضة في توب مرضعتي الذي يكشف عن عنقها وكتفيها ، وكان لدى ابي خزانة ملأى بالأحذية . ومكثت اتمتم فترة طويلة . كانت بعض الرؤى المثيرة للقرف تتكون في دماغي . كان أحد الفتيان يقطّع ضفدعا حيا ، وفرس يعبر مرجا على قائمة واحدة . كان الوقت قد تجاوز آخر الأمسية ، عندما دفعتني حاجة ملحة ومفاجئة للنور ، فنجحت بتحرير رقبتي واستطعت أن ألتفت واحوّل راسي . وفي الحال دخلت الغرفة سماء ملتهبة .

كيف لم أشعر بمثل ذلك الضياء؟ فالشمس كانت هنا، في عينيّ، بكل أشعتها وما كنت قد أعتبرته عبارة عن شارع ، كان حديقة لشد ما كان يبهرني ازدهارها ووفرة نباتاتها. وللمرة الأولى أخذت أتنفس بكل حرية. وكل ما كنت أراه كان يشتعل وكنت أعرف أن الموت لا يملك اشياء خضراء، وأن الصور القديمة تعود ملكيتها الى عالم التوابيت الحجرية ، وليس الزهور هي التي تعود ملكيتها الى ذلك العالم ، كلا ليس الزهور . كان الماء الذي يتلألأ على أشجار الدلب ، سيتحول الى بلابل حالما تغرب

الشمس . التفت فلاحظت بكل سرور أن المهرج العجوز قد تجمد بشكل مهيب بين الكتب القديمة وانه قد اختفى كل أثر للكلب الضخم وللفتاة التي كانت ترتدي تنورة الراقصة كما اختفى معهما الألم الذي كان يحـز زلعومي .

المبنى العتيق ، في اطـاره القديم ، هو وحـده الذي لم يتغـير أو يتحرك . كان السقف الذي يغطي الشرفة قد انحنى قليلا الى اليسار وهواء الليل الذي كانت تحركه المراوح اليدوية ما زال يصلني باستمرار على دفعات . وأذكر أن شعورا بالقرف قد انتابني حيال كتامة وعـدم احساسية تلك الأشباح التي كانت نظرتها الوحيدة لم تفقد شيئا من شراستها ووحشيتها ، وأني أخذت أصرخ : « الى الشيطان ! لتذهب الساحرات الى الشيطان ! النجدة ، الغوث ! » وأن حركة أحد الابواب قد اجابت على ندائي .

كان هنالك من يجتاز عتبة باب الفيلا .

كان شخص ما يصعد على الدرج .

كنت اشعر بثقل جسم كان يصعد ، وبانفاس جسم ضخم . وفجاة فاحت رائحة ، تعالى صرير من خلف الحاجز ، ثم ساد الصمت مـن جديد . كان الرجل قد توقف . ولكنه كان سيتابع سيره حتى يصل إليّ؛ لقد كنت متأكدة من ذلك . انه لن يعود أدراجه ... ولكنه أخذ يتراجع ، وها هو يهبط الدرج ثانية . كان لكل صوت وقع في ذهني لدرجة أني شعرت فجاة كأن هنالك من أمسك بخناقي، وكأن رأسي محتجز في قفص من زجاج . ومع ذلك كان عنقي رشيقا وذراعاي متحركين . أما يداي في طرفي ذراعيّ فقد كانتا من جديد على المنضدة احداهما بجانب الأخرى، واصابعي مطبقة كما لو كنت على أهبة القيام برقصة بولونية . وتذكرت احدى البولونيات التي كانت فيما مضى تجعل الماء يتدفق من أحـد الأحواض ، ولكن رغم خضرتهما فان تلك اليدين بدتا أي مغضنتين عند

منبت الباهم واجتاحني شعور بالشيخوخة . وكانت أحذية أبي فارغة فجأة وهي في خزانتها ودون أن يتغير وضع أى شيء في الفرفة ، سمعت صوتا خلف الباب ،كان نقرا أو خربشة . ادركت في الحال اني كنت انتظر المعتدي عليّ بشعور من القلق واللهفة ، اي شعور المحبين ، وانه كانت تكفي أمور بسيطة وقليلة من جانب ذلك الغريب لكي أستعيد ما يشبه الذاكرة . وأن أحس في ظهري أنفاس رجل ، ويصبح عند ذلك كل شيء رائقا وواضحا . والساحرات يتشتت شملهن وتصبح نظرتهن غبارا تذروه الرياح .

كنت أتنهد ارتياحا عندما سيطرت على ذهني فكرة مفادها اني ربما لم أكن المحتجزة الوحيدة في الفيلا ، وان من المحتمل ان تكون مهمةالقاتل تقضي بأن يقوم بزيارة كل ضحية من ضحاياه ، تماما كالطبيب الذي يعود مرضاه . وربما لم أكن سوى بائسة اخرى ، من أولئك اللواتى ينساهن الناس في اعماق المستشفيات . انكمشت على نفسي ، وعاد وقع الاقدام يسمع على الدرج كما او أن القادم أوشك أن يهاجمني . كان الزائر منهمكا في تلمس وتحريك قبضات كل الأبواب ، وكأن قبضة باب غرفتي لم تكن سوى مسمار دق في الجدار . فمتى سيقرر الاهتمام بسجينته ؟ سوف يرى تماما أني كنت أنتظره ، وأن وجهي يعبر عن القلق . ولكن هل كنت املك أصلا وجها وحسب ؟ كان السؤال قد بقي معلقا . بحثت عن مرآة . ولكن المرايا لاتوجد الا بناء على الوجوه وتبعا لها ، وفي هذه الغرفة المزدحمة بكثير من الأشياء لا يوجد أي منها . لا شك انها قد تحطمت جميعها . وبحركة بطيئة أعدت الى فوق جبيني اليدين اللتين كانتا تخدشان صدري . لم يكن هنالك مجال للقلق : كان وجهي موجوداً هناك،حاراً وحياً تماما، وبه فتحتان كبيرتان لمآقي العينين. رفعت يديّ الى شعري وانتزعت خصلة تفحصتها وراقبتها بكل دهشة في البداية ثم بسرور شديد . كانت صهباء اللون ، (مغراء ، لون بين الأصفر والأحمر) ، كفيلة بنسف مستودع ديناميت . قهقهت ضاحكة. وفي الحال تدفقت الدموع الغزيرة من عينيّ .

كان هنالك شخص يقف خلفي . كان هذا الشخص يقول : « تشجعي ! » ـ وكان الصوت يبدو صادرا من أعماق بحيرة . كنت أشعر به أكثر مما كنت أسمعه . كان هنالك يدان تضمانني ـ « أعرف ، أعرف ، هذا مخيف » ـ وتداعبانني وتذكرت في تلك اللحظة ، والله وحده يعلم لماذا ، باقة ورد أمام احدى النوافذ ، في مكان ما ، ذات مساء كانت الرياح فيه عاصفة ». « حالما سمعت الخبر ، لم أقم بسوى قفزة . » قماطات مبللة كانت معلقة فوق حوض كان الصبي الصغير يفجر فيه الضفادع . كان علي مهما كلف الامر أن أمسك بذلك الولد الصغير ، ولكنه كان يتلاعب بي ويسخر مني . « لماذا حبست نفسك في البرج ؟ كدت أرحل ثانية » . كانت امرأة تتعثر بين ركام من قطع الحديد القديمة ، وقد صعدت على حاملات بهلوان . « أنا هنا ، أنا هنا ... » لكم كنت أود أن أمحو تلك الصور وأن أستلقي بين ذراعي الشخص المجهول ، الذي كان صدره لينا ناعم الملمس ، وأن أكف عن التفكير ، وأن أركض كالمجنونة وراء الجرابات البيضاء ، وأمنعها من أن تقفز في الفراغ . « ايزيكيل ! » ..... واتسعت عيناي . ولكم وددت لو أبقيتهما مغمضتين ، وأن أمنعهما ، هما أيضا ، من أن تقفزا في الفراغ . ايزيكيل ! « نعم يا عزيزتي ، كان يمكن أن يمضي ولدك حتى النهاية . لقد كنت تعلمين أنه يمكن أن سيبلغ النهاية » . كانت اليدان تعبثان بشعري وتداعبانه برفق . « ابكي ، أنت بحاجة للبكاء » ـ وانغرست ذؤابة سيف في بطني « لن أتخلى عنك . عندما أتيت منذ خمس سنوات كنت وحدك » ولكن كان لدي دور أقوم به . وقد انتهى الأمر ، لن أتركك بعد الآن مطلقا » . كان الصوت يدوي عاليا في الغرفة . « سوف أنتزعك من هذا البيت الذي تدفنين نفسك فيه . ولن يكون هنالك بعد الآن مجال لكي تنقمي علي » . لماذا لم يكف عن الكلام ويصمت ؟ كان صدره مطمئنا يبعث على الهدوء ، ولكني لم أكن أعرف شيئا عن الألم الذي يواسيني من أجله : « أن الأبناء ، يا « ديزي » يعاقبوننا على محبتنا لهم . وعاجلا أم آجلا فانهم يرهقوننا حتى الموت . « وايزيكيل » كان من عمل أحد الدخلاء ، وأنت تعلمين ذلك جيدا . « كان نصل السيف يخترق أحشائي وكانت

يدا الرجل وحدهما تمسكان بكتفي وتمنعاني من الانهيار » . ملكبتنا ماتت ، يا ديزي ، وخالاتنا ، اللواتي كنت تلقبينهن بكلاب الحراسة فارقن الحياة بينما كن جالسات على الشرفة . و « أليجو » مات أيضا . كنت قد اخترتيه بحذائه الضخم ورائحة الماشية التي تفوح منه ، بدلا مني . كان عليك أن تنتظريني . كان علي تحقيق الكثير من النجاحات قبل أن استطيع أن أحقق لك السعادة . ولكنك لم تكوني واثقة . تذكري ، في المستودع ، عام ٤٦ . كانت « كلاب الحراسة » في القداس، كان شعرك يبهرني ، كل جسدك كان يبهرني . كنت أكثر رقة من « فيكتوار » ، أكثر تكتما من « سابينا » . لقد ضممتك إليّ زهاء ساعة كاملة ، واحترمتك ولكنك لم تنتظريني . و « أليجو » لم يكن جديرا باحدى بنات عائلة « هو يرتا » . فهو لم يعرف شيئا طيلة حياته سوى السير مع حيواناته . « كان الرجل يمسك وجهي ، يضمه بين يديه ، ويغمرني بنظراته ولكن أحاديثه ظلت دون معنى . فقد كنت أجهل كل شيء عن الملكية التي كان يحدثني عنها ، وعن المستودع الذي ضمني اليه فيه ساعة كاملة . كان يقول أني قد اخترت متوحشا تفوح منه رائحة الماشية . كنت قد رزقت طفلا يقتل الضفادع . كان كلام ذلك الشخص الذي كان يواسيني يتتابع ، تافها لامعنى له ، وبقيت واقفة ورأسي يهتز » . وقال : « الحمد لله ، فالتعذيب بواسطة شد القيود على اليدين والرجلين لم يعد له وجود » . التعذيب بشد القيود !.. التعذيب بشد القيود . ولكني تعرضت له أنا قبل قليل ، وعلى عنقي حتى كدت أختنق ، هذا التعذيب بواسطة شد القيود . كانت يداي قد تدلّيتا وتوضّعتا على المنضدة . لم يكن ذلك المجهول يتكلم الا ليزعجني ويدوخني ، كان يقول أي شيء ، ولأنه كان يبعد وجهه عن وجهي لكي يراقبني جيدا ، فقد عرفته . وعصف بجسمي ألم شديد بينما كانت أشعة الشمس الأخيرة تدخل الغرفة وتحرق وجها لم يكن سوى وجه « ايزيكيل » . وأحاط بذلك الوجه رداء من الدخان وسمعت من بعيد، وكأنه منبعث من اسطوانة قديمة : « أتعلمين أني ، ذلك اليوم ، على التبن في المستودع ، كان بامكاني أن أسحقك ... » .

ماحدث بعد ذلك يبدو واضحا جدا في ذاكرتي . أعرف أن زائري حملني على ذراعيه ونزل عدة درجات ، وأنه دخل الى احدى الغرف ووضعني على اريكة . وأنه بقي بجانبي ساكنا لايبدي أية حركة خلال فترة زمنية طويلة . كان يردد قوله : « نعم ، يادبزي ، أنا حر » . كانت تشع من عينيه سهام صغيرة خضراء . كانت يداه ناعمتين ، ولكني لم أكن أشعر بأية لذة من مداعبته وهدهدته لي . كان « ايزايكيل » قد تركني لاني لا أشكل جزءا من حلمه . وفجأة ، نعم فجأة رأيت ما كان صوت مجهول قد انبأني به هاتفيا بالأمس : رأيت جسم طفلي يتأرجح وقد فصل عن رأسه . وملابسه وجثته ملقاة في أرض بور مهملة وعرفت على صدره الزغب الناعم تحت القميص الداكن اللون ، والصليب الذي كنت قد أعطيته إيّاه ، وقدميه المنتعلين حذاء وسخا . ورأيت ابتسامته التي كانت تبحث عني في جو ضبابي من العدم ، ورأسه الغائب بدا مخيفا بشكل مفاجيء ، فأخذت أصرخ : « كلا ! انه ليس هو ! كلا ! » .

مساء اليوم أصبحت أذكر كل شيء . أنا وحدي . لا أتوقع ولا انتظر شيئا . ليس لدي ما أعمله بحضور ذلك الذي تركني اتخبط في الأسلاك الشائكة وأنا أحمل طفلا بين ذراعي ، طفلا مجنونا بالعدالة انتزع قلبي ليعطيه للموت . كان شعر « أيزيكيل » أمغر ، وعيناه كانتا وقورتين تنمان عن الحزن . ولن يتعرض للتعذيب بشد الوثاق .

وأنا امسك بشبحه وأضمه بين ذراعي .

تموز (يوليو) ١٩٧٧



الاطار الدائري

منذ بضعة أشهر ، كان « انسليم » يعود الى بيته متعكر المزاج جداً . كان يتسلق طوابق القصر الاربعة بأقصى سرعة ، ويحبس نفسه في غرفته ، يفتح الأدراج ويغلقها ، ثم يتسلق المرقاة ويدق مسمارا في السقف ، ينزعه ويلقي به على زجاج النافذة . وبالأمس مزق سجادة صلاة جدته وتقدم نحوي ، ازاح الستائر وأسند على صدري سبابة لم تكن عائدة لا الى يده اليسرى ولا الى يده اليمنى .

وصرخ بي بصوت حاد : « عــرّاف ! » . ثم أطبق شفتيه وبصق في وجهي .

وبعد برهة ، اخذ الرجل الذي كان رأسه المكتور كأنه مثبّت بلولب على عنق مراهق ، ينتزع ربطة عنقه . وعند الساعة الثامنة خلع بنطاله وفي التاسعة قميصه المزين بالرسوم الغريبة ، وعند الساعة الحادية عشرة فتح زجاجة شمبانيا واخذ يشتمني .

وعندما دخلت اشعة الشمس الأولى الى الغــرفة ، التي كانت بصرامة وشظف أثاثها : أرجوحة ، حلقات حديدية ، احصنة مقطوعة الرؤوس ، تشبه الى حــد كبير الغرفــة السرية للملك كاثوليكي ، كان « انسليم » ثملا تماما .

كان منكمشاً قرب الجدار ، يدحرج زجاجة خمر كبيرة فارغــة . كان منظره الجانبي باهتا ، وفتحتا انفه متسعتين ، وقد اخذ يراقبني

بعينين حادتين . قال هامسا بصوت يشبه الصفير : « متى ستكفّين عن ترصدي ، أيتها الجيفة ؟ » كان وجهه نحيفاً . ولم يكن يشارك العائلة بتناول وجبات الطعام الا مرتين في الأسبوع ، ونادرا ما كان يغتسل. كانت مشاغله تستغرق كل وقته . كنت أجهل كل شيء عنها تقريبا ، ولكن كان يبدو لي أمرا بديهيا أن احدى تلك المشاغل كانت الانهماك في السكر زيادة عن الحد المعقول .

وفي لحظة معينة ، في الوقت الذي لم أكن أتوقع منه ذلك ، انتصب واقفا ، وبعد قيامه ببضعة انتفاضات ، تسمر أمام دائرة الضوء التي كنت موجودا فيها . كان هذا الاطار القديم يشبه أفعى سوداء ملتفة حول بركة ماء . كان يحتويني بكاملي على وجه التقريب ، ولكني كنت أكرهه لأنه ، بعد أن توج بهالة من الزينة عدّة أجيال من رؤساء الدول لم يعد له أي عمل سوى اظهار حدود سجني . وعبر السنين ، فاني لم أستطع أبدا ، رغم جهودي المضنية ، الافلات منه الا لبضعة سنتميترات ، وذلك فقط عندما كان « أنسيلم » يصاب بما يشبه الدوار .

كان صديقي يراقبني ، صباح اليوم ، بعينين زائغتين ، وجفنين محمّرين عند منبت الأهداب وشفتاه مشققتان مثلما يكون عندما يعود من الريف في فصل الشتاء . وبيد مرتعشة ، بحث عن بنطاله على أرضية الغرفة ، فوجده بين ساعدي فرجار رسام ، ثم لبسه واتجه نحوي ، عند ذلك حدث أمر لا يمكن وصفه : فقد أخذ « أنسيلم » يلامس جبيني مداعبا ويقول : « يا القذر المسكين ! » ، وكما يخرج الطبيب الذي يستدعى لعيادة مريض ، ميزان الحرارة من محفظته ، اخرج سلاحا ناريا من جيبه ، ثم وضع فوهته على صدري ، وضغط ضغطة خفيفة واطلق النار .

ارتج وتزعزع الاطار الدائري الذي كان يحيط بي . وتطاير الزجاج الملوّن شظايا ، واهتزت الستائر ، وقفزت كما يقفز كلب « السيرك » ،

قفزت خارج المرآة لاجد نفسي بكليتي في غرفة « أنسيلم » ، وجها لوجه امـام أشـلائه .

لأنه مهما بدا ذلك غريبا ، فان صديقي ، صديقي الوحيد ، كان قد أصيب اصابة قاتلة .

لا شيء كان يدع مجالا لتوقع نهاية كهذه ، لقصة حياتي المشتركة مـع ابن الوزير .

وكلما زدت من بذل الجهد كلما اصبحت أقل فهما وادراكا للأمور : فقد أراد « أنسيلم » أن يقتلني . وقد انطلقت رصاصة من مسدس مصوب الى قلبي ، وهو الذي أراه الآن ملقى عند قدمي مضرجاً بدمائه ، بينما أنا ، المقضي عليه بالموت ، اتأمل ذلك الدم وهو يسيل بسرعة كبيرة بحيث أنه لن يبقى من القاتل بعد قليل سوى غلاف بالٍ ومدعوك .

لست ذكيا ، وكثيرا ما كان « انسيلم » يعيب علي ذلك . وأنا اعاني من فقر دم منذ عهد الطفولة ، ويختلط علي الامر فلا أستطيع تمييز التواريخ ، واجهل قيمة الألقاب الفخرية وانما بصعوبة كبيرة كنت أفهم ، هذا فيما اذا كنت أفهم أصلا الآلية السياسية والاقتصادية في البلاد التي هي بلادي . ومع ذلك فان « أنسيلم » كان يكّن لي مزيدا من التقدير . فقد كان يمضي ليالي بكاملها وهـو يصف لي عمليات الغزو الاسبانية . وكان يكثر من ذكر التفاصيل عن جرائم « الكنيسة » وعن مواخير هولاندة الخفية ، ولكنه لم يكن يعلمني كيف أفكر بصورة سليمة ولا شك أني بسبب ذلك قد استحال علي اللحاق به في موته .

تأملوا ، لم يكن يصطحبني أبدا الى « الأدوراسيون » ، وهي ملكية أحد الملوك التي كنت أسمع حفيف أشجارها في الحلم وارى قطعـان ماشيتها تتلون بلون الذهب تحت أشعة الشمس ، عند الغروب . وكان يقول لي حالما تبدر مني اشارة الى فردوسه : « انـك لن تريد ذلك ! في الهواء الطلق أرتاح من لسانك القذر » .

وعندما كان يحدث لي ان افاجئه على مائدة احد المطاعم او في سرير احدى النساء ، فلا يكاد يشعر انه قد حوصر وامسك به حتى يختفي في الحال خلف المنشفة أو تحت الشراشف . ولم يكن يدعوني مطلقا الى الجلوس معه في المكاتب التي كان والده يستقبل فيها السفراء . أما متعة النزهات على القارب على مياه البحيرة ، فانه كان على الدوام يحرمني منها . وهكذا كانت الحال ايضا فيما يتعلق بالبحر . فلم أكن أعرف عنصرا سائلا سوى السائل الذي يجري في مغسلة « أنسيلم » ولا نباتا آخر سوى نبات لحيته بعد ازمة تدوم يومين .

والآن وانا أقف حيا بجانب جثمانه الذي فارقته الحياة ، أشعر بأني قد كبرت أخيرا وان علي أن أفهم . ذلك لأنه انما لي انا بالضبط كان « أنسيلم » يبدي نمو وانتشار عضو الرجولة لديه ، ومعي انما كان يدرس الحركات المغرية . كنّا نكبر متلازمين جنبا الى جنب . ففي اليوم الذي اكتشفني فيه في مرآة المعهد الرياضي ، كنا لا نكاد نجيد المشي . فقد انتزع نفسه من بين ذراعي أمه وأسرع فالتصق بي . وبعد صمت عجيب اتسم بالدهشة ، بدت القسوة في عينيه وصوب لي ضربة بقبضة يده على راسي ، وصرخ وهو يتراجع الى أن التصق بالجدار : « ما أقبحك ! » ثم انفجر بالبكاء .

أذكر بسرور شديد بدايات وجودنا على قيد الحياة . وقد الف « أنسيلم » بشاعتي وقبح شكلي . كان يجلب لي بعض الحصى ، يخرجها من جيبه ويلحسها . وفيما بعد ، ركب دراجته ليأتي الى كوخي ، وبعد ذلك أيضا أحضر لي صورا فاضحة سرقها من حقائب أخوته . وكان يقول لي وهو يضحك : « انك تبدو كالبهلوان . لماذا لا تقفز ؟ ... هيا تعال ، أقفز ... » كنت أشعر بالسعادة لرؤيتي اياه ينعم بالحياة ، وكان هو ، يحب سعادتي ويسر بها .

ولكن « أنسيلم » ، منذ عدة أشهر ، قد تغير ولم يعد ذلك الرجل نفسه . وأخذت صداقتنا الحميمئة تتدهور وتسوء يوما بعد يوم .

وانتهى الأمر بالشريك والرفيق القديم ان أصبح عدوا ، وصباح اليوم ، عند الفجر ، بفضل حادث كان خفيا وغامضا بقدر ما كان مؤسفا ، هو الذي لم يعد يعتبرني سوى جذع مذكر محصور في اطاره الخشبي القديم ، يصلح ، على أكثر تقدير ، لتمزيقه نتفاً والقائه في الوحل ، ها هو قد سقط عند قدمي .

يا لأنسيلم المسكين ! ... لقد كنت قد أحضرت لي في الصيف الماضي امرأة فاجرة . كانت شديدة البياض ، وكان الحر شديدا جدا . وكنت تسحقها على قضبان سريرك الحديدية . ولكم كنت أود الاستمرار بمشاركتك ملذاتك . كنت تحدثني عن امرأة سنغالية وكذلك عن عملاقة . .

كان الجو نديا ، بل باردا بالنسبة لصبيحة أحد أيام شهر نيسان (ابريل) . وأنا أعرف ذلك النسيم المخادع الذي يدفع لك الى تحت اغطيتك . ولن أستطيع البقاء مزيدا من الوقت بجانبك ، يا أنسيلم ، ولو كنت حيا لقلت لي بأن اعمل واتصرف بسرعة . أنا لا أريد أن اغلق النافذة . فأنا بحاجة لضجيج الشارع . وعندما فارقت خليلتك الحياة خليلتك « ميلبا » المخيفة ، لم يبدر منك ما يدل على الانهيار . فقد تعلقت بالحلقات واخذت تتأرجح خلال فترة تزيد على الساعة . كنت تحت تلك الاجنبية التي تفوح منها رائحة المرأة السمراء والتي كانت يداها تبدوان دائما كأنهما على وشك الانفصال . والهرب . وكنت تقول أن المآسي يجب أن يعيشها الناس وقد أحنوا رؤوسهم . وأنا لم أشاهد أبدا مشهدا مسرحيا ولكني أعرف انك كنت محقا في ذلك وعلى صواب .

كان أهلك يستنكرون ذلك الولع المضطرب . ربما انهم قد قتلوا « ميلبا » كي تستطيع أنت التصرف بموتك . لا تخش شيئا ، سوف أكون جديرا بالحالة الجديدة التي عيّنتها لي . ومنذ برهة ، تسللت الى أوردتي نفحة عصبية . وحميت عضلاتي . وبتوفّر قليل من الحظ ، لن يبقى بعد قليل أي أثر لأشلائك . ولم يعد بؤبؤا عينيك سوى دائرتين صغيرتين دون ذاكرة ، وانفك ، كرة من لب الخبز . وخط

الحظ في راحتيك يطفي على خط القلب ، وجبل « فينوس » مجموعة من التجاعيد وأصابعك كلاليب . والمحبس الذي كنت تضعه في احدى اصابع يدك اليسرى يناسبني تماما . أما المحبس الذي كنت أضعه في احدى أصابع يدي اليمنى فقد اختفى . وأما المسدس ، فهو على المنضدة بجانب السرير . وانا الذي وضعته في هذا المكان . ومع قليل من الحظ ، سأصبح رجلا عما قريب ، سأجمع بقايا صديقي وأبعثرها. وغدا ، عند الساعة الثامنة ، ستحقق الكونتيس ظهورها الصباحي . هي تدعى « غلوريا » وسوف تأتي لتقتطف قبلة ابنها . وعندما تكون قد غادرت المكان ، سأرتدي القميص الموشى بالرسوم ، وسأسوي على وركي بنطال انسيلم وأمشي على الاطار الذي حبسني طيلة حياة بكاملها . سأمسك بذلك الاطار الدائري المتكلف والزنديق ، بكلتا يدي ، أشد عليه وأتجاذبه الى أن يتحطم ويكف عن تقليد تيجان الأموات الجنائزية . بعد ذلك ، سأتعلق ، بل سأشنق نفسي في حلقات الجهاز الرياضي وعند ذلك يدخل أخيرا هواء المدينة الى غرفتي . والشوارع ، جميع الشوارع ، الأكثر أبهة وفخامة والأكثر ضجيجا وصخبا سوف تصبح لي ، وكل النساء ، بمؤخراتهن التي تشبه مؤخرات الكلبات . النهر ، الحصي ، ومكاتب والدك ستصبح ملكي . سوف أصبح أجمل منك يا انسيلم وأكثر ضخامة من اي ملك . سأظهر على الشرفة وفي الوقت الذي سيصفق فيه لي الشعب ، سيكون هنالك دائما وراء ذلك الطلاء الحائل الذي كان قديما على المرآة حيث ضحيت بشبابي ، ابن عاهرة يتحمل انتصاري ويقضي نحبه بدلا مني عندما أشعر بالرغبة بذلك .

الآن ، الآن اذا التفت ولم يكن هنالك أحد في المرآة . لم يكن فيها أحد سواي ...

آب (أغسطس) ١٩٧٧



لعبة الخوف

انه لأمر مخيف أن نقضي نحبنـــا

دون أن نكون قد فتحنـــا جميـــع النوافذ .

كانت ساعة التعذيب قد دقت .

وحالما اجتزت عتبة « الشيري » ذلك المساء ، فهمت ماذا سيكون مصيري . كان رفاقي خلال زمن طويل قد احترموا تصرفات « جوان » الغريبة والشاذة ، ولكن الضحايا بدأت تصبح نادرة ولم يكن هنالك اي مبرر لاعفائي والمحافظة عليّ . وبينما كنت أجلس قرب طرف المائدة بجانب المدفأة (كان الجميـــع يعرفون كم كنت أتحسّس من تيـــارات الهـــواء ، ولذلك كانـــوا يحتفظون لي بهذا المكـــان المختار) ، اقتـــرح « زكرياس » وهو يحدق بي بنظراته الندية :

« ماذا لو عرّضنا « جوان » للاختبار ؟ »

رد « نستور » :

ــ لماذا لا ننتظر وصول « ترومبيتا » . مساء البارحة ، كان هو الضحية . وله كل الحق بأن يلهو ويتسلى قليلا .

ــ ربما لم يستطع الخروج من المنزل .

ـ من أي منزل ؟

ـ كيف من أي منزل ؟

ارتفعت قهقهة ضحك قوية حول المائدة . كانت تسليتي مع ذلك مشهورة بين أولئك الذين كنت أمضي الليل معهم منذ سبعة أشـهر في حانة صغيرة تقع في احدى ضواحي « بوينوس ايريس » ، وتتصف بالتكلف والطموح بقدر ما كانت تتصف بسوء من يرتادها وبقلة عددهم . ووضع « ماشوكو » يده على ذراع « زكرياس » :

لا تشغل بالك ، بشأن « ترومبيتا » يا معلم ! صدقني ، أن «جوان» هو الذي يجب أن يدفع .

كان « زكرياس » لايزال يحدق بي بعينيه البراقتين بينما كان الباب الذي يطل على الشارع يفتح ، ويندفع الى حانة « الشيري » جماعة من زبائنه المجهولين وأخذوا يحيون زعيمنا بكثير من الاحترام . كـان للرجل الضخم الذي كنا نطيعه نظرات ناعمة كالحرير وأصابع قصيرة جدا . كانت خصلة من الشعر الأجعد تتدلى على جبينه . كانت عينا كل من « ماشـو كو » ، « نيستور » و « بيران » مثقلتين بكثـير من الإنزعاج . وبدأت قطرات العرق تشوش لي الرؤية وتسيل فتدخل الى فمي .

« دعني وشأني ، يا زكرياس » .

كنت مضطربا واخـذت أتحرك على مقعدي ، محاولا التخلص من سيطرة المعلم . لم يكن واردا بالنسبة لي أن أغادر المكان . جميع الرفاق كانوا قد تعرضوا لتجربة الاختبار ؛ وأنا وان كنت ريفيا ، فقـد كان رواد حانة « الشيري » يعتبرونني شخصا جديا قام ببعض الدراسات . ولم يكن قد بقي عليّ سوى قبول قوانين اتفاقهم القوي والمتين رغم كونه مضمر وضمني .

وخلف ظهري ، اخذ الباب يفتح ويغلق وامتلأت الغرفة بتيارات الهواء . وبعد برهة ، خضعت واستندت كيفما اتفق على الجدار ، بعد ان ضمّيت يدي تحت المنضدة .

« هذا حسن ، هيا ، لقد استسلمت » .

ــ برافو ! حسنا ، أنت تعرف اللعبة . أنت كنت في مغارة وقد خرجت منهـا .

ــ لقد تم ذلك .

ــ « أوكي ، والآن بدأت تمشي . »

أغلقت عينيّ .

« طيب جدا ، طيب جدا ، ها أنت حر . لقد بهرك النور ، ولكن لا تعر انتباها لذلك ، إنت موجود في غابة . صفها لنا . كيف هي هذه الغابة ؟ مظلمة ؟ نيرة ؟ كثيفة ؟... ــ لا هذا ولا ذاك . ــ هل تسمع الطيور ؟ وهل تراها ؟ ــ كلا . ــ هل يصل نور الشمس الى هناك ؟ ــ كلا . ــ أتشعر بالعطش ؟ ــ نعم . ــ هل تجد ماء في مكان ما ، أين ؟ ــ في مستنقع صغير . ــ ماذا تعمل به ؟ اغتطس رأسي في داخله ، انه موحل . ــ لا تهتم بذلك ، استمر بالمشي وستجد كأسا . كأسا !... ولماذا الكأس ؟ »

اعتدلت في جلستي . وقلت محتجا : « هذا كذب ! دعني وشأني يا زكرياس فلا أحد يجد كؤوسا ولا كهوفا ولا منازل مثالية . وكل ما هنالك أنك أنت قد اختلقت هذه السخافات الصبيانية . كنت متعبا ، وهذا كلّ ما هنالك . بسطت ذراعي ووضعت هي القدح في يدي . ــ من تكون ؛ هي ؟ ــ امرأة ... ــ صف الكأس . ــ صف

الكأس . ـ انه قدح وليس كأسا ! وكان « موكي » يصب فيه من وقت لآخر ملعقة من شراب الـ « سنجريا » . ـ ما هذا يا « موكي » ؟ »

وتقلصت عضلات وجهي .

« هذا شيء قذر . ورواد الـ « كمبانادا » يمتدحون فضائله المنزلية، ثم ، عندما يصبحون متخمين بالطعام ، يكيلون لها الضربات ، ويبصقون في وجهها ، ولكنهم لا يقضون عليها . « موكي » نافع ومفيد : « موكي » يهتم بالطبخ والمطبخ ، وبكافة الاعمال المنزلية ، ويعتني بالخيل . وبالاضافة لذلك ، وبدون هذا الأمر الكريه ، من كان اذن يمكن أن يشذب يا سمينات « فرنسيسكا » ؟ »

كان الجميع حول المائدة ، ينظرون الي بدهشة كبيرة كما لو كنت حلويا يخرج الارانب من القبعة . كانت النظرات تتسم بقدر كبير من الدهشة والقسوة . ولكن لم يكن هنالك ما يدعو للخوف . ولم يكن قضاتي المنصفين سوى حفنة من المتشردين الذين كانوا يساعدونني على تمضية الليل في احدى الحانات .

« ماذا تفعل بالكأس ؟ »

وتكرر من جديد السؤال نفسه . وكنت مع ذلك قد حددت بأن الأمر يتعلق بقدح أو ربما بابريق ، وليس بكأس . كنت أفكر بـ « ترومبيتا » الذي لم يكن قد عاد بعد . وداعبني الزعيم بنظراته .

« ماذا تفعل بالكأس ؟ »

ـ كيف ، ماذا أفعل ؟ اني اضغط عليها وهي تصرخ . »

فتحت يدي ، رفعتها وتركتها تقع على المنضدة .

« ماذا تريد أن تعرف أيضا ؟ »

ـ كل شيء .

كان الهواء في القاعة مشبعا برائحة التبغ البارد والكحول السيء، الرخيص الثمن . كان هنالك رجال ونساء يختفون في ظلمة احد الممرات، بينما كانت موسيقى الطبول تنبعث من مصدر غير منظور . حاولت أن أرفع الى شفتي كأس الخمر الذي كان يقدمه لي « بيران » . كانت يدي ترتعش . كنت اظن أنّ ليس لي بين رفاقي في سهرة الأمس حليفا واحدا يمكن أن يكنّ الحنان أو الشفقة نحو الغريب الذي يرفض البوح بسر لم يعد هو مالكه . « البهلوان ومهرج السيرك » العاطل عن العمل ، لم يكن شريرا . « ماشوكو » ابن الرئيس « أراووز » ، كان يكسب لقمة العيش في المرفأ بتنزيل اكياس الحبوب ولم تكن لديه عيوب معروفة . و « نيستور » كان قد هرب من المنزل واخذ يقوم ببعض « الأعمال » دون ان يصبح بسبب ذلك أساسا ، عديم الشرف في قرارة نفسه . ولكن لا أحدا منهم كان يمكن أن يشفق عليّ .

تمتمت قائلا : « الغابة هزيلة ، وجذوع الاكاسيا نحيلة ، كأنها سيقان فتيات صغيرات .

ـ اين يقع البيت ؟

ـ في الجانب الآخر من الطريق .

ـ اعبره » .

تحت المنضدة ، كنت اشعر بساق « زكرياس » الضخمة تضغط على وركي . حتى ولو كانت لدي الجرأة لنقض اتفاقنا ، فاني لن أتوصل مطلقا الى التخلص منه . وتمتمت قائلا :

« كان حذائي مليئا بالوحل ... والمراعي لم تعد سوى حقلا من الأشـــواك .

ـ تابع !

ـ لقد أصاب الدمار عامـــة الناس . التقطت قطعـــة من ملاط الجدران ورميتها . نعم ، لقد رميتها ، انها لم تكن قطعـــة من ملاط الجـــدران » .

جمعت جسمي على المقعد ، وأنا أصر أسناني . كان يستحيل عليّ ايقاف رجفان كتفي .

« اين البيت ؟ » .

كانت اللهجة قاسية لدرجة أني ابتعـــدت ، كما لو كنت أتجنب صفعة . « في الطرف تماما ، بعد شجرات الدلب . وقد أطلقوا عليه اسم « لاكمبانادا » . والمسنون من سكان المنطقة يؤكدون أنّ الغابـــة مسحورة ، لأن « دون ساترنينو » احترم حيـــاة شـــجرة يسمونهـــا : « العصا النشوى » ، زهورها ذات لون وردي صارخ ، ويقولون أنّ في بطنها أكثر من أربعة عشر شيطانا » .

صمتُ كي استرد انفاسي وكان يراودني أمل لا جدوى منه أن يدعني أصدقائي بســـلام ، ولكن ويا للأســـف كان هؤلاء يشكلون جمهـــورا لا يتزعزع . منذ بضعة دقائق انقضت عليّ عاصفة من الذكريات . كانت بعض الوقائع والأحداث التافهة تبدو مرسومة بوضوح مثير ، ولكن مهمـــا فعـــل هـــؤلاء الرجـــال ، فانهـــم لـــن يعرفـــوا مطلقـــا مـــاذا حدث في ال « كمبانادا » بعد ظهر ذات يوم من أيام الصيف . اخـــذت أراقب « نيستور » ، « بيران » و « ماشوكو » ، وأنا أكتم في داخلي ابتسامة خفية . فالمساكين لن يعرفوا ان ثلاثة كلاب كانت قد اعلنت

عن وصولي ، ولا أن « فرنسيسكا » كانت تنتظرني واقفة على الشرفة . كما أنهم لن يعرفوا اكثر من ذلك أيضا أن سقف البيت كان من التوتياء المدهونة من جديد باللون الأزرق الحديدي .

« هيا ، يا عزيزي ، يبدو أن ساقيك قد اصيبتا بالتصلب ! هيا ، اندفع في الشارع ولو لمرة واحدة ، على الأقل !

ـ ولكني لم أفعل ذلك لأنه لا يوجد فيه أحد .

ـ هل انت متأكد من ذلك ؟

ـ نعم » .

رغم همهمات الاحتجاج التي كانت تدور حول المائدة في حانة « الشيري » ، كان الشهر هو كانون الثاني (يناير) بالضبط في ال « كمبانادا » . كان الوقت ظهرا ، و « فرنسيسكا » عندما رأتني ، حركت عنقها حركة لطيفة . تلك الشخصية ذات الفم الساذج ، والأنفاس الباردة التي كانت تدعى « دون زكرياس » ، لا يمكن أن تعرف أبدا أن تلك المرأة ، عندما رأتني ، قالت لي بصوت الجن السحري : « لقد أجبت رسالتك ، يا « فيلاجرا » . ولن تعرف أبدا بأنها أخذت تضحك وهي تبسط لي يديها اللتين أمسكت بهما بكلتا يدي . ولا أنها كانت ترتدي ملابس تشبه ملابس فتى شقي ومشاغب وقبعة مدببة ملقاة فوق أعلى الرأس ، وحول رسغيها زوج اساور من البرونز .

أصدقائي ، أولئك الذين عرفتهم قبل المصيبة والشقاء ، كانوا يؤكدون أن مالكة ال « كمبانادا » لم تكن سوى اختراع مرضي لثلاثة من العزاب المسنين والعاطلين عن العمل . كانوا يقولون أيضا أن الكتاب الذي كان قد كرس « فرنسيسكا » : «نصوص نثرية من بوينوس ايرس» . كان من عمل كاتب مغمور من هندوراس توفي في أواخر القرن الماضي ،

وأن شهرة « هونتير » الجميلة لم تكن سوى خدمة قام بها ثلاثة رجال مسنين ذوي أسماء تاريخية ، يتصفون بنهمهم المتعلق بالملذات المشبوهة. ورغم هذه النميمة وما تضمنته من قول سيء فان اعجابي بالشاعرة ظل سليماً لاتشوبه شائبة . كنت أحفظ أشعارها غيبا وألقيها بنفس التقديس الذي يلقي به الآخرون « نشيد الأنشاد لسليمان بن داؤود ، أو نصا صوفيا للقديس » » جان دولاكروا » .

« عندما تكونين قد رأيت الله ، التفتي وسامحي ... كانت راحة يدك تغرق وتتلاشى في البرد ... وتكبر حتى تصل الى بربق غير محدود يتجاوز أي قياس ... أيها الفتى التائه ، عندما ستجدني وتلتقي بي ثانية ، لاتخطيء ، بل لاتنخدع بالجرح ... » .

كل سطر كتبته ابنة النبيل المغرور ، الذي لم يكن ، على ما روته الأساطير ، سوى «دون ساترنينو هونتير» ، كان يتضمن شكوى صوفيه.

« سوف تصطدم بتمثال من الملح ، أيها الأحمق المسكين ، هذا ماكان يقوله لي أصدقائي (أصدقاء ماقبل المصيبة والشقاء) . وتلك المزرعة التي تسكنها حبيبتك « دولسينا » هي صحراء . و « ساترنينو » لايمكن أن يكون أبدا سوى طاغية مستبد لايتمتع بأية موهبة . « كما أن أصدقائي في « جالوجاي » أو في الحي الشمالي في « بوينوس ايريس » كانوا أيضا أقل تطورا من رفاقي رواد حانة « الشيري » . كان « جوان فيلا جرا » يرفض الاصغاء اليهم . فهو سوف يكتب رسالة الى « فرنسيسكا هونتير » وربما ذهب الى « الكمبانادا » دون أن ينتظر الجواب .

« يبدو وكأنه قد نام !

ـ ياالجوان المسكين !

ـ في الريف جميعهم هكذا ، المثقفون ، جماعة من الفاشلين » .

لم تكن أصوات رفاقي تصلني الا عبر طبقات من المياه الموحلة . وعلى شرفة « الكمبانادا » ، بعد ظهر ذلك اليوم من أيام الصيف ، كانت الشاعرة تشبه زهرة دوار الشمس . كانت عناقيد الياسمين تلتف حول اعمدة البيت القديم ذي اللون الكبريتي .

« انا مسرورة لأنك حضرت . فالرحلة شاقة وطويلة من « بوينوس ايرس الى هنا » .

اخذ وميض أصفر ينير نظرتها . واقترب جسمها الرشيق من جسمي لكي نعبر المرج الأخضر ونتحاشى الشجرة المشهورة بكونها نذير شؤم والتي كانت تشبه احدى الرخويات الضخمة . ودوى صوت « زكرياس » :

« هيا ، يا جوانيتو ! افتح الحاجز .

ـ اني لا استطيع ، فهو مثبّت .

ـ اصرخ ،ناد ، اعمل اي شيء !

ـ لايوجد احد » .

كنت مصرا على عدم الاجابة . وكانت الذكريات تزداد الحاحا .

« من هنا ، يا فيلا جرا !

كانت الشاعرة تشير لي ان اتبعها ، وكنا ونحن ملتصقين ببعضنا ، نسير على غير هدى في الغابة بين الأشجار الضخمة . وبآخر ممر تحيط به اشجار السنديان ، انحنت الشابة لتلتقط قشة عشب وتدسها بين اسنانها . ثم قالت :

لقد كان المطر غزيرا الشهر الماضي ، وأزهار الخزامى تملأ الحقل ، وقد زرعت هنا بعض أزهار « اكليل الجبل » . ثم وجهت لي خلسة ابتسامة مشاركة وتأييد واضافت وهي ترفع رأسها : « عندما لا يكون هنالك من يراقبني ، أعمل ما يحلو لي . وأعتقد أني قادرة حتى على الحصول على أزهار « رعي الحمام » لو شعرت برغبة بذلك » .

يالفرنسيسكا المسكينة ! فالمرء يكاد يعتقد أنها تقوم بدور يمثل فيه الظرف العامل الرئيسي . فمرونتها ، المرتبطة بخط كتفيها المشترك وبقامتها التي يضمها بنطال من الجلد ، كانت تضفي عليها سحرا غامضا . وأني لأذكر جميع الروائح التي شممتها بعد ظهر ذلك اليوم ، وطعم الهواء، وهدوء البراري . كان الجو ثقيلا على سطح التوتياء . دست « فرنسيسكا » ذراعها حول خصري. كان جسمها يلتصق تماما بجسمي. لم اتحرك . أما هي فقالت فجأة :

« لولا الياسمين الذي يعرّش حول نافذتي لما استطعت العيش بعد الآن ! انا اعرف انهم ينتزعونه لي أثناء الليل ، ولكني لا استطيع عمل أي شيء حيال ذلك ، فانا لا أعرف ، بل لا أستطيع الدفاع عن نفسي وحماية أشيائي » .

زمّت شفتيها وتقلصت رقبتها . وأحاطت بعينيها تجاعيد كثيرة . لم يكن هنالك جدوى من محاولة احتواء قلقها ولا من أن أبذل جهدا لأقول شيئا آخر سوى احدى الحماقات . ولذلك قررت أن أتبعها دون أن احاول جعلها تتخلى عن حديثها الانفرادي (مونولوجها) . ولكن أصوات رفاقي ، رواد حانة « الشيري » كانت تحول بيني وبين الاصغاء الى ماكانت تقوله .

« ايه فيلا جرا ! . . ليس الحال على مايرام . هل ابتلعت لسانك؟» .

انتفضت .... ولمتمت :

« انها الشجرة ، « العصا النشوى » . لقد نمت كثيرا لدرجة أني لم أعد أستطيع رؤية مدخنة البيت » . كلا ، ان هذا الرجل الضخم المتلو"ي لا يمكنه أن يتوصل لجعلي أتحدث عن « فرنسيسكا » . ولن يعرف مطلقا ، انها عندما وصلت قرب شجرات التوت ، جلست بجانبي، على جذع احدى الأشجار ووضعت رأسها على ركبتي .

مازلت اذكر ابتسامتها التي يشوبها الخوف ، ويدها المسرعة التي كانت تتلمس قفا بنطالي ، تحيط بكاحلي ، تدب مستلقية على ساقي ثم تضغط على فخذي ، وهي تردد : « شكرا ، شكرا » . ولكن عندما حاولت ان اجذبها الي ، بدرت منها حركة تنم عن التراجع ، حولت رأسها ، واخذت تحرك التراب باصبع عصبية ثم اقتلعت حفنة من النباتات البرية .

صرخت قائلة : « هنالك مزيد من الناس ! وأكثر بكثير مما ينبغي ». « لم تعد عيناها تبرقان وكانت قبعتها الصغيرة المدببة قد انزلقت على كتفها » .

« انهم يحولون بيني وبين السعادة ويمنعوني ان اكون سعيدة ، ياجوان . انهم لايدعوني وشأني كي أبقى هادئة مطمئنة ، حتى ولا في وقت القيلولة » .

كانت تتكلم كطفلة صغيرة وفجاة اصبح وجهها شديد الاحمرار . « سأقول لك شيئا . ايه ، انك الرجل الوحيد الذي أشعر بالرغبة نحوه منذ سنوات عديدة . »

كانت مفاجأة كبرى قبضت على قلبي ولجمت لساني .

وتابعت كلامها :

« كم أود لو أستطيع التدحرج معك على الحشائش وأن أصبح قطعة من تراب . قل لي ، ما هي الجدوى من كل ما هو عطري الرائحة ، ومن كل ما ينبت وينمو ، عندما نضبح أمواتا ؟! »

عند قولها هذه الكلمات، كان في نظرتها شيء من القسوة والوحشية. امسكت الفتاة من كتفيها ولكنها تملصت مني ، ونهضت ثم أسرعت الخطى نحـو البيت .

كان طريق العودة قصيرا لا تتخلله اية ذكريات .

« هيا ، يا جوان ، هيا ! الأمر ليس لعبا ، تكلم ، أريد أن اعرف ! »
كان « باشوكو » ، ابن الرئيس « آراوز » يمسك بعنقي وكان صوته ملحـا .

قلت ، « نعم ، اني اعرف ذلك ، اعرف أن ليس لي الحق بأن انام، هذا ما وعدت به ، ولكنه الحاجز ، كما ترى . أنه يشلني ، هذا الحاجز، انه مثل تلك الشجرة المشؤومة ، التي نمت كثيرا وحجبت عني الرؤية بحيث لم أعد أرى شيئا . والعشب نبت بغزارة أيضا ، أما تلك القطعة من الملاط التي التقطتها قبل قليل ، فاني افضل عدم التحدث عنها ، فهي تنزف . »

لم يجبني أحد. وفي ذاكرتي ، كانت « فرنسيسكا » قد احنت راسها . وكانت بعض الكلاب تتراكض نحونا وتلحس لها ذراعيها . فقطفت بعض الياسمين الذي كان يلتف على اعمدة الشرفة واجتزنا عتبة قاعة غارقة في الظلام . انتظرت طويلا قبل أن أستطيع تمييز قطع الأثاث ، كالمكتب الكبير ، المكتبة ، الفرش ، البيانو وأريكة الزاوية المغطاة بالغبار . ولفتت أرضية القاعة نظري : كانت من الرخام ، على شكل بلاطات مربعة وكبيرة . أمسكت « فرنسيسكا » بيدي كما لو كنت طفلا كانت ترغب بأن تطلعه على ما لديها من كنوز .

« هل رأيت جسور السقف ؟ لقد كان أبي يحب كثيرا خشب الزان الفاخر بسبب قسوته . كانت جميـع جوانب وجدران المنزل مدعمـة بالخشب القاسي . عندما يسقط الملاط ، سوف نسكن في سجن شفاف. وأضافت دون تأثر أو انفعال : لن أعمر طويلا ، ولذلك فاني أظل ساهرة عندمـا ينامون . ساعة القيلولـة هي لي ، ليست لسـواي ... وأن يكن ... » رف جفناها ولزمت الصمت . ثم نزعت قبعتها وأخـذت توزع طاقات الزهور في الغرفة .

أضافت فجأة بلهجة غير متوقعة ودون أن تلتفت : « اعذرني اذا كنت لم أهتم بك ، فأنا لا أعمل شيئا لأحد . » لم يكن هنالك جدوى من ابداء الرأي ، فقد كنت متأكداً أنها كانت قد فقدت الشعور بوجودي الحسي . كانت « فرنسيسكا » قد اختلقتني ، كما كانت قد اختلقت ألوفا آخرين من هواة المجاملة واللطف المتكلف المستعدين للسير وراءها في متاهاتها كأنهم صغار البط . ثم ، أية ميزات أو مؤهلات خاصة كانت لدي كي استرعي انتباه « فرنسيسكا هونتير » . أنا الذي لم أكن سوى مجرد حائر وضال من الطبقة المتوسطة ، لدي بعض الميول والطموحات الأدبية وغير قادر على التصرف والرد كرجل ؟

كان قد زال كل أثر ينم عن القلق من على وجه مضيفتي . كانت تتجول بسهولة وراحة بين قطع الأثاث المتداعية ، كما لو انها كانت تفعل ذلك في أحد القصور .كان الظلام لا يزال مخيما والصمت السائد كان يتسم بثقل مصطنع . شعرت برغبة قوية بالصراخ عاليا كي أحبط سحر ذلك البناء الضخم المدعم بكل غباء بالخشب الصلب والمغطى بسقف من التوتياء المدهونة باللون الأزرق . ولكني كنت اعلم اني لو فعلت ذلك ، لكان من الممكن أن تنهار الأضواء جميعها سوية وفي وقت واحـد . ولكن كان يجب علي أن اتجنب تلك الكارثة مهما كلف الأمر .

ضرب أحدهم المنضدة بقبضة يده وكان لا بد لي من أن أفتح عيني .

- قال « زكرياس » : « انس مشيك في نومك وتأتأتك . انس تلك القطعة من الملاط اللعينة ، وعصاك المشؤومة ، وافتح الحاجز .

ـ اني لا استطيع .

ـ ولكن ماذا تخشى ، اذا لم يكن هنالك احد ؟

ـ اسوأ الأمور .

ـ ماذا فعلوا بك ؟

ـ لقد نادوني .

ـ حسن ، من الأولى بك اذن أن تفتح الباب .

ـ انـه مشئت . »

كنت أوشك أن افقد اعصابي ، كطفل قد استولى عليه الرعب أمام لجنة من الأساتذة تقوم بفحصه . كان يجب على أولئك الرجال أن يلزموا الصمت ويسمحوا لي باستعادة ذكرى تفاصيل الأمسية الوحيدة في حياتي التي كنت فيها محبوبا . فمنذ عدة شهور كنت ابذل جهودا كبيرة كي أثبّت في ذاكرتي كل حركة ، وكل تمتمـة بدرت من « فرنسيسكا هنتير » ، وكنت مصمما على الدفاع عن نفسي وعلى عدم السماح لهم بأن يقطعوا ، بأحاديثهم ، اللحظة التي ظهرت فيها في القاعة ونظفت أصابعها في اناء من البورسلين . كان صوت الماء قد بدا لي مهدئا ومريحا للأعصاب يمتاز بالبرودة وبعذوبة لذيذة في ذلك الجو البالي . جففت الفتاة يديها ملوحة بهما فوق راسها . ثم جلست على وسادة قرب المدفأة . وعبـر الضوء الضعيف الذي كان يسود المكان لاحظت أن صدارتها كانت قد انفتحت قليلا وأن نهديها كانا صغيرين وباردين . وتكلمت دون أن تنظر الي ، كما لو كانت تصل سياق حديث كان قد انقطع . لا بد أنها كانت قد خلعت بنطالها وارتدت تنورة لأن ساقيها كانتا تتألقان تحت أشعة

الشمس الأخيرة . قالت بهدوء : « أن لكل ثانية من الصمت نفحتها الخاصة ، لكل شخص له نفحته أيضا . أليس كذلك : فانت مثلا ، لك رائحة عرض البحر . وأنا لا أعرف البحر ، ولم يسبق لي مطلقا أن رأيت أية زوارق أوبواخر . ولا شيء سوى العشب والأرض والتراب في كل مكان ، ولكني أعرف . »

كان ساقاها غضتين ، طويلتين ، ناعمتين كالحرير . وببطء ، ببطء شديد ، أدنت وجهها من وجهي ، وبدا لي فجأة ، وقد جلست القرفصاء، أن جسمها هش جدا . أمسكت براسها وقبلت جبينها وصدغيها ثم أخذت أداعب شريط صدارتها والهو به . وفي الحال اكتشفت أصابعي كتفين نحيليتين بعض الشيء ، وعنق جميل بشرته ملمسها ناعم وبارد . وكان نهداها منطلقين وثابتين . كانت يداها تفكان ربطة عنقي بينما كنت أفك نطاقي وأرفع قميصي . كانت أرضية الغرفة باردة . أخذت أنتظر ، وعضلاتي مشدودة ، وفمي جاف . انتظرت الى أن اقترب بطن المرأة من بطني والتصق ببشرتي . حينئذ تدحرجنا أنا وفرنسيسكا هنتير على البلاط ، وقد غمرتنا وبهرتنا السعادة ، وكذلك اللعاب ، والعطش ...

ومنها انما بدر رد الفعل الأول . وقد شعرت بذلك بواسطة صوت معدني طرق أذني . وأخذ يتصاعد من داخل القاعة ضجيج بعضه بشري والبعض الآخر حيواني ، كان دون شك صادرا من بين الفرش والوسادات المكدسة على الأريكة . وتعالى صوت آمر : « هيا ، انهض يا موكي ! »

كان ذلك الصوت الآمر هو صوت فرنسيسكا . كانت رؤية كتلة مشوهة الشكل تتمدد وتتمطى على بعد خطوتين منا تدعو الى القرف . وضمتني ابنة « دون سانترنيتو » بين ذراعيها كما لو أنها بذلك تودعني ثم أدارت لي ظهرها وأمرت ذلك الذي كان يتحرك في احدى الزوايا،

« هات ، أحضر يا موكي ، أجلب بسرعة . »

يجب علي أن أعترف أن كل ما حدث اعتبارا من تلك اللحظة كان على صعيد المكر والخبث ، حيث يتمازج الحلم واليقظة بقسوة حريّة بتحويل أشد الرجال صلابة الى انسان مسلوب الارادة يمشي وهو نائم طيلة ما بقي في عمره من ليالي . خلال بضعة ثوان ، صرعتني السعادة أرضا . كان جسمي ملقى على أرضيّة من الرخام ، خائر القوى .

« صبّي له الشراب . »

لم تعد المرأة التي داعبتني سوى صوتا . وقد عاد القبطان الى مركزه في أعلى الباخرة . وكانت « موكي » قد خرجت من بين الوسائد واختفت خلف الستائر ، ثم عادت وهي تحمل اناءً فضيا . تقدمت نحوي وقدمت لي قدحا . ودون أن تطلب رأيي أخذت تسكب سائلا قرمزي اللون الى أن طفح القدح وانسكب الخمر على قميصي وعلى بزّتي الكتانية . قمت بحركة لأوقف تدفق السائل الذي كان يغرق ملابسي ، ولكن ذراعا قوية ثبّتت الاناء في مكانه وانسكب محتواه على الأرض وسال تحت قوائم الأرائك .

كانت « موكي » تنظر إليّ رابطة الجأش ، هادئة . كانت عيناها تبدوان كأنهما ثقبان في قناع من المطاط . وقرأت فيهما لامبالاة فظة لا تخلو من الاحتقار . أما « فرنسيسكا » ، فكانت تعود نحوي تحت منظر جديد ، يلفها فستان طويل من البروكار ، وعندما رأيتها،تبادرت الى ذهني صورة القديسة « ايزور » المعلقة فوق سرير أمي ، في « جوالوجاي » . لم يكن هنالك أي شيء ، فاللعبة كانت قد انتهت ، ولكني كنت أجهل اية لعبة هي المقصودة ولأي نوع من السحر كنت مستسلما .

ماذا سنفعل به ، يا زكرياس ، هل نتركه أم نشبعه ضربا ولكما ؟

ــ أنت ترين جيدا أنه قد تعاطى مخدرا . كل هؤلاء الريفيين هم هكذا . انهم يمضغون أوراق الكوكا (التي تحتوي مادة الكوكايين) كما لو كانت علكة أميركية .

ــ انك تقولين سخافات ، ف « جويانيتو » ليس من « الشمال ».

ــ الامر سيان . ثم هو يمضي عطلته واجازاته في « بونتا ديل است » . وأبناء الأغنياء يتعاطون المخدرات . »

لم تعد أحاديث رفاقي تزعجني . فأنا أكاد لا أسمعها . فهي لم تكن سوى وشوشة طيور ليلية ، وكانت ذكريات الـ « كمبانادا » تعود إليّ الواحدة بعد الأخرى بدقة شديدة .

كانت الساعة قد قاربت التاسعة عندما تعالى النباح لأول مرة وانفجرت الأصوات الأولى . وفتحت الأبواب ، وانيرت الاضواء ،وشق ثلاثة رجال يرتدون الملابس الانيقة طريقهم بين قطع الاثاث . كان أصغرهم سنا في الستين من العمر ، ويدعى « ألفريدو » . كان يتكلم من رؤوس شفتيه ، بلهجة خفيفة ، رافعا رأسه ، وقد وضع دون اهتمام باهميه في جيبي صدريته . كان ما بقي من شعره ملصقا بعناية على أعلى رأسه وكان واضحا أن خديه قد تمّ تدليكهما قبل قليل من قبل أحد الخبراء . تراجعت الى الزاوية الاكثر ظلمة في الغرفة ، بعد أن شعرت فجأة ببياض ملابسي الدامي . أما الزائر الثاني ويدعى « بيدريتو » ، فقد أخرج من جيبه علبة سجائر ذهبية وقدمها مفتوحة، الى الآنسة « همنتير » .

« عزيزتي » فرند ، « ان جو » بوينوس ايرس لا يطاق بشكل خاص هذا الصيف . فالحرب في كل مكان ، كأنها جرثومة الوباء . فالناس يشعرون بالملل ويقتل بعضهم البعض الآخر . ولا تدركين سعادتك .

الهواء ، الصمت ... « ضم اليه الفتاة طويلا ، علانية ، ثم انحنى نحو « موكي » وداعب شعرها ، كما لو كان يفعل ذلك ، على وجه التقريب، لأحد الكلاب الأليفة .

« أهنئك . ان صديقتنا « فرنسيسكا » تزداد جمالا يوما بعد يوم . في هذا الفستان ، وهو من صنع « بولديني » .

أما الثالث فكان يدعى « مارسيلو » . كان برونزي اللون بشكل جذاب ، دقيق الشاربين أكثر من المعتاد . أمسك معصم « فرنسيسكا » ومر بشفتيه المفتوحتين على ساعدها .

ثلاثة رجال مسنين ، شاعرين بأهميتهم ، أخذوا يزرعون الغرفة جيئة وذهابا ، وهم يعلقون على أخبار ذلك اليوم : الكارثة العامة ، فظاظة وتفاهة الشباب ، أسعار المحروقات الفاحشة ، عدم امكانية تجنب اجتياح « النادي » من قبل الرعاع . كانوا قد خرجوا لتوهم من مكتب الوزير ، فهم يعرفون خفايا الامور الاشد سرية ، مطلعون على آخر الفضائح ، وعلى آخر حادثة انتحار وآخر عملية اختطاف . فلم يكن هنالك أي شك ، الكون ، بالنسبة لهم كان يبدأ وينتهي ضمن دائرة رسمها أجدادهم وأن أي شكل من أشكال السقوط أو الانحطاط سياسيا كان أم ماليا ، لا يمكنه تدميره أو حتى الاخلال بنظامه . كانت « موكي » قد تخلت عن النبيذ وأخذت تقدم الويسكي « السكوتش » بأقداح من الكريستال .

سألها « بيدريتو » : هل حضّرت لنا طعاما طيبا للعشاء ؟ أما الشخص ذو القناع المطاطي فقد هز كتفيه وخرج من الغرفة وأغلق الباب بقوة .

صرخ « مارسيلو » ، بينما كان « ألفريدو » و « بيدريدو » يلامسان ويداعبان كتفي « فرنسيسكا » : « يا له من طبع قذر ، طبع سجانك ! »

« كيف حال شيطاننا الصغير ، اليوم ؟ هل نظم بعض الاشعار ، هذا الاسبوع لاصدقائه القدامى في العاصمة ؟ »

كان الشيطان الصغير يشبه وشاحا كبيرا تلعب به ثلاثة دمى قديمة مطلية بالمراهم والاصباغ ، وهي تفعل ذلك اما سوية اما احداهن بعد الاخرى ، وهن يضحكن . وفجأة ، ، أخرج « مرسيلو » شيئا من حقيبة للسفر . وهمس قائلا : « لقد عثرت عليه في مكتب العم «ديفو» انه أثر" يعود الى ما قبل القرن السادس عشر ، وهو عبارة عن اسطوانة للمغنية « ايفيت جيلبير » . سرت ارتعاشة سرور في المجموعة الصغيرة وتوقف الرجال الثلاثة جامدين باحترام حول الحاكي « الفونوغراف » للاصغاء الالحان الحادة والمرتعشة للاغنية الشهيرة : « ارجع إلي" ، ألا تريد ذلك ، ان غيابك قد حطم حـ ... يا ... تي .. كان الصمت العميق يحيط بنا ، وفرنسيسكا » ، فرنسيسكا الجميلة ، التي كنت قد تدحرجت واياها على الارض قبل لحظات ، كانت ترضخ لارادة ورغبات ضيوفها الثلاثة حتى انها لم تعد ، بين أيديهم ، سوى دمية مشو"هة . كان الدخان يشوش علي" الرؤية ،وكانت تبلغ مسامعي نتف من بعض الجمل ، ضحكات وتعليقات سياسية ، بل وأدبية أيضا . كانت أسماء « بول بورجي » ، « مارسيل بريفوست » ، و « أناتول فرانس » تلفظ بتلذذ . وأسماء « ماردروس » و « بيير لويس » كانت عندما تذكر ترافقهاضحكات خافتة وسليطة . شعرت بالقرف تخالطه السخرية الذي أحدثه فجأة اسم « بيكاسو » وبعد ذلك بقليل اسم « جان بول سارتر » . كانت كلمات « عظيم » ، « آلهي ، رباني » ، و « خرافي » تتردد بكل مناسبة ، ان كان لوصف نوع جديد من الاطارات أو عند ذكر فستان سهرة نسائي على الزي الدارج حديثا . وعندما يوجهون كلامهم الى « فرنسيسكا » أو يتحدثون عن أعمالها ، كان الهذر والكلام الساذج والسخيف يتراكم الى أن يشكل ركاما ضخما من الحجج الواهية .

أثناء هذا الوقت ، كان ذلك الدخيل ، الذي كان ينظم شعرا رديئا اي « جوان فيلا جرا » قد ظل ملتصقا بالمكتبة تكاد لا تحميه مؤلفات « دون ساترنينو » المفضلة ، الوحشية في غالبيتها ، موقعة من قبل « ادغار الان بو » ، و « بودلير » و « باربي دوريفيلي » . لم يكن أحد بين زوار « الكامبانادا » يبدو أنه يشعر بوجود شخص غريب في حرمهم المقدس . كانت الايدي المتلمسة تتابع طريقها على عنق « فرنسيسكا » وكانت الضحكات الفاضحة والمعيبة تتوالى مصحوبة بأكبر قدر من الاحتقار للمشاهد المجهول الذي كان يحب « نثر بوينوس ايرس » والذي كان قد قطع مسافة خمسمائة كيلو مترا في أحد القطارات الريفية لكي يعرف من هو مؤلف تلك النصوص النثرية . كان لدي انطباع واضح جدا بأني قد تحولت الى احد اولئك الخدم الذين يستطيعون البقاء ساكتين لا تبدر منهم اية حركة ، خلف اسيادهم ، طيلة مدة تناولهم وجبات الطعام . اغتنمت « فرنسيسكا » فرصة الصمت لتعلن فجأة بصوت واثق : « اريد الذهاب الى شاطىء البحر . »

تبعت هذه الكلمات انتفاضة اعترت ضيوفها وتحولت دهشتهم الى غضب شديد :

« الى شاطىء البحر ! ولماذا ؟

ــ لكي استحم » .

نظر الضيوف الى بعضهم برعب . فشيطانتهم الصغيرة ابدت احدى رغباتها .

« ولكن انت لا تفكرين جديا بذلك ، يا صغيرتي . اذ ان امرأة في مثل وضعك لا يمكنها الظهور في « مار ديل بلاتا » . ثم نحن لا نستطيع أن نرسلك الى اي مكان . و « موكي » لا يمكن تقديمها لأحد أو تعريفها على احد . والناس يصبح بامكانهم أن يتصوروا ... أخيرا ، انت تدركين ماذا أعني » .

لم تبال « فرنسيسكا » بذلك ولم يرف لها جفن وأعلنت بصوت قوي لا نبرة فيه :

« اذا لم تجدوا وسيلة لارسالي الى شاطيء البحر ، فتعساً لكم . فهذا البيت لم يعد سوى هيكل على العظم . وهو سينهار قريبا ، وأنتم ماذا ستصبحون وماذا سيحدث لكم بدون « الكمبانادا » ؟ الى أين ستذهبون يوم الأحد ؟ من حانة الى حانة ، ومن سهرة تعزية بأحد الأموات ، الى سهرة أخرى لا تختلف عنها بشيء ؟ » .

قوطع هذا التعداد بضحكات مكتومة .

وقال « ألفريدو » بحدة :

ان مزاح شاعرتنا ذو طابع كريه . ومع ذلك فان الأفلام الخليعة والمجلات الهيبية لا تصلها ، على ما أعلم » .

استمرت وتعالت قهقهات الضحك . كانت تبدو مفتعلة . سقط شيء ثقيل على البلاط الرخامي . كان ذلك إناء الشراب . قفز الرجال الثلاثة واقفين دفعة واحدة . والسائل الأحمر انتهى هـذه المرة ، بالانسكاب على فستان الشاعرة .

صرخ « مارسيلو » :

« ما هذه القذارة ؟

ـ هذا دم » .

كانت « موكي » تقف في مدخل القاعة .

« العشاء جاهز » .

كان وجهها يزداد شبها بقناع صنعه أحد لصوص أو أحد متشردي الحي الصيني .

« حسن ، حسن . هيا بنا » .

نهضت الشاعرة ، نفضت فستانها ، وعند مرورها بقربي مسّتني دون أن تنظر إليّ . أما « موكي » فبقيت خلفنا .

همست لي وهي تتفرس بي بعينيها اللتين تشبهان عيني الخنزير : « ماذا تفعل هنا ؟ هل أدركت بنفسك ما الذي سببته ؟ كيف سنستطيع أن نعيش الآن ؟ هيا انصرف ، انصرف بسرعة . فلست سوى حيوانا قذرا كريه الرائحة » .

كان الجو ثقيلا والهواء كثيفا في القاعة حيث كانت لا تزال تتردد نغمات مغنية « لوتريك » المفضلة ، مضافة الى ترّهات أعضاء «الجوكي» الثلاثة ، الشهوانية .

تحولت جانبا لكي لا أسمع بعد ذلك شتائم « موكي » وخرجت من الغرفة . وعلى الشرفة ، كان الجو لا يزال حارا والليل تزينه النجوم .

عندما استيقظت ، كانت ثمانية عيون جامدة كالحجارة تحدق بي .

« حسن ، لقد كان وقتا طويلا ! ولكن ها أنت قد خرجت من غيبوبتك . وأعترف لك بأننا كنا قلقين جدا عليك . وكنا نتساءل فيما اذا كنت لم تفارق الحياة .

ــ لقد قفزت من فوق الحاجز .

ــ هذا ليس قبل الأوان ، وليس مبكرا أكثر مما ينبغي ! والآن ماذا يحدث ؟

ـ لقـد ماتتا .

ـ من همـا ؟

ـ « فرنسيسكا » و « موكي » . الاثنتان ماتتا سوية في الوقت نفسه . ولم يعرف أحد أبدا من منهما وضعت السم في الحساء المطبوخ بلحم الأرنب . وقد تحدثت الصحف عن ذلك . والجميع كانوا يعرفون هوس « فرنسيسكا هونتير » بجمع الأعشاب البرية ولا أحد كان يعرف أن « موكي » شاذة أو أنها وحش مخيف . والأمر البديهي تماما هو أن احداهما قد دست السم للأخرى . والذي حدث هو أنهم قد وجدوهما ميتتين ، كل منهما في سريرها ، بعد بضعة أيام من زيارتي . أما السادة الثلاثـة . . .

ـ أي سادة ؟

ـ أولئك الذين كانوا يتعاملـون معهما ويعيلونهما . أشـخاص مسنون من « بوينوس ايريس » . لم تكن الفتاة المسكينة تملك قرشا . وكان والدها قد منعها من متابعة الدراسة . ولم تكن تجيد شيئا سوى الكتابة ولكن لم يكن أحد يؤمن بعبقريتها . وكان الناس يعتبرونها مخادعة وغشاشة ويتعاملون معها على هذا الاساس . وكانت زوجة الجزار هي التى تحضر لها مجلات الآزياء . ولم تكن تخرج مطلقا من بيتها القديم . كما أنها كانت ضعيفةوهشة . وبحاجة لمن يحميها . وعندما ماتت رفض الثلاثة ، الذين كان كل منهم « زير نساء » العودة الى « الكمبانادا » رغم أنهم استغلوا مفاتنها خلال عدة سنوات .

خبأت وجهي بيدي كي أخفي ارتعاش فمي .

قال « ماشوكو » ملحـا .

« ولكن ، يا « جوان » ، لقد قلت أنك كنت قد قمت بزيارتها قبل وفاتها . فماذا حدث أثناء تلك الزيارة ؟

ـ لقد تعرضت للمهانة : فقد بصقت « موكي » في وجهي وهي ... هي ... لم تبدر منها اية حركة للدفاع عني . كانت تدرك جيدا أني كنت عرضة للهزء والسخرية ، واني لم أعد سوى دمية ، بل « أمعة » ، ولاحتى « أمعة » ، ربما أحط من كلب . وفي اليوم التالي تلقيت رسالة .

ـ ممن ؟

ـ من « فرنسيسكا » . كانت تقول لي فيها أن حياتها في خطر .

ـ وماذا فعلت ؟

ـ لم أذهب اليها . »

وخيم عليّ صمت يشبه صمت القبور .

صرخ « زكرياس » بأعلى صوته :

« لك مني كلّ التهاني !

قال « ماشوكو » محتجا :

ـ لحظة ، لقد سمعت ما قيل عن قضية « هونتير » . والصحف كتبت الكثير عنها . وما قاله « جوان » صحيح . فقد كانت الفتاة المسكينة تعيش تحت المراقبة والحراسة ، أولا من قبل والدها ، ثم من قبل ثلاثة مسنين ، من ذوي الأفكار الرجعية البالية الذين كانوا أشبه بالمستحاثات . أما « موكي » المشهورة ، فقد كانت بالحقيقية شيئا معيبا ، دملاً ، كتلة من الرغبات والشهوات حرية بأي شيء . وبرأيي ، فان هاتين المرأتين قد جرحتا كبرياء « فيلاجرا » وقد أحسن صنعا بعدم استجابته لنداء امرأة معتوهة . »

بدرت مني ابتسامة عزاء ' فهنالك من يدافع عني .

« شكرا يا « ماشوكو » ، ولكن بالحقيقة ، أنا نذل . لقد أحبتني تلك المرأة . أحبتني طيلة بعد ظهر أحد الأيام . وصدقني أنها لفترة طويلة طيلة بعد ظهر أحد الأيام عندما نحب دائما والى الأبد .

ـ لقد أهملتك ولم تبال بك .

ـ هذا ليس صحيحا .

ـ اذا كان ذلك يزعجك ، فلماذا اذن اخترت هذا الكوخ ؟... فالاختيار حر . وكان بامكانك أيضا الذهاب الى مكان آخر . الى منزل ذويك مثلا ، أو الى احدى دور البغاء .

ـ بالنسبة لي ، لا يوجد بيت آخر سوى « الكمبانادا » .

ـ اذا كان الأمر هكذا اذن أسرع بالسير حتى النهاية . نريد أن نعرف ما الذي حدث في ذلك الضريح . ثم عندما يكون أحدنا قد حظي بشرف المحبة من قبل احدى من يتحدثون عنها في الصحف ... »

انتشر تيار من الهواء البارد في الحانة : كان قد دخل أحدهم . كان مبتلا من رأسه الى أخمص قدميه . لم يكن أحد يعير وجوده أي اهتمام . كانت كل الأنظار موجهة الي .

قلت : « ترومبيتا » ، أين كنت ؟

ولكن « زكرياس » أبعد صديقه بحركة من مرفقه ووضع سبابته على صدري .

« لا تهتم ولا تشغل بالك بكل ذلك وحدثنا عن « الحياة الهنيئة » في ملكية آل « هونتير » . فالمرأة التي تجد ثلاثة أشخاص لاعالتها والعناية بها ، ليست امرأة عادية كأي امرأة كانت . »

كانت لهجة الرئيس أكثر خشونة من المعتاد . فانكفأت الى الخلف وبسطت ذراعيّ على غطاء المنضدة .

قلت بكل هدوء : « بما انك تلحّ على ذلك ، سأقول الك بأن العصا النشوى كانت اخطبوطا . وأن أغصانها وفروعها قد اجتاحت نصف الشرفة . وأنه لم يكن هنالك حيوان حيّ في الجوانب المجاورة وأنّ سقف البيت قد حال لونه تماما .

تبا ، هذا أسوأ ، تابع التقدم !

ـ ليس الأمر سهلا ، فقدماي تغوصان . والمطر ينهمر منذ شهور وعندما تمطر في هذه المنطقة ، تتشكل المستنقعات . أما بخصوص البيت، فقد حدثتك عنه : أنه مهجور . فالأبواب مفتوحة أو أنها قد اقتلعت من أماكنها . والسقف مهدم . ولم يفكر أحد باغلاق الأباجورات لمنع المطر من تخريب كل شيء في الردهة . عرفت المدفأة ، والبيانو الضخم ، الفرش والستائر واناء البرسلين الذي كانت « فرنسيسكا » تغسل فيه أصابعها . وفي العمق ، الى الداخل ، الأريكة التي اختبأت فيها « موكي » حينما كنا أناو صديقتها نمارس الحب . كانت تبدو غريبة الشكل ، تلك الأريكة . كنت أجد صعوبة في التنفس ، ومع ذلك بذلت بعض الجهد . لمست اطار المدفأة ، أبحث عن وجه « فرنسيسكا » . أحاول تجسيدها في فستانها المصنوع من قماش البروكار ولكن كان هنالك شيء لا يمكن وصفه أخذ يدفعني نحو الداخل . كانت الغرفة المجاورة فارغة . اجتزتها وأصبحت في ظلام دامس . وبواسطة يد متلمسة عبر الظلام اكتشفت الدرج والحاجز . صعدت بضعة درجات ، بشعور الاحترام الذي يكنه المؤمن الذي يدخل حرم احدى الكنائس . سمعت وقع خطوات . التفت ، لم يكن هنالك شيء . تابعت التقدم . أخذ وقع الخطوات التي كانت تتبعني في الممر يزداد وضوحا . توقفت أمام احد الأبواب دون أن أعرف أي سبب لتوقفي . كان هنالك شيء يدفعني لأدير قبضته . شعاع من النور جعل عينيّ ترفان . ألفيت نفسي في غرفة

مزينة ومزخرفة بشكل غير متوقـع . كانت جدرانها مغطاة بقصاصات الصحف وبالصور المخيفة : صورة طفل مصلوب ، صورة امرأة يجلدها أحد الجنود . وكان هنالك لوحتان : احداهما من عمل الفنان «جروبير» والأخرى من عمل الفنان « بالتوس » . وكان على احدى الطاولات كدسة من الدفاتـر . وكتب مكدسةعلى الرفوف : من مؤلفـات « سـاد » ، « نيتشه » و « كوليت » ، جنبا الى جنب مع دراسات وأبحاث حول الحياة الجنسية لدى المتوحشين . وكان كتاب « كفاحي » بجانب مؤلفات الفلاسفة الهنود . وبشكل مفاجيء ، يبـدو هنالك كتاب « حياتي » للقديسة « تيريز دافيـلا » كما لو كان وجوده يقصـد به طرد الأذية والأرواح الشريرة .

« كان يصعب عليّ كثيرا أن أتصور أن « فرنسيسكا » كانت تعيش في جو كهذا . كان يوجدعلى الجدار المطلي بالكلس صورة لامرأتين تحتضن احداهما الأخرى ، وقد جذبت هذه الصورة انتباهي : كانت فاضحـة ومعيبة . كتمت أنفاسي وألقيت بالمصادفة نظرة على باب صغير . قمت بحركة كما لو كنت أريد أن أفتحه ولكن ذراعي ظلت معلقة بالهواء . ذلك الشيء الذي كان يدفع بي في البيت منذ البداية ثبتني فجأة في مكاني . كنت أود النطق بأحد الأسماء ، اسم امرأة ، وكنت عاجزا عن ذلك . وطالما أن « ذلك الشيء » الذي كان يدفعني في البيت لم يسمح بذلك ، فاني أعلم أني سأظل منكمشا بين قصاصات الصحف والصور الفاضحة. المرأتان اللتان على الجدار غيرتا وضعهما وأخذتا تنظران اليّ ، بينما كانت بعض الضحكات الماكرة والمكتومة تتردد بين الرفوف . « فرنسيسكا » ، « فرنسيسكا » ... توصلت أخيرا للنطق بالاسم . أخذت أردده ، مددت ذراعي ولكن ألقي بي في الحال على الجدار حيث استندت على صـورة ضخمة . التصق خدي على فخذ امرأة تفوح منه رائحة الصمغ . يجب أن أهرب وأنجو بنفسي ، يجب أن أخرج من هذا الوكر ، وأن أستمر بالكفاح والقتال ، وابداء الرغبة والارادة ، نعم ، ابداء الرغبة والارادة .

عضيت على النواجذ ، واندفعت نحو الباب الذي ، وبالدهشتي الكبرى، كان قد استجاب لرغبتي .

ـ هيا ، امض ، تابع !

ـ انه لأمر غريب ، لقد أقمت في « تشيلي » ، بل وفي « البيرو » عند جدتي لأمي ، ولكني لم أر مطلقا غرفة كهذه . ولم أكن أتصورهـا على هذا الشكل عندما كنت أقرأ أشعار « فرنسيسكا » ، ولا عندما كنت أتأمل الشاعرة وهي تخطر في صالونها . السرير الذي لم يكن سـوى سريرها ، يشبه سرير فتاة صغيرة ميتة ، مغطى بكامله بقماش الساتين الأبيض ، وستائره موشاة بأشرطة سوداء . وعلى الجدران لوحات عائلية سيدة تضع على عنقها لفحة من « الشنشيلة . رجل يرتدي « ردنجوت» فتاة مراهقة تعزف على المندولين . لم يكن هنالك اي اثر للأناقة . كان مؤلف « نصوص نثرية من بوينوس ايريس » و « الطائر البرتغالي » غائبا ومع ذلك لم يكن هنالك اي شك اني فيغرفة نـوم « فرنسيسكا هونتير » . ورغم كون الخزائن مـلأى بالملابس الموشاة بالدنتيـلا ، وبالكراسات والكتيبات المجلدة بجلد السنجاب وتلك الصورة للبابا بيوس الثاني عشر ، فاني كنت أعلم أنها هنا ، وليس في اي مكان آخر ، انما كانت تعمل وتعتكف كي تتخلص من سيطرة « موكي » . لم يكن العطر الذي يتصاعد الى حلقي هو عطر الياسمين الذي كانت تحبه ، هذا ان لم يكن عطر الزهور التي توضع على الموتى . السرير الصغير المحلل بالقماش الأبيض كان المرقد الذي لفظت عليه الشاعرة انفاسها الاخيرة وفي زاوية مظلمة ، كما لو كانت تشعر بالخجل لوجودها هناك ، لمحـت المنضدة التي كانت تعمل عليها .

اقتربت ، ويداي تطمحان كثيراً للبحث والتفتيش . فتحت أول درج فوقعت يداي على كدسة من المخطوطات . كانت الكتابة فيها بارزة واضحة . كانت رغبتي بالاطلاع والمعرفة لا حدود لها . توصلت لاشباعها

ببذل المزيد من الجهد ، وفي الحال بدت لي « فرنسيسكا » على حقيقتها ولكنها هذه المرة لم تكن تتحدث الي ، كانت تكتب لي ، بل عني .

« كان لبشرته رائحة الرياح والتفاح ... يكاد المرء يعتقد أن لا حدود له ولا شطآن ..... كانت ملابس السفر التي يرتديها مزينة بأزهار البابونج . كانت تلك القيلولة الأخيرة ، أنا كنت أعرف ذلك . لقد احبني طيلة بعد ظهر أحد الايام . كنت أنتظره وعندما تدحرجنا على أرضية الغرفة جرحني عندما جامعني ، وأعتقني ومنحني حرّيتي بجرحه اياي . لا اهمية عندي لاختفاء أزهار الياسمين أو لكون بعض الرجال المسنين يستخدمونني . بالأمس ناديت « جوان » ولكنه لم يأت فالرجال يخافون من النساء اللواتي يتألمن . ولكن لا أهمية لذلك عندي كل شيء هادىء في هذا الجانب من الشمس . لا بد أن « فيلا جرا » لم يكن سوى أحد الأنذال ، نذل كان يمكنه أن يغمرني بالفرح . لم تعد عينا « موكي » تخيفانني ، انها تثير القرف في نفسي ، مسكينة «موكي» ؛ انها لا تعرف نعيما آخر سوى نعيم الثأر والانتقام . وسأساعدها على تدميري .

كانت الصفحات التي كتبتها الشاعرة تتلوى بين أصابعي . لم يكن أحد قد أخذها بعين الاعتبار . ولم يفكر أحد بانقاذها . ولم يكن أصدقاء « فرنسيسكا » يهتمون بما تكتب . ومن هو ، بل ما هو الشاعر ؟... مجنون طليق ، يتمتع بالحرية ، وليس غير ، أليس كذلك ؟

وأنا ، الانسان المسكين ، صديق الرفاق الذين يرتادون حانة « الشيري » تمتلكني احدى الأرواح . أخذت أقرأ وأعيد قراءة الصفحات المخصصة لي الى أن امتلأت عيناي بالدماء .

أصبحت رائحة عطر « الناردين » خانقة في غرفة المتوفاة . حاولت فتح النافذة ، ولكنها كانت مخرّبة . أما الباب فلم يكن سوى لعبة . وقد فتحته دون أي جهد . أدرت المقبض ، دفعت الباب بقدمي ، بركبتي

ولكنه ظل يقاوم . وجهت له دفعة قوية بكتفي . استعنت بكرسي ، ضربته بها ، وثبت عليه كما يفعل السكارى ، انشبت فيه أظافري ، أخذت أعضه بأسناني ، نطحته بجبيني، دفعته بظهري. هدات الضحكات التي كانت تحيط بي من كل جانب ولم أعد أسمع وقع أقدام خلفي . ولكنهم لم يكونوا يريدون أن أخرج من هذه الغرفة . فقد أمسك بي كالجرذ من قبل أحدهم ، أو بواسطة شيء ما كان يرغمني على الشعور بنشوة الكبرياء واليأس مع آخر صيحات « فرنسيسكا هونتير » الماجنة والشهوانية .

يبدو أن عجزي لا علاج له . قبلت أن يقضى علي ، ولكن قبل أن أموت يجب أن أروي ما أعرفه . ويجب أن يعرف الجميع لماذا دس السم لـ « فرنسيسكا » . أكتب بسرعة . أستطيع تذكر كل شيء ولكن الضعف يكاد يشوش لي ذهني . أخذ ظهري يتقوس وينحني ، انتفضت غضبا ، فأنا جائع ، اخذت أتنفس تنفسا عميقا وعدت الى الهجوم على الباب وعلى النافذة محاولا فتحهما أو خلعهما . وعلى كل حال فاني لن أترك هنا الى أن أموت ! ولا احد يبقى محتجزا في بيت فارغ ، دخل اليه دون أن يقف في طريقه أي عائق . أخذ الوقت يمضي . كان لدي شعور بذلك على الأقل . كان الجوع يكوي بطني وفمي . وقد توقفت ساعتي ، ولأن النافذة مغلقة باحكام ، فلم اكن أستطيع أن أعرف فيما اذا كان الوقت ليلا أم نهارا . « ان الانسان ، بفضل قوة ارادته ، يجب أن يتمكن من التوصل الى السيطرة على الجوع » لا بد أني قد قرات ذلك في كتاب ما . « فرنسيسكا ، لقد تحاببنا ، نعم ، لقد أحببنا بعضنا على مدى الحياة » . أنا عطشان ، يا فرنسيسكا ... ورأسي كالكرة ، بل كالطبل .... ولساني لم يعد سوى قطعة جافة من الجلد . اني أنهار وأسقط في المكان نفسه الذي كنت تكتبين فيه الأسطر الأخيرة من مذكراتك التي كنت تتحدثين فيها عني يا فرنسيسكا .

نهضت واقفا بعد أن قمت بمجهود خارق ، ولكني كدت أسقط ثانية وابقى على الأرض ، حتى النهاية هذه المرة ، قرب سريرها ، دون

أن أستطيع انهاء قصتي . شعرت بألم حاد يقضم صدري ، وبالشلل يصيب أطرافي . وبمشقة كبيرة في الكتابة . توقفت عن المناداة ، لاني بطبيعة الحال من هو الذي يمكنني مناداته ؟ « جوان ، هل تعلم ... اني لم أر البحر أبدا طيلة حياتي . وأنك أنت تشبه الزورق ، بملابسك البيضاء . » لم أستطع الكف عن الهذيان . ولا أذكر أني قد نمت في أية لحظة من وجودي على قيد الحياة . كلا ، يا فرنسيسكا ، اني لم أنم مطلقا . لقد عبدتك وتركتك نموتين . ونسيت شكل جسمك . ونهداك يهربان من يدي . أنهما يصغران ، ويتحولان الى قبضتين من الرمل . انك لا تفهمينني ، ولا تسمعين ما أقوله . والأصوات التي تخرج من بين شفتيّ تكاد تخنقني . فأين أنت ؟

توسعت حدقتاي بسبب شدة الظلام . وانفتحت عيناي ولم أعد بعد ذلك أستطيع اغلاقهما . اني أرى بوضوح كل ما يحبط بي ، فبما عداك . لقد ناديتيني ولفظت النفس الأخير ، لقد متّ لأنك تمتثعت بضمي اياك بين ذراعي . ذراعاي ، انهما محطمان . ولن أستطيع بعد الآن أن أمدهما أبدا ، يا فرنسيسكا ... ولا أن أكتب ... لن أستطيع بعد الآن أن أكتب فرنسيسكا ، بربك قولي لي ، من أنت ؟ وأنا ، من أنا ، وأنت أيها المولى ، هناك في الاعالي ، الذي تسبب لي كل هذه الآلام ، مـن أنـت ؟

في الصحف ... وقائع واحداث مختلفة

جثة « جوان فيلاجرا » ، طالب من « جوالوجواي » ، في مقاطعة « دانترريوس ، عمره ٢٢ سنة ، اختفى منذ شهرين ، وجدت صباح هذا اليوم عند الساعة ٦و٥٤ د . في حالة تفسخ شديد في عقار تعود ملكيته المرحوم « ساترنينو هونتير » ، في « الكمبانادا » ، الواقعة في محافظة « بوهوياجو » ، على مسافة خمسمائة كيلومترا من « بوينوس ايرس » . وبفضل الكثير من الجهود المضنية ، أمكن التعرف على هويتها في مكتب الشرطة الاتحادية لتحقيق الشخصية . ورغم الطابع

السري للتحقيق ، فقد علمنا أن المتوفي ، وهو كاتب محترف ، كــان منهمكا في كتابة قصة مفصلة سرد فيها الكثير من الاحداث ، عندما فاجأه الموت . وهذه القصة هي التي سمحت بالكشف عن هوية الجثة . أما الحادثة فتكتنفها ظروف غامضة وخفية . « جوان فيلاجرا » الــذي كان منكمش الجسم ، مستلقيا على الارض ومتشبثا بقضبان أحــد الاسرّة ، يبدو أنه قد فارق الحياة على اثر نوبة صرع ، أو نوبة هذيان انتهت بغيبوبة ابدية . كل ذلك ، بناء على المعلومات التي حصلنا عليها ، وقد استمعنا الى شهادة بعض الاشخاص الذين ذكرهم المتوفي في قصته أولئك الذين كانوا يرتادون احدى الحانات في « أوليفوس » ، والذين ليس هنالك شيء واضح أو محدد في عاداتهم وسلوكهم يوحي بافتراض وجود نوايا عدوانية أو جرمية نحو الكاتب الشاب ، وقد انكروا معرفتهم للمدعو « جوان فيلاجرا » ، ولكنهم مع ذلك اعترفوا بأنهم كان يحدث لهم احيانا أن يروا ، منذ بضعة شهور ، شخصا يتصف بالكآبة ، قليل الكلام ، تنطبق أوصافه على المتوفي ، كان يجلس الى مائدة مجــاورة لمائدتهم . ويبدو أن أحد هؤلاء ، ويدعى : « جيلبرتو زاكارياس » كان قد حاول مرة أو مرتين أن يجعله يشاركهم في ألعابهم دون أن يحصل من هذا الغريب على شيء آخر سوى غمغمة تنم عن الرفض والسلبية .

آب (اغسطس) ١٩٧٧ .



الأبواب المؤدية إلى الرمال

- ١ -

في ذلك الصباح المشرق والجاف ، ما كدت أضع قدمي خارج عربة القطار التي امضيت الليل فيها ، حتى عرفت أني وصلت الى قريتي .

فالأعشاب والحشائش التي تغطيها الرمال والممتدة على مدى البصر كان منظرها حياً في ذاكرتي .

وعبر الضوء الذي كان مايزال ضعيفا ، كنت استطيع أن أميز بوضوح كل ما كان يحيط بي : المزرعة التي كان قد جرح فيها « هانس» في كتفه ، والمحطة الصغيرة المكسوة بلون الصدأ التي كانت فتيات المنطقة يعرضن أمامها جمالهن وزينتهن عند وصول ما كان يسمى « العربة الفاخرة » القادمة من العاصمة ، وفي الجانب الاخر من الخط الحديدي شجرة كينا « أوكاليبتوس » ضخمة اسقطتها الصاعقة ، وأصبحت مع مرور الزمن تكتسي طابع النصب التذكارية التي تقام للشهداء وللاموات .

« من فضلك ، ما هو موعد القطار الذي يغادر الى « أوريون — بلاج ؟ ... »

كان الرجل الذي كنت أسأله قد ترجّل عن حصانه وأخذ يسير نحوي يتبعه كلب ضخم أمغر اللون .

« كيف يكون قطارك الذي تسأل عنه ، وما هو شكله ؟

ـ انه قطار ريفي بطيء . والخط الحديدي لا بد ان يكون في جهة ما قريبة من هذا المكان » .

كان محدثي قد تجاوز السبعين من العمر . يغطي عينيه جفنان سميكان ، تعلوهما التجاعيد ، بحيث كانت نظراته غامضة لا يمكن رؤيتها . وقال :

« اني آسف ، فأنا لا اعرف أن هنالك قطارا ينطلق الى المكان الذي تذكره .

ـ لا أهمية لذلك ، سأنتظر .

ـ ماذا ستنتظر ؟

ـ قطاري البطيء ، فلابد ان يصل بين لحظة واخرى .

ـ ولكن قطارك هذا الذي تتحدث عنه لا وجود له » .

اجتاحت أحشائي لفحة من الرياح الصقيعية .

اضاف الرجل مجيبا على ما ابديت من استياء :

« تعساً لك ، واذا كنت لا تصدقني ، فانك سوف تضطر للاصطدام بالواقع . وبعد ساعة ، سيعود القطار الذي اتى بك الى هنا ، وسيرجعك الى « بوينوس ايريس » . »

كان الرجل قد اخرج من جيبه غليونا وأخذ يستعد لتعبئته بالتبغ . ادركت ان ساقيه الطويلتين كانتا نحيلتين في بنطاله المصنوع من القماش الأبيض وان رأسه كان عاريا من الشعر تحت قبعته السمبكة . اقتربت منه وقلت بصوت أجش :

« أني لست ذاهبا الى « بوينوس ايريس » ، اني اريد الذهاب الى « أو ريون - بلاج » .

كنت قد أكدت على كلماتي مشددا على لفظ مقاطعها . وكشفت عن أسنان الرجل المجهول ابتسامة لاتنم عن القبول والتشجيع . ثم لمس قميصي الوسخ بطرف سبابته :

« انك لم ترقد في سرير منذ زمن طويل ياصفيري ، وهذا امر واضح . ومن الأفضل لك أن تأخذ قسطا من الراحة بدلا من اضاعة الوقت بمناقشتي بموضوع خيالي كأنه يتعلق بأشباح لا وجود لها » .

كان يقف بقربي ملتصقا بكتفي ، وقد رفع قبعته عن جبهته كما لو كان يريد أن يجعلني أعرف تماما أنه على تلك الأرض المهملة ، لم يكن الدخيل هو السيد الذي يرتدي الملابس البيضاء والحذاء الطويل الملمّع حديثاً ، بل ذلك الفتى الطويل الأشعث الذي قام برحلته في قطار لنقل الماشية ، والذي تجاوزت ذاكرته حدود الانهيار .

تبدّد السرور الذي شعرت به عند نزولي من عربة القطار . ففي الوقت الذي كدت فيه أبلغ هدفي ، خرج رجل مجهول من الرمال وابعدني عنه . مجهول يتكلم ببطء الملاك الساخر ويبدو انه عازم على أن يحتل كل المكان بين السماء وبيني .

كان تعبي قد تحول الى انهاك وانهيار . كنت أجد صعوبة في الوقوف على قدميّ . وطيلة اثنين وخمسين يوما على متن سفينة شحن مقرفة تبعث على الاشمئزاز ، لم أفعل شيئا سوى تصوري ، وأنا ارتجف وصولي هذا الى « لاس روزاس » . كنت أعتمد على وجود قطاري البطيء والقديم ، كاعتماد الطفل على وجود شجرة عيد الميلاد ، وفجاة اخذت أشعر بمزيد من خيبة الأمل . اذ أنه كان هنالك أمران لاأطيق تحملهما : المحطة الصغيرة اللعينة التي يعلوها الصدأ وبلادة محدثي التي تتسم باللباقة والكياسة .

وفي البرازيل ، بينما كان رفاقي في الرحلة يلهون بالانهماك في الرقص الهستيري ، كان علي انا ان أقوم بتنزيل صناديق ارجنتينية من سفينة تحمل اسماً المانيا لأضعها على متن باخرة شحن اسبانية كانت ستبحر الى « كاديكس » . كان أحد تلك الصناديق يحمل عبارة كتبت بحروف غليظة : « مانويل دو فالاّ » ، موسيقي ، أما الصناديق الأخرى فلم تكن تحتوي سوى البرتقال وبعض الجثث من الدرجة الثالثة .

القبطان الثاني الذي كان يقوم بمهمة الطبيب كان قد صرح بأني حالما اصبح في بلدي ، وأخلد الى الهدوء ، فان كل شيء سوف يسوى . « هادئا جدا في بلدي » . فالأطباء يتمتعون بموهبة تناول الأماكن العامة دون أي معنى من معاني الازدراء أو السخرية . كانت الحمى التي اصبت بها قد اشتدت وطأتها ، ودقات قلبي أصبحت مثيرة للغثيان ، ولكنني كنت على وشك الوصول الى موطني الذي تغطيه الرمال ، « متمتعا بالطمأنينة والهدوء التام » مع ذكرياتي وبجسمي المنهك . والحقيقة اني لم يكن لديّ ما أشكو منه .

ومع اقترابي من الأرجنتين ، هذا البلد الذي يشبه اسمه زهرة اللبلاب الفضية والذي بدت لي على الدوام جغرافيته وتاريخه أنهما ينتميان الى عالم الخرافة والخيال ، كانت الحمى التي انتابتني تزداد شدة، ثمّ كانت المسيرة الى مرفأ « بونيوس ايريس » للبحث عن صديقي القديم « أوليفيه » التي انتهت بتحويلي الى متسكع .

كان عليّ بأي ثمن أن اخلد الى الراحـة . وربما كان قضاء ساعة من الصمت في هدوء هذه الأرض التي الفتها في صغري ، يعيد اليّ صفاء الذهن .

« فنجان كبير من مغلي الزهور ، وفراش دافيء ومريح ، هذا ماانت بحاجة اليه » .

انتفضت مذعورا : كان هنالك كلب عيناه مطموستان ودابعتان بعض اربطة حذائي . وجّه له صاحبه ضربة على رأسه .

« يكفي ، يا » جوبيتير !

تمتمت متبرمة :

ـ انك بادي الحفاوة ، « ولكني سأكتفي بسرير من الرمال » .

كان الخيّال قد جلس على الأرض المكسوة بالأعشاب وأخذ يعض على أنبوب غليونه .

« لقد دخلت السجن ، أليس كذلك ؟ » .

كانت نظراته تلتقي مع نظراتي . وقال : « خذ حذرك ! » .

بدرت مني حركة تراجع . كان الرجل قد بسط ساقيه تحت أشعة الشمس . ماذا كان في هندامي يدعو الى التفكير بالسجن ؟.. أكانت هي رائحة الكحول وطابع السخف اللذان الصقهما بي رفاق رحلتي ؟.. كان الرجل المجهول يرسم بطرف سوطه في الرمل دوائر كانت تتوالى ويعلو بعضها البعض الآخر لتشكل في النهاية رسما هندسيا يتصف بدقة مذهلة .

أضاف قائلا دون أن يرفع نظره عن الأرض :

« لا تضع وقتك ، فلا يوجد خط حديدي ولا طريق صالح لسير العربات ، الى أوريون » .

كانت اللهجة حاسمة ، وقد أدركت انه لمن التفكير الطفولي ان أحاول مخالفة شخص يستطيع رسم متاهات بطرف سوطه واخفاء الطرقات والسكك الحديدية. ومع ذلك فقد رفضت الاعتراف بهزيمتي ،

لانه اذا لم يكن هنالك وجود للقطار الذي أتحدث عنه ، فلا بد أن يكون هنالك واسطة نقل أخرى للوصول الى الشاطيء . ولم يكن لديّ أي شك بأن الرجل المجهول يتعمد تضليلي . اذ أن « أوريون — بلاج » كانت على الدوام وما زالت مصيفاً انيقــا وفخما ومنذ زمن طفولتي لم يكن المصطافون يذهبون اليه سيرا على الأقدام .

أردت اخراج منديل من جيبي لتجفيف العرق الذي كان يكوي عينيّ ولكني دون شك كنت قد استعملته لمسح الغبار عن زجاج نافذة عربة القطار ورميته لانه لم يكن له وجود في جيبي فقدّم لي الخيّال منديله ، وقال وهو يندس في مجرى أفكاري : « أنا أيضا سمعت بهذا القطار الريفي البطيء ولكن لاأحد يتذكره ، على الأقل ، لاأحد ممن يتمتعون بكامل قواهم العقلية » .

جلست على العشب الأخضر دون أن أنجح بتحويل نظري عن طرف السوط الذي كان يتابع سير نظرياته على الرمل . واضاف قائلا : « أن قطارك الذي تتحدث عنه قد قضى نحبه ، وأصبح في عداد الأموات ، هو وكل ما هو مؤذٍ وضار .

سرت رعشة قوية في أوصالي . فهل كان هذا الرجل يحاول أن يوحي لي بأن « مورينا » قد ماتت ، هي والطريق السالك ، والقطار ، وكل ما كان يعتبره « مؤذيا وضارا » .

كانت عيناه ما تزالان مصوبتين الى الأرض وصوته يبدو كانه يخرج من خلف حاجز كرسي الاعتراف .

يوجد الكثير من التعساء الذين لا يجرؤون على مجابهة الاحيــاء ويرتبكون من ازدحام الأشباح من حولهم . »

نفد صبري ، فأدرت له ظهري . نادى كلبه ألذي كان منذ بعض الوقت ، يحاول الهرب بعيداعن مدى نظره .

« جوبيتير !... جوبيتير !... يا للكلب القذر . »

كان الكلب قد اختفى ، وكانت عينا صاحبه تتوهجان غيظا . نهضت فجأة ، فلم تبدر منه اية حركة وظل محدقا بأشجار الصفصاف التي اختفى وراءها « جوبيتير » .

بعد بضعة دقائق ، حصل لدي انطباع بأنه قد نسيني لا نشغاله بأمور اخرى . كانت ساقاي خائرتين لا تقويان على حملي ، وظهري قد بلله العرق . لم أكن قد شعرت مطلقا ، حتى ذلك الحين ، بحدة حرارة شمس الظهيرة . قمت بخطوتين لاختبار قواي ، ولكن كان عليّ أن اتخلى في الحال عن حقيبة سفري التي سقطت من يدي وتدحرجت بين شجيرات العوسج والعليق .

لفحة دافئة تشوبها رائحة البرسيم اصابت مؤخرة رقبتي التي كانت تتصبب عرقاً ، فانتفضت . كان هنالك الحصان والخيّال يقفان خلفي .

« انصرفا عني ، انتما الاثنان . لقد مللت من الحاحكما ومضايقتكما لي .

ـ بعض الهدوء » ارجوك أن تهدأ .

ـ انت ترى جيدا اني منهك ، وقد نفد صبري . هيا انصرف عني ودعني وشاني !

ـ ولكني اريد مساعدتك .

ـ اذا كان الأمر كذلك فما عليك سوى أن تلزم الصمت » .

كان قد عرفني . وقد أدركت ذلك من ابتسامة الشفقة التي بدت على شفتيه . كانت الحياة قد غمرتني بابتسامات من هذا النوع .كان

هنالك ابتسامة الخالة « ماتيلدا » عندما تولت العناية بي بعد مصابي وكذلك ابتسامة مدير الدير ، وابتسامة تلك الراقصة ، في « ريودوجنيرو » ، التي رفضت أن اداعبها : كانت تبتسم أيضا هكذا ، كانوا جميعهم يبتسمون بهذا الشكل ...

كانت قبضتاي المتقلصتان والمشدودتان على فخذي جاهزتين للضرب . كان الرجل المجهول يعرف « مورينا » . كانت نظرته الباردة التي يكتنفها البياض ، تحت جفنيه الكثيفين تزداد بالنسبة لي ، وضوحا والفة . كان الرجل يتراجع نحو الكثبان الرملية ، ممسكا بمقود حصانه، ومع ابتعاده كنت أراه يكبر بشكل مفرط على خلفية سماء ذات زرقة شديدة .

« انصرف عني ، دعني وشأني !... يا طائر الشؤم ! »

- ٢ -

كنت أشعر بألم شديد ، من جذور شعري حتى اخمص قدميّ . كان « سول هيريديا » زعيما فيما يتعلق بالجراة والشجاعة واذا كان فقد قامته كعملاق ، فان صوته ، بالمقابل ، ظل هو نفسه وعلى حاله وكذلك الروح التي تبعث فيه الحركة والنشاط . لقد تأخرت بالتعرف عليه ، ففي هذا الرجل ذي المظهر الهزيل ، الى درجة كبيرة كانت ذكرى قامته الطويلة قد ساورت ذهني خلال السنوات التي قضيتها في المنفى ، ولكني الآن لم يعد يساورني أي شك : لقد تحدثت مع عدوي لفترة استمرت اكثر من ساعة .

لابد أنه كان يترصد وصولي . ولاشك انه كان يعلم اني سمعت باختفاء « مورينا » . وبين لحظة وأخرى ، كنت سأفاجأ بظهور أحد عبيده ليقيم العوائق والحواجز في طريقي لمنعي من الوصول الى « أوريون » . كان يعرف أني عرضة للاحلام المزعجة والكوابيس ، واني

اذا لم أنتبـه لذلك ، فانه سيقوم بأي عمـل خسيس ، لأن « سـول هيريديا » اذا كان فيما مضى قد تخلى عن فكرة تصفيتي جسديا ، فانه الآن سيفعل ذلك دون أن يساوره أي شعور بالذنب لأن « مورينا » لن تكون هناك لتموت بسبب فعلته .

لقد عاودتني الحمّى ، كنت أشعر بنبضي يدق بقوة في صدغيّ . كان « سول » يؤمن بالقوة الجذّابة والفاتنة لذلك الشاطىء الارجنتيني ، ولكنه لم يكن معصوما . فاذا كان قد اشترى صحراء واستطاع أن يثبّت فيها كثبانا من الرمال المتحركة في حين أنه لـم يكن هنالك أحد يفكر بذلك ، فلا يعني أن هذا العمل خارق ، يفوق طاقة البشر . كان قد أغوى « مارينا » لا ليجعل منهـا الرفيقة الجديرة بعبقريته ، بل لكي تجذب له في شباكها وجهاء العاصمة ولتساعده في تأسيس محل للدعارة يليق بعليّة القوم . كنت أعرف أن لا أحد اليوم في المنطقة يستطيع أن يلفظ اسم « مورينا » دون أن تحمر وجنتاه خجلا ، وكل الخطأ في ذلك يعود الى الذي جعلها تصبح عاهرة .

كان رأسي الذي تعرّض كثيرا للشمس ، لم يعد سوى كرة يعصف بها الألم . أخرجت رسالة من جيبي ، كان قد أرسلها لي « أوليفييه » : « مورينا » فارقت الحياة منذ ثلاثة أيام ، بامكانك العودة . كن مطمئنا بشأن روحها لأنها تلقت البركات الدينية . لقد أغلقت باب غرفتهـا بوجه الكاهن « ايسبادا » ولكنه اقتحمه بالقوة ، وجرى دفنها بالمراسم المعتادة . وقد علمت عن طريق رسالة تلقيتها من « كارميلو » ابن أخت العجوز « هانس » ، الذي كنت أراسله أحيانا ، أنها لم تتألم كثيراً أسرع بالعودة . فلدينا كثير من الأمور يجب أن نتحدث بها . سأكون بانتظارك في بوينوس ايريس « على الرصيف ... »

أمسكت رأسي الملتهب بيديّ . من المؤكد ان الطفولة لم تكن سوى أحد أبواب الرمل العديدة ، الذي عليّ أن أعبره قبل أن أبلغ هدفي .

ألم عنيف في مؤخرة رقبتي جعلني أفتح عينيّ . لم يكن « أوليفييه » موجودا على الرصيف عند وصولي . فقد بحثت عنه في كل مكان : من حانة الى أخرى ومن ماخور الى ماخور ، أمضيت ليلة بكاملها متجولاً أبحث عنه . أغلقت عيني . انتصبت واقفا وصرخت : « كلا ، ياسول هيريديا ! لن يكون من السهل عليك أن تقتلني هذه المرة . » بذلت مجهودا يائسا كي أستطيع المشي . ضاق نفسي ، وخانتني ركبتاي تشبثت بغصن شجرة لكي لا أنهار .

خرج كلب من بين الشجيرات . كان « جوبيتير » . اقترب مني ، يهزّ أذنيه ، بادي المودّة ، ولكن صوت صافرة استدعاه في الحال ، فأسرع يعدو بعيدا عني .

صحت بأعلى صوتي :

« أوغاد ! الموت للاثنين ، للاثنين كليهما . »

كانت الأعشاب والحشائش في « لاس روزاس » كثيفة وقاسية كالقش الذي يحشى به الفراش في المزارع . دفنت فيها وجهي . كنا وحيدين ، السماء وانا ، مثلما كنا على ظهر سفينة الشحن .

اخذت افكر وانا منبطح :

« أيها المغفل العجوز ! تستطع دائما التمادي في ذلك والذهاب الى هناك . وهذا المساء ، شئت ام ابيت ، ساكون بقربها . »

- ٣ -

عندما استيقظت ، كانت المحطة لا تزال في مكانها ، والشمس عالية في السماء وكان للعشب رائحة زكية رطبة ، وحول قدميّ العاريتين ، كان الرمل الذي حفرته عندما نمت قد أصبح شديد البرودة . اندسّ

فأر بين ســاقيّ ، وعندما رفعت نظـري ، لاحظت أني كنت محاطـا بالفضوليين . قفزت واقفا . لم أنم سوى خلال فترة قصيرة ، ولكن كما لو حدث ذلك بأعجوبة ، كان تعبي قـد زال ، وأخذ نبضـي يدق بصورة طبيعية .

اقترب مني عامل شاب يرتدي صدرية صوف سميكة :

« هل السيد غريب ؟ »

ـ لقد ولدت في أوريون .

سرت بين أولئك الفضوليين تمتمة تنم عن الدهشة جعلت رؤوسهم تجتمع حولها . كان هنالك امرأة ترتدي صدارة وردية حائلة اللون ، قد تجاسرت على الاختلاط بالرجال وأخذت تحدجني بنظرات منبهرة . سألتهم وقد ثار غضبي :

« ما الغريب في الأمر ؟

أجاب الشاب ذو الصدرية :

ـ هكذا ، هنالك أماكن لا يولد فيها أحد . »

كنت قد حملت حقيبتي على ظهري وقلت :

« دعوني أمر .

ـ طبعا ، هذا مؤكد . »

ابتعد الرجال دون اعتراض وبكل هدوء . كانت سروج أحصنتهم جميلة ، وعيونهم خالية من أية تعابير . سألني خيّال وجهه نحيل ومتطاول :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟

ـ الى « أوريون بلاج » ، وانحنيت لأسوي وضع احزمة حقيبتي التي بدت لي ثقيلة جدا عندما حاولت رفعها من جديد .

ـ لابد أنك تتحلى بالشجاعة وأنت تريد السفر وحالتك على ماهي عليـــه ! »

كنت اظن اني قد استعدت مظهري المعتاد ، ولكن كان واضحـــاً جدا اني كنت مخطئا .

صحت بأعلى صوتي : « لن يذهب بكم الأمر ، على ما افترض الى حد مجاولة اقناعي بأنه لا يوجد طريق ولا قطار للوصول الى شاطىء رملي من الطراز الحديث . كفاية سخرية بي . اذهبوا وقولوا لسيدكم أن ، هذا الاسلوب لم يعد مجديا . »

تأملني الفلاحون وهم يهزون رؤوسهم ، ووضع أحدهم سبابته على صدغــه .

صرخت قائلا : « ولكن ، أخيرا ! اذا لم يكن هنالك واسطة نقل تصلنا بـ « أوريون بلاج » ، فكيف يذهب الناس اليها ؟

أجاب العجوز : « هاه ، حسنا ! من هنا ، يستحيل ذلك ، ولكن من يمكن أن يفكر بالذهاب الى « أوريون » ؟ فهي ليست مكانا ، مـــاذا يمكن أن اقول ؟...

ـ كيف ، ليست مكانا ؟

ـ حسناً ... ليست مكاناً مقبولاً ومرضياً !

ـ أطلب منكم ان تخبروني بأي واسطة يمكن الذهاب اليها .

ـ ايه ... يجب أن تعـود الى بوينوس ايريس .. نعم .. ثـم تستقل القطار الى « باردو » .... وتغير القطار في « باليستير » .. وبعد ذلـك ...

ـ وبعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك ، تذهب الى « أوريون » عن طريق الشاطىء .

صرخت بقـوة :

ـ عن طريق الشاطىء ! ولكن ليس لهذا أي معنى .

ـ ومع ذلك فهذه هي الطريقة الوحيدة . ويمكن الذهاب اليها ، سيراً على الأقدام ، أو بالعربة .

ـ انك تسخر بي بلا شك . فالنساء ، والأمتعة ، والخدم ! ولن تجعلني أصدق أن ...

هنا ساد صمت ثقيل .

قال على اثره الشاب الذي كان يرتدي صدرية من الصـوف : « ان هذا السيد يشير دون شك الى الموسسات . »

ـ الى الموسسات ! أضاف الرجل العجوز ، ولكن منذ زمن طويل كان يوجد كثير من الموسسات . أمـا اليوم فلم يعد يوجد سوى عدد قليل منهـن » .

كان العرق يتصبب على جبيني فيشوّش عليّ الرؤية . وكان أقل شيء كافياً ليجعلني أصوّب الضربات وأوزعها على أولئك الناس .

قال الرجل ذو الصدرية : « ان الأمر في ذلك مثله مثل مكسر المرفأ ومثل الكنيسة ومثل المنتزه . لقد مات كل شيء ، يا سيدي .

قلت وقد استبد بي الغضب :

ـ انك لن تقول لي ايضا انه لم يعد هنالك فندق !

ـ أنا ! . . . ولكني لم أقل ذلك مطلقاً . من المؤكد أن هنالك فندقاً .

تراجع الرجل الذي يرتدي الصدرية قليلا الى الوراء .

« ولن تقول لي أن الفندق لم يعد فيه نزلاء !

ـ بل الأمر على العكس من ذلك تماما ، فالنزلاء يزيدون ثلاث مرات عن أمكانية الاستيعاب في الفندق ! » .

وضع احدهم يده على كتفي . فدفعتها بغضب شديد .

« اتركوني . وانتبهوا جيدا اذا لم تكونوا تريدون أن تقتلوا .

سأعد الى العشرة : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، خمسة ، ستة سبعة ، ثمانية . . . تسعة . . . » .

كنت قد اغمضت عيني ، وعندما فتحتهما ، كنت وحيدا . كان هنالك أصوات احتجاج غامضة خلفي ، ثم ساد الصمت . الصمت الذي يسود المحطات الصغيرة في تلك السهول عند بزوغ الفجر ، والذي لا يعكره سوى صياح الديكة ونباح الكلاب . خطوت بضع خطوات دون أن الاقي صعوبة في ذلك ، واستعدت في الحال قوة أطرافي . كان حفيف أوراق الزيزفون وتغريد الطيور يحثاني على المشي . تناولت حقيبتي ووضعتها بشيء من السهولة واليسر على كتفي . لم اكن أشعر بالجوع ولا بالعطش ، وكنت مصمما على بلوغ الشاطىء . ويمكن أن انام في ظل شجيرات الغابة اذا لزم الأمر ، وهناك ، نعم هناك ، سيكون البحر .

سمعت صوتا يقول لي : « من الأفضل أن تسرع » . كان أحد الفلاحين قد بقي هناك . عرفته : كان ذا الوجه النحيل .

سألني : « هل غادرت البلد منذ زمن طويل » ؟

اجبته وأنا ادير له ظهري :

ــ منذ عشرين سنة .

ــ منذ عشرين سنة ! ارجو الا تكون مبالغا .

اخذ يتأملني بشيء من الاعجاب المشوب بالأسى .

اخذت أسير باتجاه الشاطىء . كان للهواء طعم خاص لذيذ . وعما قليل سيصبح مشبعا بطعم الملح . وبنهاية الرحلة ، كان هنالك درج « مورينا » والمنتزه الذي كانت تتجول فيه حاملة مظلتها البيضاء المبطنة بالدنتيلا السوداء . فلا الوحدة في عرض البحر ، ولا العزلة في زنزانتي الانفرادية ، لم يسبق أن اتاحا لي ابدا شعوراً بالأمن والطمانينة التامّين كذلك الشعور الذي كنت انعم به في تلك اللحظة .

سألني الشاب الذي كان يتبعني ممتطياً حصانه

« أكان لك أحد هنا ؟

اجبته دون أن ابطيء في سيري :

ــ نعم . ولكنها ماتت .

ــ هل مضى على ذلك زمن طويل ؟

ــ كلا .

ـ وهل كتبت لك بأن كل شيء قد تغير ؟

ـ كــــلا .

ـ أكانت ، في آخر الأمر ، لم تعد تحبك ؟ » .

كانت الحمى قد انخفضت درجتها ، ولم تعد ساقاي ترتجفان

قال الخيّال ملحاً وهو ينحني على عنق حصانه :

« اعترف اذن أنك قد خدعتها ...

ـ كلا ، لقد أردت قتل عشيقها » .

ساد صمت عميق ، تلته ضحكة مشوبة بالكآبة . ثم تابع الرجل الاستجواب الذي بداه :

« وهل انتقم منك ؟

ـ كــــلا » .

كنت أمشي على الرمل يرافقني حيوان صبور بخطواته الثقيلة . كانت الرياح تعصف بالاشواك البرية ، والشمس تسطع في سماء صافية . كان لرياح البحر طعم الحلزون البحري .

« طيلة تلك السنوات ، ألم تستطع نسيانها ؟

ـ لقد كانت امــي .

ـ آه ! » .

لحظة توقف ، قضم الحصان خلالها حفنة من نبات القليح . كانت الحشائش والأعشاب امامي تنمو على مدى النظر .

« وقد عدت لكي تأخذ بالثأر ؟

ـ ربما كان الأمر هكذا .

ـ ألم يكن الأمر على ما يرام بالنسبة لك في البلدان الأخرى ؟

ـ كــلا .

ـ الم يكن هناك نساء ؟

ـ بل اكثر مما ينبغـي .

ـ اذن مــاذا ؟ » .

كان يسدُّ لي الطريق .

قلت وأنا أدفعه : « لا بأس ، ماشي الحال ! » .

ولكنه كان يرفض أن يدعني وشأني لأمضي بسلام . وبالتأكيد كان وجهه متطاولاً لدرجة تثير السخرية والضحك .

قال : « عد أدراجك ، واستقل القطار ثانية لترجع الى بوينوس ايريس » .

لم اكـن أصغي اليه .

« انك ترتكب خطأ كبيرا ، فهو سيظفر بك ، فأنا أعرفه .

ـ انهـا قضيتي » .

كان يتبعني كظلي ، يلامسني ، ولكني لم أتوقف . كان البرد القارس يجمد أطرافي . كان لا بد أن لدى هذا الفتى مبررات شخصية

تدفعه لاعتراض طريقي ومنعي من الوصول الى هدفي . كان وجهه يزداد تطاولا بسبب خوفه من رؤيته لي وقد وصلت الى « أوريون » . أسرعت الخطى .

صرخ قائلا : « ولكن بما انها ماتت !

ــ بالضبط ، انما اذهب بسبب ذلك » .

كان قد أوقف حصانه بحركة مفاجئة من يده ، فبدر من الحصان صهيل ينم عن الالم .

« خذ حذرك ! ان « سول » لم يمت ، فهو مازال حيا يرزق ».
ولكني لم أكن أصغي اليه . فالاصوات البشرية لم تعد تثير الاضطراب في نفسي . ومنذ بضعة دقائق كانت أصوات الطيور وحدها هي التي تبلغ مسامعي . أخذت أسير في طريق تكتنفه أزهار البابونج وكان جوّه وكل شيء فيه جميلاً وعلى ما يرام .

صاح بي الخيّال بصوت أجش ، يكاد يكون مخنقا :

« دائما ضد الريح ، « أوريون غونزاليز ! » « ضد الريح دائما ! ... »

وبينما كنت أمشي بخطى منتظمة ، تغمرني السعادة لشعوري بحرارة الرمل تدفىء أسفل قدمي ، تغطت السماء فجأة بالرؤى : وبدت لي بعض المدن ، والغابات ، وخلجان صغيرة ، وبحر هادىء والمطر شعرت ببضع نفحات من اللذة والسرور : ففي متناول يدي قامة امرأة وبطن طوع بناني ، وبعض من « فيش » القمار مكدس على سجادة كازينو ، وحفلة زفاف ... ثم من جديد قاع باخرة الشحن ، رائحة المهاجرين ، الاواني القذرة ، وفي حرارة الليل ، النساء الثرثارات

والمترهلات . ممارسة الحب ، ودائما بعد ممارسة الحب ، ذلك الغثيان الذي يجعلك تصبح شريرا .

كان الهواء يملأ صدري ويجعله يبدو منتفخا . وبحركة من رأسي، تخلصت من الرؤى التي بدت لي . والحقيقة هى أن الماضي لم يكن بالنسبة لي سوى مرض طويل الأمد أصيب به طالب داخلي : ألم يذكر « سول هيريديا » السجن في حديثه عني ؟

الهواء البارد تحت شمس محرقة كان قد أصبح قارسا . رفعت ياقة سترتي . كان يجب عليّ الا أستسلم ، وأن أتابع السير الى الامام فعما قليل ، وكنت أعلم ذلك ، فيما لو قاومت النعاس ، فسوف تبدو لي صورة أمي . كان مازال أمامى ليلة بطولها أقضيها بين الكثبان، وفترة كبيرة من اليوم التالي . ف « سول هيريديا » قال : « يوجد بعض التعساء الذين يحيطون أنفسهم بالاشباح » .

كان ظلام الليل يزداد كثافة ، ولكنني كنت أتابع السير في طريقي . فقد نصحني الرجل ذو الوجه النحيل ، قائلا : « ضد الريح ، دائما ضد الريح » . كنت أمشي دون أن الاقي في طريقي أية عوائق ، عندما برزت اخيرا أمام عيني ، وفي كل روعتها ، قامة « مورينا » . لم يسبق أن راودني مطلقا اي أمل بأن أرى أمي تظهر بهذا الشكل الدقيق . ولم أكن قد افترضت ابدا ان وجهها يمكن ان يرتسم بهذا القدر من الوضوح والحقيقة على ستار من الريح .

كانت بكامل ملابسها المصنوعة من الشاش الشفاف ، تبدو كأنها جزء من الهواء . كان دائما يتبادر الى ذهني وأنا طفل ، أنها ولدت من الرمل ، مثلما ولدت فينوس من البحر ، وأن مدينة « أوريون » قد بنيت حولها .

ولأن الكثبان أخذت تصبح أكثر ارتفاعا ، فقد كانت الصورةالرائعة تغيب عني ، لتظهر ثانية كما كانت قد بقيت في ذهني : سمراء ، ناعمة الملمس كالحرير ومجسدة في مادة ساكنة .

ومع تقدمي في مسيرتي ، كان جسمي يزداد خفة . والنساء اللواتى عرفتهن كن ينفصلن عنى . وكنت أكنّ الحقد لاولئك اللواتي كنّ قد ارغمنني على التصنع وادعاء العطف والحنان عندما كنت أمنحهن بعض اللذة . كنت أنقم عليهن لكونهن جريئات ولا ينعمن برائحة الزهور التي كانت تفوح من « مورينا » عندما كانت تأتي لتقبّلني في سريري . ولم تكن أية واحدة منهن قد عرفت أو استطاعت أن ترتدي ثوبا كأنه فستان صنع من أوراق الشجر . لم تكن أية واحدة بينهن تتمتع بمرونة « مورينا » ، ولا باشراقتها النيرة . لا أحد ، كلا ، لا أحد رد لي البراءة التي كانت من حقّي .

ومع ذلك ، فقد حدث لي ، خلال رحلاتي ، أن اصطدمت بنظرة صافية ، وأن لمحت مستقبلا مقبولا في انحناءة رأس . وفي كل مرة كنت أهرب من السعادة . كنت أجهل كل شيء عنها ، وكانت تبدو لي كأنها خيانة . فأنا أنتمي الى شبابي ، الى تمزقي ، الى خجلي وعاري وكنت ارفض قبول أي صمت سوى صمت أهلي .

لم يحاول أحد على الاطلاق أن يسبر غور همّي ومتاعبي . لم أكن أتهرب من الرجال ، كنت ارافق رواد المقاهي ، وأندس بين الجماهير . وانتهى بي الامر الى الزواج . ولكن لم يشعر أحد أبدا بالمودة نحو الحيوان المحترق الذي كنته أنا . كان وجهي يحدث الاضطراب والبلبلة في الاحاديث ، ويوقف الانطلاقات ، كلا ، لم يحاول أحد على الاطلاق القيام بتجربة الغوص في أعماق نفسي .

كان يبدو أن جميع أولئك القريبين مني كانوا يعلمون ، كما لو أن الامر كان مكتوبا على وجهي ، اني بعد أن جعلت عدوي تحت فوهة مسدسي ، أطلقت عليه النار عن قرب وأخطأت الهدف .

- ٤ -

مشيت طويلا دون أن أشعر بالتعب . كان الهواء ينفخ أوردتي . الأرض التي كنت أطؤها كانت لي بالتمام ، عذبة وقاسية ، هي وزينتها الفخمة البيضاء المكونة من غابات مخملية صغيرة على سفوح الروابي والتـلال .

وبمسيرتي متقدما نحو الأفق ، انما كنت أستعيد صمتي وفراغي في غلاف السماء الأزرق ، وفي الرغبة الطفولية التي كانت تراودني للركض الى أن أفقد أنفاسي .

كنت أمشي منذ عدة ساعات دون أن أشعر بالعطش ولا بالنعاس، عندما ادركت فجأة أني رغم غيابي ورغم انقضاء زمن طويل ، لم أكن قد سكنت أبدا سوى هذا الموقع الطبيعي ، وأني في كل الأماكن التي ذهبت اليها منذ عهد شبابي ، كنت أحمل في ذهني وفي نفسي أشعة هذه الشمس نفسها ونفس هذه التحجيرات والأدغال بالذات .

- ٥ -

وعلى مدى سيري وتقدم الليل ، كان الظلام يغشاه بخار أصفر كانت قامة « مورينا » تغوص فيه . وحيد ومشدود بين السماء والرمل الرطب الذي كان يحملني ، كنت أشعر برغبة عنيفة بأن أضم امرأة بين ذراعي . كانت تحاصرني ذكريات حسية عن الكواحل والبطون . وعما قليل سيكون عليّ أن أتمرغ في الرمل . كنت أجد صعوبة كبيرة بالمحافظة على وضعي وعلى حسن سيري . هبت الرياح فقذفت في وجهي مباشرة حفنة من الأصداف البحرية .

استرديت أنفاسي ، كما لو أني كنت قد تلقيت صفعةبعد توبيخ عنيف . اختفى السراب وعادت الخفة والرشاقة الى قدميّ . ولم تعد هنالك هموم تشغل بالي . ربما ستكون « مورينا » تنتظرني في غرفتها ، غارقة بين الوسائد والشراشف الحريرية الوردية اللون . وغدا ، يوم

عيد ميلادها ، ستقف في المنتزه ، ومظلتها في يدها . وستعلق مصابيح الزينــة الملونة على جانبي مكسر الميناء . وستطلق الأسهم الناريــة . والضحكات البلهاء ستملأ الردهات بالضجيج المزعج . وفي الطابق الأول ، سيحدث ضجيج آخر ، سيكون شبيها بنوع من النقيق . ودون أن اعرف تماما لماذا أفعل ذلك ، فاني سأصعد متسلقا بأقصى سرعة طوابق الفندق العديدة ، وسأبلغ نهاية الممر الكبير . وهناك يصبح الضجيج صاخبا ، مزعجا ، تتخلله قهقهات الضحك . سأفتح الباب وأدخل غرفة الزوجية فأجد على سرير الزوجية « فيولا شميت » المخيفــة غارقة في فراش أمي الحريري ، يحدق بها « سول هيريديا » بعينيه البراقتين . سأصرخ صراخ الحيوان الجريح عندما أرى « مورينا » تدخل الغرفة ، حاملة صينية ملأى بالحلوى تحت ثدييها العاريين .

كان الهواء الرطب يسد أذنيّ . وشعرت بألم في أسفل بطني جعلني أترنح . وبمسامير تثقب حلقي . وغاصت ساقي بين العليق وسقطت على الأرض ، منهارا ، فاقد العزيمة والوعي .

- ٦ -

عندما بلغت الشاطيء ، لم تكن ساقاي تجران سوى جسم كبير ثقيل كأنه جسم رجل سكير ثمل ، وأخذت أرسل همهمة الفرح وأنا أسير على الشاطيء . فالبحر قد ردّ لي روعي . وتركته يعمل دون أن أدافع عن نفسي ، سعيدا بعودتي واستسلامي اليه .

اخذت أتمتم : « مورينا » ، « مورينا » !

عندما استعدت كامل وعيي لاحظت اني قد انحرفت عن طريقي لأنه لم يكن هنالك أي منزل ، ولا أية سقيفة على ذلك المنبسط الفسيح من الرمل الذي كان يقع تحت بصري . كان مغروسا في الكثبان بعض شجيرات الصنوبر وبعض أشجار الكينا القديمة ، ولكن لم يكن هنالك أيــة قرية تبدو للعيــان .

وعندما حاولت النهوض ، انتابني ألم مفاجيء في خواصري جعلني أرتمي على الأرض . وربما انتهى بي الأمر وانا أقع مرة بعد أخرى ، أن أبلغ الشاطيء الحقيقي الذي أقصده . ولكن ، للأسف ، كان عليّ أن أقطع أيضا عدة فراسخ قبل الوصول الى « أوريون » وكنت أشعر أني عاجز عن القيام بذلك . كان الفرح الذي كنت أشعر به لعودتي الى مسقط رأسي يوشك أن يفارقني . دفنت رأسي في الرمال . تصاعدت رائحة المحار الى أنفي . مددت يدي لأمسك احدى تلك الرخويات الظريفة التي كانت تمد لسانها من خلال الزبد ، ولكني رميتها في الحال .

رفعت نظري عند سماعي رنين جرس . كان هنالك عربة تجرها أربعة أحصنة برشاء ، تسير بمحاذاة الشاطيء . أشرت للسائق بالتوقف :

« أرجوك ، خذني معك ، من فضلك » !

ــ الى أيــن ؟

ــ الى بلاج « أوريون » .

ــ ولكن ، قل أيها السكير ، ألم يكن بامكانك أن تفتح عينيك ؟ !

وأخذ السائق يلهب ظهور أحصنته بالسوط فانطلقت تعدو باتجاه الجنوب . بذلت جهدا آخر للنهوض ، ولكني فقدت الوعي للمرة الثانية ، لأني لا أذكر أني رأيت صيادا يصل الى هناك ويضع صنارته وسلته . ومع ذلك ، فانّ الرجل كان بالقرب مني ، هادئا وعلى رأسه قبعة صغيرة من القش .

سألته وأنا أحاول النهوض ، ومحاولا أن أجعل مظهري لا ينم عن العداء :

« أيمكنك أن تقول لي كم يبعد من هنا فندق « أوريون بلاج » ؟

ـ الفندق ! ؟ ولكنه هنـــا .

ـ هنا ؟ !

ـ واضح أنك غريب . فما عليك سوى الصعود على خط مستقيم الى قرب العمود ، وحالما تبلغ كثبان الرمل ، تستدير ، ليس بانجاه الحدود . هل ترى جيدا تلك القبـــة ؟

ـ نعـــم .

ـ **الفندق ؟**

ـ نعم ، النزل ، أو الفندق ، ان شئت أن تسميه هكذا .

ـ ولكنّ هذا غير ممكن ! فلم يسبق أبدا أن كان هنالك قبـــة . والكنيسة ، أين هي ؟

ـ الكنيســة ! كيف ، انت أيضا ؟ »

أخـــذ الرجل يقهقــه ضاحكا ، وبدلا من أي تعليق ألقى بقـــوة صنارته في المياه . حيث حط حينذاك قرب الرجل نورس ضخم . أخذت أتمعن في وجه الصيّاد . كان يعلو ابتسامته شارب لطيف .

« أترى ؟ إنّ هذه الطيور لا تعرف بعد أن الانسان شرير . حتى الأسماك ، انظر اليها ، إنها تقفز الى يديك .

كان الضوء ساطعا في ذلك الوقت والسماء صافية تماما . وهكذا فقد كنت اذن في « أوريون بلاج » ! فلم يكن لدى هذا الصياد أي مبرر للكذب . بدأت أتبين شيئا وراء الكثبان . كان ذلك هو الكوخ الذي كانوا يسمونه كوخ الحدود والذي كنت العب فيه عندما كنت طفلاً ،

لوحدي أو أنا و « أوليفيه » . ولكن ، حولي ، حيث كانت تبدأ الشوارع والبيوت فيما مضى ، لم يكن يوجد شيء سوى بضعة أشجار هزيلة ، وهنا وهناك احدى أشجار الكينا ملقاة على الأرض بعد أن حطمتها العواصف .

لم أكن مخطئا ! فقد وجدت قريتي من دون بوصلة ولا دليل . كان القطار قد اختفى ، ولم يكن هنالك أحد ينتظرني وكان صمت البادية يسود ذلك الشاطيء الرملي الذي كان فيما مضى مكاناً راقياً للفوضى. شخص آخر استرعى انتباهي . كان يسير بخطى سريعة بمحاذاة الشاطيء ويتوقف من وقت لآخر لكي يتفحص الأرض ويشم رائحة الرياح. على صدره كان يحمل آلة تصوير وكانت تعلو أنفه نظارة كبيرة .

كنت أجرُّ نفسي بصعوبة بالغة ، اذ أن الجهد الذي بذلته خلال تلك الساعات الأخيرة كان مرهقا ، ولكني مع ذلك كنت أتقدم ، كما لو أن قدري كان أن أتبع نصيحة الرجل النحيل الوجه ، والسير « دائماً ضد الرياح » .

كان ذلك الرجل الماشي يراقبني ، كما كان قد تفحص الآثار التي تركتها الطيور على الرمل . ثم اقترب مني وقال مبتسما :

« أرى أنك غريب ، أنا الأستاذ « جوتمان » وأستطيع أن أؤكد لك انه لن يتأخر . ربما يومين على الأكثر ، ثلاثة أو أربعة ... آمل أن تكون لاتخشى الأعاصير !؟ » .

كانت أسارير وجهه قد تجمدت ، بانتظار الجواب . هززت رأسي تعبيراً عن المودة والتعاطف .

فقال بلهجة تنم عن الرضا :

« لحسن الحظ ، ان هذا أفضل ! سنلتقي ثانية عما قريب » . واستأنف سيره بمحاذاة الشاطيء .

سرت بضع خطوات باتجاه الكثبان الرملية باحثاً بنظري عن المنتزه الذي كان يضفي سابقا على « أوريون بلاج » طابع المصيف الأنيق . لكن وبالأسف كان ذلك المنتزه قد زال من الوجود ولم يكن أمامي سوى الرمال التي يغطيها حطام الأشياء البالية وآثار مرور الطيور البحرية فوقهـا .

توقفت قليلا لأسترد أنفاسي . استندت الى عمود من الاسمنت مغطى بالأصداف البحرية . كنت أشرق بدموعي التي كانت تملأ حلقي . لم أكن أجرؤ على الجلوس لخوفي من عدم قدرتي على النهوض ثانية . كان هنالك عمود ثان مواز للأول ينتصب خارج الرمل . اذا كان الناس لم يخدعوني واذا كنت حقاً موجوداً في « أوريون بلاج » ، فانّ هذين العمودين الحجريّين كانا الدليلين الوحيدين على أنّ يد انسان قد حاولت أن تبني شيئا ما في هذا المكان . ومع ذلك فقد كان يصعب معرفة فائدة هذين العمودين اللذين تلتصق بهما الرخويات ولأي غاية قد استخدما .

قال رجل عجوز كان يقف الى يميني وبيده معول ، وكنت قد عرفته من وجهه الكبير وفمه الملتوي نحو اليسار :

« لو لم يكن ذلك بائسا ! »

ناديته : « هانس ! عزيزي هانس !.. »

ولكن لم يكن يبدو أن الرجل قد سمعني ، فقد كان يهز رأسه .

أخذ يردد : « لو لم يكن ذلك بائسا ! » لا أحد يذكر شيئا . لا أحد.

قلت ملحّـاً :

ـ هانس ! هذا انا ، انا « أوريون » ياهانس ! احدقت في عينيه ، متفرسا في نظرته محاولا أن اثير لديه لمحة من الفهم والادراك ، ولكـن العجوز ظل يهز راسه .

« كان جميلا المنتزه ... انظر ، لم يبق منه سوى هذين الغربقين. كان متميزا ... في المساء ... كان يجب أن تراه ، ياسيدي ، كان يغص بالآنسات » .

كان العجوز يحدق في الفراغ ، مستندا على معوله . أمسكته من كتفيه ، وقلت له بصوت قوي :

« هانس ! انظر الي !.. أنا « أوريون » ، ابن « مورينا » . ولكنه دون شك لم يسمع سوى الكلمة الأخيرة من جملتي ، لأنه فتح عينيه منبهرتين .

« مورينا » ! أعرف جيدا كل شيء : كانت على الشرفة عندما سافر ، وكانت ترتدي ثوبا من الفرو . لم تقل شيئا ، ولا كلمة . تأمل ، ليس الصغير هوالذي أطلق النار ، انهم الآخرون ، النزلاء ، الخدم ، والفتيات . لقد اختارت البقاء مع السيد ، باه ! فهذا يمكن فهمه . وأنت تعرف ياسيدي ، فقد كان الصغير في السن التي يحتاج فيها للتربية » .

كانت دموع حمراء تحجب نظرات العجوز الشاردة .

صرخت به في وجهه مباشرة : « هانس !.. » ، فقال :

ــ يمكن أن أشنق ولن أقول شيئا . فقلت ملحا :

ــ ولكن أصغ إلي ، أنا ابنها ، ابنها » .

ظل رأس البستاني ساكنا نحو ربع ثانية . ثم عاد يهتز ثانية .

« بامكانهم أن يشنقوني ولكني لن اقول شيئا » .

شعرت باليأس فتوقفت عن الالحاح ، وكان العجوز قد نـزع سترته ، ووضعها بعناية على الأرض وأخذ يحفر الرمل ، حول العمود . وهو يقول : « يجب نزعه » .

ــ دلني على الأقل الى طريق الفندق .

ــ يجب نزعه .

كنت على استعداد للتخلي عن الموضوع لأن الخوف من أن تختفي الى الأبد عن هذه الأرض صورة « مورينا » حيث كانت ملكة ، كان يعصر قلبي . كان « هانس » قد قال أن لا أحدا يذكرها ، ولكن هو نفسه ، هل كان يحرص حقا على ألا ينسى سيدته ؟؟ لقد بدر منه رد فعل واضح عندما لفظت اسمها ، ولكن في الحال امحى هذا الاسم نفسه من ذهنه . وماذا كانت تعني ضحكة ذلك الصياد عندما تحدثت عن الكنيسة ؟ ان مدينة من مدن النزهة والمتعة لاتختفي في الهواء وتطير كقصر مـن الغبار . وأنا ، من كنت ، أنا الذي رفعت يدي على عشيق أمي ، بسبب التجاسر على الادعاء باخراج صورة امرأة منسية عمداً ، واستعادتهـا من العدم ؟

كنت أشعر أن اسم «مورينا» مرتبط بقوة باسم «أوريو ن ــ بلاج» . وأن « سول » اذا كان قـد سمح أن تختفي البيوت والشوارع ، فلم يكن ذلك الا لكي يختفي اسم أمي أيضا . لقد ماتت « مورينا » كما مات القطـار والكنيسة ومكسـر المحطـة . لقـد دفنت في باطن الأرض ، ولن أتوصل مطلقا لاعادتها الى سطحها . واذا كانت في الليلة الماضية قد اختارت أن تأتي اليّ ، وتشارك في الكابوس الذي انتابني ، فانهـا هنا ، لايمكن أن تجرؤ على القيام بذلك . وفساتينها ، قبعاتها المزينة بالريش ، ورداؤها المصنوع من القماش المتموج والمحلى بالبرق والترتر الذي كان يغلفها ويضفي عليها شكل وسمات الأفعى ، كلها كانت قددفنت أيضا معها . لم يبق لمورينا اي ديكور او اي أثر ، ومهما ناضلت ضد

وجه « سول هيريديا » الذي يحمل سمات الأشباح ، فان هذا الوجه سيحول دائما بين « مورينا » وبيني .

كان سيد « أوريون » يعلم أني أتيت ناويا قتله ، وهو لم يكن ذلك الرجل الذي يعترف بهزيمته ، ولا ذلك الذي يعلن عن عزمه على تصفيتي جسديا بواسطة أحد أعوانه . فأي عائق سيقيمه بعد الآن في طريقي ، وماهي المخاوف ومظاهر الرعب التي سيحيطني بها ؟

- ٧ -

كنت أمشي نحو السهم الذي دلني عليه الصياد دون ألتقي بأحد . كانت الطيور تبدو مترددة باقتفاء أثري ، وبعد قليل كنت مجبراً على الاعتراف بأن أحدا لم يخدعني ، لأني لدى وصولي امام واجهة أحد المنازل التي كانت تلوح لي عبر الكثبان الرملية ، استطعت أن أقرأ هاتين الكلمتين : « أوريون بالاس » (فندق أوريون) مكتوبتين بأحرف ضخمة سوداء على جدار متصدع .

ولم يكن قد بقي من ذلك البناء الفخم الذي كان مؤلفا من ثلاثة طوابق والمبني فوق مرج أخضر ، في نهاية ممشى تكتنفه أشجار النخيل الباسقة ، سوى سقيفة تعلوها قبة من التوتياء فوقها سهم . أما الحديقة الجميلة التي كانت أمي تتجول فيها حاملة مرشاً تسقي بمائه الزهور ، فلم يعد فيها سوى جذور ملتفة حول جذوع بعض الاشجار المتبقية ، وبعض سعف النخيل الممزّقة .

والشرفة الواسعة ، حيث كانت « مورينا » تتناول الشاي ، قد اختفت تماما وكنت مرغما ، من اجل الدخول الى الفندق ، أن أعبر من نافذة حولت الى باب للدخول . وبدلا من أن أجد نفسي ، لو كان الوضع طبيعيا ، بين جدران ردهة الفندق ، لاحظت أني كنت في ممر مدهون بالكلس الخشن يؤدي الى ما يشبه الباحة وقد علق الغسيل في وسطها وتصدرها أنبوب مدفأة .

انتابني بشدة احساس نتن بالبؤس والشقاء . فلا شيء مما كنت أبحث عنه يمكن ان يكون موجودا في مثل ذلك المكان . والحياة التي استبعدتُ منها كانت تتطلب اطارا يتصف بالترف والاناقة . والغرفة التي كان « سول هيريديا » يضاجع فيها الزائرات ، والتي كانت أمي تجلب له فيها الحلوى على صينيّة لم تعد موجودة هناك . كنت قد هربت من البشاعة لألقى من جديد بشاعة أخرى ، ربما كانت أشد اثارة القرف من الأولى ، لأن روحاً شرّيرة (وهذا مما لا شك فيه) كانت قد استبدلت فندق « مورينا » ببيت حقير يثير القرف والاشمئزاز .

صفّقت ، ولكن لم يجبني أحد . كانت الريح تلف من وقت لآخر كمّي قميص رجل حول خرقة مبللة وكان الصمت الذي يتلو ذلك طافحا بالسخرية . كان هنالك كراسي ملقاة في وسط الباحة ، ودراجة صغيرة ذات ثلاث عجلات ، ألقيت على قفاها ودواليبها مشرعة في الهواء ، بين صحون مازالت عالقة بها فضلات الطعام .

كنت على حافة اليأس ، عندما ارتفع صوت من داخل الفندق جعلني انتفض . كان هنالك أصابع مجهولة تعزف على البيانو ، نعم كان ذلك تماما : عزفا على البيانو . كانت المعزوفة رتيبة وصاخبة ، ولكني كنت مطمئنا . فهنالك كائن حي يسكن هذا البيت الحقير والمخيف : انه طفل دون شك ، لأن معزوفة « الفالس » التي كنت أسمعها ضعيفة الانتماء الى الموسيقا الحقيقية . ومقابل اي شيء في العالم ما كنت لأرغب أن ينقطع صوت كان يذكرني بحفلات الرقص التنكرية أو بدروس الرياضة البدنية . واذا كان الفندق قد مات بالفعل ، وكنت على استعداد لتقبّل ذلك ، فقد كان بقي عليّ أن أكشف جثته .

لكن ويا للأسف ، رغم تجوالي عدة مرات في باحة الدار ، ودخولي في جميع الممرات ، ودراستي كل دقائق السقف والأبواب ، فاني لم أجد أقل أثر لما كان يتكون منه في الماضي قصر « سول هيريديا » . فلم تبدُ لي أية شرفة ، ولا أية غرفة مفروشة بالحرير ، ولا شيء سوى الغرف

البائسة التي تثير الشفقة ، بينما كانت معزوفة « الفلاح المرح »تتابع سيرها ، كيفما كان ، كما لو كانت بذلك تبرز بؤسي وتؤكد عليه .

- ٨ -

كان التعب يبعث في نفسي المذلة والهوان ويمنعني من ان أدرك بدقة المكان الذي دخلت اليه ، وكان عليّ أن اظل ساكنا لا ابدي اية حركة لكي لا ينتابني الدوار .

وفجأة وبينما كنت أهم بالدخول الى أحد الممرات ، وليحدث بعد ذلك ما يحدث ، شممت رائحة عذبة تفوح من غرفة كان بابها مواربا ، ذكرتني بشيء معين . فتحت الباب فرأيت في الحال سريرا برونزيا كنت قد استلقيت عليه عندما كنت طفلاً اكثر من مرة ، في الليالي العاصفة . كانت الصور الفخمة التي كانت تزين مرآة الخزانة الكبيرة قد اختفت : صورة الجندي الذي صبغت له « ماري فوريه » شفتيه باللون الأحمر ، والصورة التي كانت تمثل راكب دراجة انيق وهي تجلس على ركبتيه .

لم يكن هنالك اي شك بأني كنت في جناح الخدم وأن ما كنت قد ظننتها باحة الفندق لم تكن بالحقيقة سوى السطح الذي كانت خادمات أمي تنشر عليه غسيل نزلاء الفندق . فكيف وصلت فجاة ومباشرة الى الطابق الثالث في الفندق في حين أني لم أستخدم مصعداً ولم أتسلق درجا أو شرفات ؟... كان كل ما اذكره اني أتيت مباشرة من الحديقة فاصطدمت بأنبوب مدفاة ورأيت بعض الشراشف والمناشف تتأرجحعلى حبل هناك .

وفي الخارج ، كانت الرمال تنتشر فوقها البراميل وصفائح التوتياء ولم يكن عليّ الا ان أمد يدي كي ألمس الأرض . كلب أشعث ، مبقع باللون الأصفر مر بمحاذاة الجدار وحدجني بنظرات حذرة . ومن جديد أخذ قميصي الذي لم يكن قد بقي منه سوى أجزاء ممزقة ،

يلتصق بجسمي . كان عليّ أن أدرك الحقيقة الواضحة : فالطابق الثاني والاول في فندق « ٬وريون بلاج » كانا قد اختفيا .

كانت أنغام البيانو مازالت تتردد في مكان ما ، كما لو كان ذلك يحدث لبعث الاطمئنان في نفسي . وبالفعل ، فاني بفضل ذلك نححت بالمحافظة على رباطة جأشي ، ولأني أصبحت واثقا عند ذلك بوجود درج يؤدي، الى الطابق الأرضي في ذلك البناء المتهدم ، فلم يطل بي الوقت رغم تعبي حتى اكتشفته وغامرت بالنزول عليه .

كان الوقت ظهرا على وجه التقريب ، ومع ذلك لم يكن النور كافيا. سرت في الظلمة لأن الفندق كان بكامله تقريبا مدفونا تحت الأرض ، هذا ان لم يكونوا قد أغلقوا الستائر بسبب شدة الحرارة . وعندما وصلت الى ما يجب ان يكون الطابق الثاني في الفندق ، عصفت بقلبي رائحة كرائحة المدافن والقبور . تابعت النزول متلمسا كالأعمى ، عندما وضعت يد غير منظورة على كتفي .

« ألم ترَ الكديش ؟

ــ عفوا ؟ »

كان الصوت مألوفا بالنسبة لي .

تابع قائلا : « أنه لأمر غريب ، يا سيدي ، ولكن عندما لا نريدها ، هذه الكدش ، فاننا نلتقي بها في كل مكان ، بالمئات ، بالألوف مصطفة كالجنود . وهي تنتظر أن ينجز بناء الفندق ، ولكن ذلك سيحتاج لوقت طويل . »

كان العجوز « هانس » يحمل حذاءه بيده . كنت قد عرفته عندما وقف تحت حزمة من الضوء تسللت من السقف . كان قدماه العاريان سوداوين من الرمال .

تابع بلهجة تنم عن الحزن :

« نعم ، لقد أتت الرياح على الفندق ، قبل ان يتمكنوا من وضعها .

اقترحت عليه قائلا : سأرافقك » .

ولكن البستاني استوقفني باشارة وقورة .

« اني اعرف هذه الأماكن ، يا سيدي » ، وسار مبتعدا عني . من المؤكد أن الحظ لم يكن بجانبي ، فهذا الرجل كان دون شك ، الوحيد في « أوربون » الذي يتذكر « مورينا » ، ولكنه كان مجنونا .

– ٩ –

في جوف البناء القديم والمهدم حيث كنت أجد نفسي محتجزا منذ اكثر من ساعة ، كانت معزوفة « الفلاح المرح » تتابع سيرها دون ملل . تصورت نفسي فجأة في سن العاشرة ، متنكرا في زي مهرج ، وحيدا ، اركض في هذه الممرات نفسها .

كانت وطأة الحر تزداد شدة وبينما كنت أسير كيفما اتفق ، شعرت فجأة باحساس جديد ، احساس بأن الفضاء يكتنفني . وتخلل ايقاع المعزوفة الالمانية الرتيبة رنين جرس خيل الي أني أعرفه . فقد كان هو الذي ينادي المستحمين المنتشرين على الشاطىء الرملي ويدعوهم لتناول وجبة دسمة . كان ذلك الرنين ينفذ بقوة من اعماق البيت .

ادار أحدهم مفتاح الكهرباء فاضاء نور النيون القاعة المغلقة النوافذ، التي تغص بالموائد المغطاة بالأغطية الوسخة . بدا لي زوجان يتبعهما سيل من الكائنات البشرية ، ذهب الجميع فجلسوا تحت المراوح . ووضعت شباك الصيد قرب الجدران . تعالت الضحكات ، وعملت الأمشاط على تحريك وتسريح الشعور المبللة . أحاطت بي مجموعة

كبيرة العدد كثيرة الضجيج والصخب بقدر ما هي كثيفة وشعرت بأنه لا جدوى من محاولتي الدفاع عن نفسي ، وأني لم يكن بامكاني عمل شيء حيال هذا السيل المتدفق من الأجسام المرحة ، وأني كنت أكبر ، وأعرض من أن أستطيع التملص والافلات من الغبطة التي تنعم بهـا عائلات عديدة .

الموائد ابتعدت عن بعضها ، وبعض الخدم اجتازوا القاعة وهـم يصرخون . أشعل احدهم مصابيح اضافية . اغمضت عينيّ . حدثت بعض الصفعـات ، والغمغمات ، وسحب مـن بودرة الرز . غرست الشوكات في جبال من المعجنات . وأخذت سكاكين المائدة تقطع شرائح اللحـم . ودار الجبن على النزلاء . كان الفـرح الذي لا حدود له ، ولا قصص أو مشـاكل ، الفرح العنيف يسبب الاحتقان في الوجوه . ثم حدثت طقطقة الفكّين القدسية ، وكان كل فكين مشبعين راضيين بما يمضغان ، تبع ذلك احتفال نكاشات الأسنان التي كانت تفتش الأفواه الدقيقة .

ولرغبتي بالبقاء منسـيا ، مكثت ملتصقا بالجدار . كانت تبلغ مسامعي نتف من أحاديثهم : هل رأيت الغريب ؟ ... شخص مهزوز ، غريب الأطوار ... كلا ، انه أحد أقرباء صاحب المحل ! ... أليس خطيب الصغيرة ؟ ... انه يشبه أحد ممثلي السينما ... انه مريض ، ألم تلاحظ ذلك ؟! ...

لم يكن هؤلاء الناس مخطئين ، فقد كان ينتابني الغثيان . ولم يسبق لي أبدا ، رغم تجربتي التي عانيتها في المدرسة الدينية الداخلية وعلى ظهر باخرة الشحن ، أن استطعت التكيف مع خليط مشوش من الناس . أمسكت بكتف سيدة بارزة البطن تحمل رضيعها على ركبتيها وانتزعتها من كرسيّها . عبرت بين ذلك الجمهور فوجدت نفسي دون أن أعرف لماذا ولا كيف ، على سطح البيت حيث كانت معلّقة سراويل وجرابات نزلاء الفندق .

في قاعة الرقص ، في قلب هذا الضريح بالذات ، حيث دفنت لتوي صورة أمي ، كان البيانو لا يزال يرسل أنغامه المدوّية بانتظام ، دون كلل أو ملل .

- ١٠ -

عندما استيقظت ، انتابني احساس بأني قد نمت عدة أيام دون أن أستيقظ او أسترد وعيي . كانت بعض القناني تملأ صينية موضوعة على مائدة ، وكان الجو مريحا في الغرفة التي كنت فيها . شعرت بالاسترخاء والراحة كما لو كنت خارجا لتوي من حمام دافيء مكثت فيه طويلا ، اغمضت عينيّ ثانية ، رغبة مني بالمحافظة على هذه الحالة من السبات التي كانت تتيح لي راحة البال وعدم التفكير بأي شيء ، وبخاصة لكوني ليس عليّ القيام بأي مجهود لمجابهة خيبات أمل جديدة. كان هنالك نور ضئيل يتسلل عبر شقوق درفات النوافذ المغلقة . استسلمت لعذوبة هذا الجو دون أن القي اية أسئلة . يدان ناعمتان اخذتا تتلمسان صدغيّ .

لقد زالت الحمى عنه .

ـ لحسن الحظ ، عليك أن تلقّنيه الدرس وأن تطرديه بعد ذلك .

عند ذلك ساد صمت تبعه صوت ملعقة تتحرك في فنجان .

عاد الصوت يقول :

« ستنصاعين لأوامري !

ـ كلا . »

استمر الصمت فترة طويلة بشكل مزعج ، هذه المرة . لم أكن ارغب أن افتح عينيّ لأني كنت أشعر تماما بأن هنالك من يترصدني واذا كان النوم قد حماني حتى الآن ، فان ذلك لن يدوم طويلا .

كان في صوت المرأة التي كانت تجس نبضي نبرة أقوى من أن يتحملها حسي وذوقي . حاولت تبيّن ملامحها عبر أهدابي ولكني كنت أشعر أن حارسيّ يترصدان حركاتي . ولا بد ان الرجل كان قلقا لأن اصابعه كانت تربت على مسند احد الكراسي .

وصاح قائلا : كيف استطعتِ ، بل كيف أمكن أن تكوني قد نمت مع هذا المتوحش ؟

ـ كنت أعرفه .

ـ كنت تعرفينه ! تقولين انك كنت تعرفينه ! وبدلا من مراقبته ، انصرفت الى العزف على البيانو !

ـ كنت أعرف أنه سيأتي .

ـ يا للقذارة الحقيرة ! »

وأرفقت الشتيمة بصفعة قوية ولكن المرأة لم يرفّ لها جفن . كانت ثقتها بنفسها تبدو مثيرة للغيظ . فماذا كان يعني هذا الحوار ؟ كنت منزعجا لعدم تمكني من تغيير وضعي لأني بدأت أشعر بآلام شديدة في جميع أعضائي . كان صوت الملعقة التي كانت تقرع جوانب وقاع الفنجان يمنعني من العودة للنوم . وكان يرهقني ويتعب أعصابي صوت المراة الدخيلة ، الجاف النبرات .

وفجأة ، وكما لو كان ذلك قد حدث من أجل وضع حد لصمت لا يطاق ، أغلق الباب بعنف وفي الحال توقف الصوت الذي كانت تحدثه الملعقة . كان احدهم قد خرج . ورغما عني فتّحت عينيّ .

كان رجل في الخمسين من عمره ، ذو وجه ضخم يعلوه النمش ، يقف أمام سريري ، وكان يرتدي بنطالا قصيرا وقميصا رصاصي اللون . سـألني :

« هل نمت جيدا ؟

ـ نعـم .

ـ هذا من حسن الحظ . »

ورغم النبرة الودية في صوته ، فقـد كان هنالك ما ينّسم بالخوف في موقفه .

سألته : « من انت ؟

ـ جيروم و . أدامس ، صاحب الفندق ، واني اريد منك ان تنهض وتغادر المكان بأسرع ما يمكن .

ـ هل باعك « سول هيريديا » الفندق ؟

ـ ولماذا لا يكون الأمر كذلك ؟؟

ـ يا لها من قضية غريبة ! فندق بلا مواصلات مع الخارج ، يجب تموينه عن طريق الشاطيء والنور فيه لا يزيد عن النور في أحد الأقبية!

ـ ان أسعاري معقولة .

ـ ولم يحاول أحـد أن ينسف لك السقيفة ، مـن أجل اعادة اصلاحهـا ؟

ابتسم محدّثي ابتسامة مغتصبة .

« أن ينسف لي السقيفة ! ان الناس غالبا ما يكونون حمقى ، ولكن نادرا ما يكونون مجانين . »

كان السيد « أدامس » ينظر الي بعين قرأت فيها شيئا من الشفقة علي لبرائتي وسلامة طويتي . ثم تابع بلهجة الأمر :

« يجب أن تسرع بالانصراف اذا كنت لا تريد أن تتعرض للمضايقات والمتاعب . »

وبما اني لم يبدُ علي اني سمعت ، وأني كنت أتقلب على الوسائد للعودة الى النوم ، فقد انحنى علي وهمس في أذني :

« اسمع ، أنا ليس لي اية مصلحة في جذب انتباه الناس على هذه « السقيفة » ، كما تقول . والأمور تسير على قدر الامكان وهذا يكفيني . فليس لدي طموح ولا مطامع . وامراتي راضية . فهي تجري الأحاديث مع البرجوازيات اللواتي يأتين من العاصمة . ولأننا نحسن التصرف ونعرف كيف نحافظ على وضعنا فان الناس يتركوننا وشأننا . وبعد الحرب ، كما تعلم ، حدثت بعض المظالم ، مظالم كثيرة حدثت في بلادي . أما فيما يتعلق بـ « هيريديا » ، فهو لا يحب الثرثارين . وقد تحدث الناس أكثرمما ينبغي . أما أنت ، فانك قادم من الخارج ، ولست مطلعا على الأمور . ويتحدثون هنا أن امرأة كانت فيما مضى تدير منزلا وتجتذب اليه الزبائن ، الكثير من الزبائن الأغنياء . وبالطبع لم يكن ذلك يشكل شيئا . فجميع الناس لهم الحق بالعيش وبتأمين معيشتهم . (هنا كان قد أخفض صوته) . يقال أيضا أنه هو الذي كان قد أسكن تلك الهندية الصغيرة التافهة في الفندق وأن رساميل ضخمة قد اختفت في أسرة الفتيات اللواتي كانت تأتي بهن لمساعدتها . ويقال أيضا أنه قد وقعت بعض الحوادث . أنت تفهمني ، أليس كذلك ؟ » .

كانت عينا « جيروم و أدامس » تتوهجان ببريق شره . كان قد أمسك ساعدي وأخذ يشد عليه بغضب شديد . وتابع قائلا :

« المرأة اختفت ، و « سول » أقام كثبانا أخرى بالقرب من هذا المكان . لقد كانت نذير شؤم كبقية العاهرات . ومنذ أن غادرت المكان سارت الأمـور هناك كما لو كانت ترعاها عنايـة الله . ولا يمكنك أن تعرف ، فقد أطلقوا عليه اسم « الشاطيء الأعجوبة » . ويؤمه كثير من الأغنياء والمترفين . والأراضي ترتفع أسعارها بشكل مستمر وزبائن هذه « السقيفة » يعتقدون أنهم يشاطرون الآخرين ، هم أيضا ، هذه الحياة المترفة ، وهم مسرورون بذلك . وكل يوم تبنى منازل جديدة على الكثبان المجاورة ، وهي لم تعـد كثبانا ، بل روابي وتلال . ويقال أنّ « سـول » سيقوم قريبـا بتدشين شاطئه الجديد ، واللافتات جاهزة ، فقد رأيتها » .

كانت عينا « مدير العمل » تتوهجان وترسلان الشرر وهو يتابع وصف الملكة المجاورة . كان فمه الصغير الذي يعلوه شارب أشقر ، يبدو كأنه يتذوق قطعة « كاتو » محشية بالقشدة الطازجة .

وتابع حديثه قائلا :

« لقد ملأ خزائنه بالذهب . وكل يوم يضيف الى « ديكور » قصره والى زينته شيئا جديدا : شرفة على النمط الاسباني ، تمثالا ، إنه متحف حقيقي . والناس يأتونه مـن كل مكان بقصد زيارته ، حتى السفراء . أخيرا ! إنك تدرك أنه والحالة أصبحت هكذا ، فلن يكون هنالك رغبة بدغدغة ذاكرة الناس وباثارة انتباه الزبائن على ماضي « أوريون بلاج » .

ــ وأنت ! هل يمكن أن أعرف لماذا تروي لي قصصا يفترض انه يجب نسيانها ؟

ـ انا ! ... ولكن ...

ـ بلى ، انت . وعليك أن تعترف أنّ قصص الأسرّة الملأى بالذهب هذه ، تثيرك ! اما بشأن الهندية الصغيرة والتافهة ، فأنا أنصحك ، إذا كنت راغبا بالعيش ، أن تهتم بما يعنيك وأن تدعها بسلام .

ـ وأنت قل لي ، بأي حق ؟

ـ بحقي انا . لأنك أنت ، لا أعرف فيما اذا كنت انكليزيا أم المانيا ، ولا ماذا تخفي ، فأنا لا أبالي بذلك ، ولكن ماضي « أوريون بلاج » ، انا الذي أعرفه وسأفعل به ما يحلو لي » .

كان الرجل قد تراجع قليلا . وضاقت حدقتا عينيه . ورفع اصبعه مهددا ، ثم قال :

« أيها السيد ، إنّ « أوريون بلاج » قد مات وسيظل ميتا » . كانت عيناه الآن صغيرتين حقا . وشعرت بأنه يمكن أن يقتلني بكل يسر وسرور لو كانت لديه الشجاعة على القيام بذلك . أرسلت تنهدة واستلقيت على ظهري . ثم سألته :

« هل هذه ابنتك التي خرجت للتو ؟ أم هي زوجتك ؟

ـ إنها ابنتي « فاليري » . وهي مخطوبة .

ـ برافو ! » .

عض الرجل على شفتيه : فقد كان تعجبي واستحساني يعبر عن الكثير من رأيي في تلك الخطوبة . ولاحظت أنّ لديه شيئا من سمات الثور ، بدت في طريقته باحناء رأسه . قلت :

« لا تخف ، فلست مسلحا .

إنّ ذاكرتك قوية ، وهذا أسوأ .

ـ هل أخطرك بذلك « سول » ؟

ـ كلا ، إنّ خطيب ابنتي هو الذي فعل ذلك .

ـ ولكني لا أعرفه .

ـ إنك قد رأيته في « لاس روزاس » ، إنه « كارميلو » : شاب طويل ذو وجه متطاول . وهو فتى طيب يهتم كثيرا بالتعساء وسيئي الحـظ » .

عبرت ذهني صورة الخيال ذي الوجه النحيف الذي تبعني حتى بلغت الكثبان الرملية .

« وقد وعدت « سول » بترحيلي في هذا اليوم بالذات ؟

ـ بالضبط » .

كنت قد انتصبت على السرير . ووجهي الذي كان يغمره النور المتسلل من شقوق النافذة ، لا بد أنه كان متألقا . لقد كان هذا الرجل يخاف مني . قلت :

« هيا ، انصرف ! فتراجع الرجل ، كررت قولي ملحا : « هيا ، انصرف في الحال ! » .

ـ سيقضي عليك « سول »

ـ سنرى جيدا .

تابع « أدامس » قائلا : سيحظى بك ، سوف يلاحقك كظلك ، فهو ماهر بهذا العمل ، وسوف ترى ، سيجعلك ضعيفا جدا . بحيث تفقد الرغبة بالعيش . دون أن تعرف فيما اذا كنت موجودا على قيد الحيـاة ولا في أي عالم أنت . وستركع أمامه ، وتقبل حـذاءه » . كان هذا الرجـل الضخم قد تراجع حتى التصق بالجدار ، وتمتم قاءلا : « إني أحيا حياة هادئة .. وابنتي ستتزوج عما قريب » .

كنت أرقبه بكل سرور وهو يفقد ثقته بنفسه . لقد كان هـذا الرجل الضخم عبدا لدى « سول هيريديا » ذلك الساحر المشهور الذي كان يجعل القصور تبنى وتتعالى كما تنبت وتنمو أشجار الكينا .

فتح الباب ودخلت فتاة ترتدي ثوبا وردي اللون وتحمل صينية ملأى بالفاكهة . وعندما رآها السيد « أدامس » هـز كتفيه وغادر الغرفـة .

كانت القادمة الجديدة صغيرة القامة وقد تذكرت ، بالفعل ، أني لمحتها في صالون الموسيقا يوم وصولي حيث بدت لي عذبة مثل كأس من عصير البرتقال . تفحصنا بعضنا بالنظرات ، وكانت قد اقتربت والتصقت بي . ثم ضممتها إليّ وأخذنا نتدحرج بين الكراسي . لم أكن احتفظ من ذلك العناق بسوى ذكرى فظة . وكان عليّ أن أصرخ بكل قواي ، دون أن اعرف إن كان ذلك بدافع اللذة والسرور أم بدافع من الغضب . ولكن الناس تراكضوا عند ذلك .

والآن ، ها هي « فاليري » موجودة أمامي ، منهمكة برفع المخدات تحت رأسي . رأيتها تسكب سائلا في كأس وتسحب الستائر . وفي لحظة معينة توقفت وحدجتني بنظرة حادة .

« لماذا كنت في السجن ؟ » .

فتحت عيني مندهشا . فقد ألقى عليّ « سول » السؤال نفسه . تابعت وهي تقدم لي كأسا من الماء اذابت فيه قرصا :

« سمعتك وانت تهذي . وأنا أعرف عن قصتك اكثر مما تعرف أنت » .

لم أجب . فلم تكن لديّ أية رغبة بمناقشة هذه الفتاة التي كانت راحتا يديها غليظتين والتي ربما لم تكن مخطئة فيما يتعلق بموضوع السجن . فلا شك أني لم أكن قد خرجت مطلقا من الزنزانة التي سجنتني فيها أمي . ولكن ... كيف كانت تعرف ذلك وأين كانت الجدران التي كانت تحتجزني ؟ ومن جهة أخرى ، كيف يمكن الخروج من مكان لا تُعرف حدوده ؟ ...

كانت جديلة داكنة تتدلى على كتف زائرتي . وكان أنفها الصغير الأفطس قليلا ، يبدو جانبا منخريه كثيري الحركة ، وكانت بشرتها شقراء وملساء . حاولت عبثا أن أتذكر ماذا شعرت عندما عانقتها .

وقالت : « يجب أن تنصرف ، فقد شفيت .

ــ ولماذا اعتنيت بي وعالجتيني ؟

ــ لقد سعدت بممارسة الحب معك ، فلماذا اذن لا أعتني بك واعالجك » ؟

كانت ، طيلة الوقت ، تحدق بي .

« هل انت معتادة على الاستسلام هكذا الى الغرباء ؟

ــ إنّ الرجل الذي يحظى بالاعجاب من أول نظرة ليس غريبا .

ــ حقـا ؟

ـ إنه الرجل الذي ننتظره ونعرفه . وتابعت : وعلاوة على ذلك فقد راقبتك على الشاطيء ، عندما كنت مستسلما للنوم ، لقد كنت شبيها بالقارب .

ـ شبيها بالقارب ؟

ـ نعم ، وبقارب فارغ .

فقلت لها : تابعي » .

ولكنها كانت قد توقفت .

ثم قالت بلهجة الأمر :

« انهض ، يجب أن ترحل » .

كم كنت أود أن أضمها إليّ ثانية لأني لم أكن أتذكر شيئا عن جسمها . كان ردفاها يغرياني ، وصدرها ايضا . لا بد أنّ فمها من الداخل كان حلو المذاق ولكني لم يسبق لي أبدا أن قدرت هذا النوع من الفتيات حق قدره . نهضت وأنا أنوي لمسها فسقطت ثانية في الفراش واستسلمت دون رغبة مني الى الحلم الذي كنت معتادا عليه والذي لم يكن يتطلب مني بذل أي مجهود .

صرخت حارستي وهي تضع يدها على غطاء السرير :

« كلا ! إنك لن تعود للنوم من جديد . لقد انقضت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ وأنا أسمع الأحاديث عنها . وهذا يكفيني .

ـ عنها ؟

ـ إنك تعلم تماما ما أعني ، وهذا يثير القرف في نفسي .

فأنا انام مع من أريد ولكني أنام مع رجال ، وليس مع أشباح . »

كانت الضربة قاسية وشرسة .

صاحت بأعلى صوتها : « دعها وشأنها بسلام ، تلك الميتة ، فالأمر يثير القرف . »

كان لدي انطباع بأني اتعرض لعملية لن أعود منها ، وكان يستحيل عليّ الدفاع عن نفسي . وكما هي العادة ، بقيت ساكناً حيال التتيمة والاهانـــة .

تابعت : « أصغ إليّ جيدا ، لا يجوز أن تستمر على هذا الشكل . فالحلم جميل ولكنه ملاذ المنزويين والانطوائيين . والنســـاء لا يكرهن الضعفاء شريطة أن يستطعن استخدامهم ووضعهم تحت تصرفهن . ولكن الضعفاء من أمثالك ، الذين يريدون الهرب ، ليس لهم دور يقومون به . انهم بالكاد يُعتبرون كبعض الأشياء أو الأغراض ، التي لا تصلح لشيء ، ولا يعتبرون رجالا . أعرف أنك اشتركت في الحرب ، واعرف أيضا أنك تزوجت . بل واعتقد أنك كنت تملك مكتبا في مكان ما وأنه كان لديك بعض المستخدمين . ولكن كل هذا لم يعد ينعم بالحياة أكثر من مدرسة اللاهوت الداخلية التي قضيت فيها عاما كاملا . وقد عملت كل ما يمكن عمله دون أن تتواجد أبدا هنا . »

بدرت مني ابتسامة لاهية بالرغم مما كنت أعاني من ملل وتعب .

تابعت الكلام : « اني أقول « دون أن تتواجد هنا » لأني يمكن أن اقسم أنك شخص يأوي الى فراشه لينام حالما تحدث له بعض المتاعب ، ويفضل أن يحلم بامرأة على أن يحبها ، لأن ذلك لا يلزمه بشيء . نعم ، فالحب يسبب الآلام ويكلّف غالياً . »

كانت « فاليري » تقف بجانب سريري ، يداها متشبثتان بقضبانه النحاسية ، وعيناها تحدقان بعينيّ .

« اعتقد أيضا أني أدركت أنك موجود هنا لتلتقي بأحدهم لأنك تنوي أن تنتقم من ذلك الذي منعك من أن تكون سعيدا، حسنا ،... حسنا... اذا اردت أن تصبح رجلاً قبل أن تضرب ضربتك ، ابدأ اولاً بالخروج من اسار تلك المرأة الميتة التي تتحدث عنها ! »

كانت الضربة الأولى التي وجهتها لي قد سببت لي ألماً حاداً في صدري . وأتت هذه الضربة فزادت من حدة ذلك الألم . كنت قد أغمضت عينيّ ، وفي لمح البصر ، تخيلت « مورينا » في اليوم الذي طردني فيه « سول » من المنزل ، وكان ذلك عندما كنا على شرفة الفندق . فهي لم تقل شيئاً ، ولم تبدِ اية حركة لمنعه من تدميري . لم أكن أستطيع أن انسى بريق عينيها الواسعتين والداكنتين ، المنبعث من خلال جفنيها المسدلين . كان صوت حارستي يتابع حديثه وكنت اكاد لا أسمعه . ومع ذلك فقد لفتت انتباهي هذه الجملة :

« لا ينبغي ، كلا ، لا ينبغي ممارسة الحب مع أشباح . »

كانت اللهجة اكثر رقة مما كانت عليه قبل قليل . وكانت الفتاة قد اقتربت مني وانحنت على فمي . ثم تابعت تقول :

« يا للعجب ، انك عندما ضاجعتني ، ذلك اليوم ، في الصالون ، كنت تحشرج وتهذي ، أليس كذلك ؟ وكنت تبدو انك تدخل بي وكأن ليس لي قرار وانك لا تريد أبدا أن تخرج مني وتطفو على سطحي . ولكنك عندما كنت تضمني اليك ، وتحولني الى حصاة ، الى كتلة من التراب ، أي اسم كنت تطلق علي ، وبأي اسم كنت تناديني ؟ نعم ، بأي اسم ؟ »

كانت قريبة جدا مني بحيث كنت أرى نهديها مشدودين ومنضمين تحت صدارتها . وكانت حلمتاهما المنتصبتان تلامسان صدري .

وتابعت تقول : « لقد تجولتَ في كل مكان ، ونبذت جميع النساء بعد أن استخدمتهن ، لأن أي واحدة منهن لم تكن تتمتع بعذوبة تلك تلك المرأة . ولم يكن لأيٍّ منهن قوامها ولا عينيها ولا رائحة جسدها . أليس كذلك ؟ لقد كرهتهنَ لأنهن أحببنك ، ونقمتَ عليهن ، ولم تسمح لنفسك مطلقا أن تحظى بالسعادة خشية أن يسرَّهنّ ذلك . وأيضا لأنك كنت متأكدا أن الأخرى كانت تنتظرك على شرفتها في كفنها الجميل . أصغ الي جيدا ! ان تلك ليست لك ، فهي له ان كانت ميتة أو حية ، وهي انما تنتظره ، هو . يجب أن تقتنع بذلك . (كانت أنفاس الفتاة تتردد بسرعة .) عليك أن تطيعني ، وأعدك بأني سأجعلك تنسى الموتى . فالموتى ليسوا سوى عظاما ، وديدانا ، وليسوا شيئا آخر . »

كنت قد ألقيت رأسي ثانية على المخدة . وكان صوت تلك الفتاة الذي كان يتحول من التأكيد التعليمي الى نوع من الحماسة الطفولية يبدو لي شديد العذوبة .

قلت :

« خذيني الى البحر ! اني بحاجة للماء . »

كانت زائرتي قد ادخلت ذراعها تحت عنقي كي تساعدني على النهوض . كانت رائحة الصابون تفوح من نهديها . أمسكتهما ، ولكنهما أفلتا مني . بعد ذلك وبينما كنت أحدق بهما ، عادا إليَّ من جديد . وبعد معركة غير متكافئة ، لأني كنت لا أزال خائر القوى ، نجحت أخيرا بالاحتفاظ بهما وبضغطهما بشدة على فمي . وبحركة سريعة ، ابتعدت الفتاة عني .

وامرتني قائلة :

« انهض ! اني سأجد لك مسكنا حقيقيا . »

« في هذه اللحظة أنت تمشي عليه ، يا سيد « أوريون » ، أعني على ارض منتزهك التي تمتد حتى مكسر المرفأ .

سألت العجوز « هانس » الذي كنت قد التقيت به خلف الفندق ، حيث كان يبدو أنه ينتظر احدا هناك :

ــ كيف حدث ذلك ؟

ــ تقصد كيف حدثت الكارثة ؟

كنت اريد أن أعرف كيف استطاعت الرياح أن تأتي على القرية بكاملها وتزيلها من الوجود .

ــ آه ! يا سيدي ، أنت لا تعرف شيئا عن الاعصار . فهو لا يعلن عن قدومه ، ولا أحد يشعر بشيء يدل على قرب حدوثه ، وكل ما هنالك أن الحرارة لا تكاد ترتفع قليلا ، أو بالأحرى ترتفع وطأة الضغط ، بحيث يكاد المرء يشعر بنقص في كمية الهواء التي يحتاجها ، بينما تبقى السماء هادئة وصافية ، وتسمع اصوات كقهقهة الضحكات ، ضحكات قوية تسمع دائما وباستمرار ثم ينفجر الاعصار . »

كانت عينا العجوز تشعان من خلال اهدابه ، وحاجبيه الكثيفين ، لم يكن قد بقي كبير شيء من هذا الرجل الذي كان قد تلقى ضربة سكين من يد أحد الهنود والذي كان قد عمل في مقاومة الرمال المتحركة الى جانب « سول » .

تابع حديثه ، قائلا بصوت أجش :

« كان ذلك في عام ١٩٢٦ ، ومنذ ذلك الحين ، حدث اعصاران ، ولكن ذلك الاعصار ، الحقيقي ، الابيض ، فانه لم يرجع . وعندما يرجع ، سوف ترى كيف أنه لن يبقي على شيء هنا ، حتى ولا القبة ولا السهم .

صحت بأعلى صوتي .

ــ ولكن هذا غير معقول ، يا هانس ! كيف أمكن الا يحاول أحد نبش البيوت والكنيسة واخراجها من تحت التراب ؟ »

احنى العجوز « هانس » راسه ، وقال بصوت ضعيف :

« وكما تعلم فان ذلك ليس مؤكدا تماما .

ــ وما هو ؟

ــ بأنه قد كان هنالك بيوت . أما بشأن الكنيسة ، فلم يعد أحد يتذكرها سواك .

ــ سواي ؟.

مكثت ساكتا . فالكنيسة الكبيرة المبنية من الآجر الأبيض ظلت تشكل لدي هاجساً طيلة عشرين عاما . وكان الخوري ، الأب « ايسبادا » يمنع قطع نباتات القصب والخيزران التي كانت تحيط بها والتي كان العشاق يلتقون ويتعانقون بينها . وكان يقول مؤكدا : « انها مسؤليتي » . كنت اتخيل كنيستي وقد اكتنفها ضباب يتخلله الضياء . وقامة أمي النحيلة تعبر بهدوء بين شموع ومشاعل قاعة الكنيسة .

صرخت بأعلى صوتي :

« هانس ! انا لست مغفلا . فاعصارك الذي تتحدث عنه لم يكتف بدفن نصف الفندق ، فقد ذهب بشيء آخر زيادة على ذلك ، اذ انك تحدثت عن كارثة .

ـ أوه نعم ، أوه نعم ... لقد ذهب بالبيوت الخشبية ، ولكن البيوت الاسمنتية الجميلة التي كانت تزينها الزهور ، هذه البيوت ، كانت الرمال هي التي طمرتها . فالرمال ، ياسيد « أوريون » ، عندما تعصف الرياح ، أنت لاتعرفها ، ولا تعرف ماذا تستطيع أن تفعل ! ثم مازالت هنالك الكنيسة الأخرى : كنيسة المجنون » .

كنت قد امسكت ذراع الخادم العجوز وأخذت أشد عليه بقوة وغضب .

« ماهو المبلغ الذي يدفعونه لك لكي تلفق هذه الأكاذيب ؟

فذلك اليوم ، عندما وصلت أنا الى هنا كنت تتصنع الجنون . وماهي كنيستك « الأخرى » التي تتحدث عنها ؟ »

التفت الى ناحية اخرى ، وقال :

« اني لا اكذب ، ياسيد « أوريون » . ولكن الذاكرة تضعف لدى من هم في مثل سني . وعلى سبيل المثال ، هل أعلم فيما اذا كنت اعرفك ، وحسب ؟ فقد كان يوجد هنا فتى فيما مضى ، هذا صحيح ، وكان ابن السيدة . لم يكن بدينا ، ولم يكن يلعب أبداً مع الأطفال الآخرين ، فيما عدا « أوليفييه » ، بائع البوظة الصغير . وكان يعاني في الليل من نوبات متكررة . فكانت السيدة تركض في ممرات المنزل لتغلي الماء . أما الفتى فكان يستمر في الصراخ . ولكن هل أعرف فيما اذا كان ذلك الفتى هو أنت ؟ »

فقدت عزيمتي وانتابني اليأس ، فتركت ذراع العجوز ، فعاد الى عمله في تنزيل حمولة احدى العربات ، المكونة من المؤن والمواد الغذائية التي كانت تنقلها من شواطيء « الجنوب » .

سرت بضع خطوات باتجاه البحر ، كانت الساعة تقارب الثامنة مساء . تصاعدت موجة ضخمة نحوي وتبددت حول قدمي . كانت المياه شديدة الزرقة ، انحنيت على الشاطىء كي المسها . كان «هانس» يكذب ، وكذلك الصيدلي كان يكذب والخوري الذي تبعته بالأمس على الشاطىء كان يكذب أيضا . فالأمر الذي كان يبدو أن الجميع يريدون احترامه والتقيد به هو التأكيد بأن « أوريون ــ بلاج » لم يكن لها على الاطلاق أي وجود كمصيف ، وأن فندقها لم يكن سوى نزلاً غير مكتمل البناء ومغطى بكامله تقريبا بالرمال على أثر اعصار دون أن تنشأ أية قرية حول ذلك البناء الذي بني على كثبان رملية غير ثابتة .

كانت يداي تلعبان بزبد المياه وتحفران الرمل . اصطدمت أصابعي بمقاومة احدى الأصداف . تابعتها الى أن امسكتها بكل قواي لكي امنعها من الغوص في البحر . كان هنالك من يراقبني . كان ذلك هو « هانس » الذي عاد نحوي . لماذا كان « سول » يستخدم هذا العجوز الذي بلغ الثمانين من العمر على أقل تقدير ؟ لامستني خيول العربة عند مرورها بقربي . وذكرني رنين أجراسها باستيقاظنا في زمن مضى : « مورينا » مرتدية فستانا من الكتان ، واقفة تحت أشعة الشمس ، تتلقى بعض باقات النرجس من يدي أحد الفلاحين . كلا ! لم يكن بامكاني تصديق الرواية التي كانوا يحاولون فرضها على ذهني . فاذا كنت حقا قد أمضيت طفولتي دون الذهاب الى المدرسة ودون أن يكون لي رفاق في مثل سني ، فليس معنى ذلك أني لم اكبر وأترعرع في قرية حقيقية ، بين بيوت حقيقية ، وكنت اتخيل نفسي وأنا أقوم بسرقة « عرق السوس » من عند السمان ، ومنصرف الى تأمل النساء الواقفات أمام الحوانيت !

صرخت بأعلى صوتي وأنا التفت نحو الرجل المسن الذي كان يقف ورائي : « هانس ! كيف يمكنك انكار وجود الكنيسة ؟ فأنا أذكر تماما اني حضرت فيها القداس اكثر من مرة .

ـ ايه ! الجميع يذكرون انهم قد حضروا القداس ذات يوم ، فالكنيسة هنا ، هي لاشيء ، فهي سقيفة عفنة في داخلها أناس عفنون . رجل مسن بثوبه العتيق وايقوناته القديمة على المذبح . لم يعد هنالك سوى عبوات المعلبات وزجاجات الخمر الفارغة .

تمتمت قائلا :

ـ اذن ، اذا كان الأمر هكذا ، واذا كنت على صواب فيما تقول ، فماذا أصنع انا في هذا البلد ؟

لابد ان نظراتي كانت مخيفة ، لأن « هانس » أطرق في الأرض ، وأبدى حركة تنم عن الجهل . كان الهواء في ذلك المساء ساكنا ، وأمواج البحر تقترب مني ، انتزعت حفنة من الرمل وفركت بها خدي بغضب شديد .

قال العجوز وهو يشد على ذراعي بأصابع كانت قد فارقتها الروح أو كادت :

« لاينبغي ، ياسيد « أوريون » ، لا ينبغي أن تفعل ذلك ، فأنا أصدقك ، نعم انني اصدقك » .

ـ ١٢ ـ

بعد أن أخضعت خادم أمي الى استجواب مطول ، استجوبت سكانا آخرين من أهالي « أوريون » بعد أن تبعتهم عبر الكثبان الرملية . وهكذا فقد تحولت شيئا فشيئا الى شخص مهووس ، يتهرب منه الناس . كانت لحيتي ، عيناي الغائرتان في محاجرهما ، والتجاعيد حول فمي ، كل ذلك يجعل وجهي مخيفا .

وذات مساء ، أثناء ذلك ، بينما كنت أسير بمحاذاة الشاطىء ، وأنا أدفع بقدمي موجات الماء الضعيفة ، اقترب مني شابان يحملان أدوات الصيد . وسألني احدهما بتعال :

« أحقا ما يقال؟ ــ هزيت رأسي وقد اعترتني الدهشة ــ أنك الـ . . .

ــ الـ . . . مـاذا ؟

ــ الـ . . .

ــ هيا ، قلهـا ! »

بلع الشـاب ريقـه .

« العين الشريرة . »

كان قد أطبق فمه ، وكانت عيناه متوهجتين كما لو أنه كان قـد تجاسر على تحدي الشيطان . كان رفيقه يقف متمسكا بذراعه منتظرا جوابي وهو يرتعـد .

قلت : « نعم ، لم يكذبوا عليكما ، أنا العين الشريرة . » صمت مطبق أحاط بنا نحن الثلاثة . لاحظت أن الشابين اللذين اعترضا سبيلي كانا بنفس القد ولهما العينان الزرقاوان نفساهما اللتان لا تعبران عن أية فكرة . لم يتحركا ، ثم بانطلاقة مفاجئة ، اندفعا هاربين بأقصى سرعـة .

كانت الشمس تنصب كبقعة الدم القرمزية على بحر هادىء ، لم تعد مياهه تتموج الا على دفعات مفاجئة . ماذا اتيت أصنع في منطقـة لم يكن فيها شيء ولا أحد يجرؤ على التعرف عليّ ؟ وماذا كنت آمل من اناس أضاع صوابهم وعقلهم الخـوف من سـيدهم أو اعجابهم بـه ؟

و « أوليفييه » ، صديقي الوحيد ، لم يكن على رصيف المحطة عند وصولي الى « بوينوس ايريس » . وقيل لي بعد ذلك : « لقد مات قطارك الذي تتحدث عنه » ولم يعد الناس يقتربون مني الا وهم يسيرون بخطوات بطيئة ومترددة كأنهم أشباح كل قصدهم دفعي الى الهرب .

ومع ذلك ، رغم المساوىء المختلفة لهذا الوضع ، فقد كان من الممكن أن أعيش حياة تكاد تكون رغيدة في الكوخ الذي أسكنتني فيه « فاليري » قرب الحدود . لأنه كان بالنسبة لي مكانا زاخرا بالذكريات لكن ، ويا للأسف ! فان الميل الذي شعرت به نحو الفتاة كان قد تبدد ، ولم يكن يعاودني الا بصورة متقطعة وتبعاً لبعض الظروف . كانت نوبات الحمى تعاودني ، وكنت أعاني من ضعف شديد دون أن أكنّ أدنى حب لأنقاض ماض ظل يغذي حياتي طيلة عشرين سنة ، ولكني بدأت الآن أشك فيه . كان الخوف من أن أرى نفسي وقد فقدت مبرر العيش والبقاء على قيد الحياة ، هذا الخوف وحده ، هو الذي كان يرغمني على متابعة تحقيق ، كنت أقوم بتنفيذه بمزيد من الهمة والنشاط . والشكل المادي للكنيسة الذي كنت اعتقد اني ما زلت أذكره ، بدأ يفوتني ويغرب عن بالي . ولم أعد أستطيع تحديد موقعها في القرية ، مثلها في ذلك مثل البقالية ، ولم أكن احتفظ من خدماتها وقداديسها سوى طعم الخبز المقدس الحلو ورائحة الشمع . وبالتأكيد فاني قد بحثت كثيرا حولي عن آثار « مورينا » ، ولكني لم أعثر لها على أي اثر .

لم يعد فندق « أوريون ـ بلاج » ، بقبته وحدائقه المقفرة ، يشكل سوى منظرا محزنا امام اعين الزوار ، أما قطعتا الحجارة اللتان كانتا عمودي المنتزه ، فلم يعد فيهما شيء من ابهة الماضي ، وعندما يحدث أن ألمسهما لدى مروري ، فانما يكون ذلك دائما بدافع من الشفقة .

ومع ذلك ، فقد عزمت على متابعة اكاذيب « سول » حتى النهاية ، تلك الاكاذيب التي حاكها حولي والتي تهدد بخنقي . فقد كان كلام

صاحب الفندق واضحا وصريحا : « خذ حذرك ، انه سيحظى بك ! »
كان هنالك سؤال يراود ذهني : لماذا بنى « سول » مدينته الجديدة بجانب المدينة التي كان يرغب نسيانها ؟

رغم فترات التعب المتعددة التي كانت تحتجزني في سريري المتواضع ، فاني لم أكن أهذي . كان رنين أجراس عربة « الجنوب » التي كانت تمر مرتين كل يوم قرب كوخي ، يحدث ضغوطا مثيرة على أعصابي . ولكن لا الضعف ولا الاثارة توصلا الى دفعي في متاهات الأسطورة . لقد كانت تساورني الشكوك ، وكنت أتارجح بين فرضية واخرى ولكني كنت واضح الرؤية ، نافذ البصيرة . ومع فقدان ماضيّ الحقيقة مكوناته ، كانت كراهيتي ، على عكس ذلك ، تتأكد وتتثبت . لم أعد أحقد على « سول » لانه طردني ، بل بسبب جريمة أشد خطورة ، هي جريمة تدميره صورة « مورينا » في أذهان الجميع .

ثم استيقظت ذات يوم وأنا أتساءل فجأة فيما اذا كانت «مورينا» قد ماتت فعلا ، واذا لم تكن قسوة « هيريديا » قد دفعته الى اخفائها في مكان ما فتصبح بذلك كأنها مدفونة وهي حية !.. وما هي تلك القصة عن الحيوان العفن الذي يرتدي اللباس الكهنوتي الذي تحدث عنه « هانس » ؟ ... فانا لم يسبق لي مطلقا أن رأيته .

- ١٣ -

لم أرجع الى الفندق ، وكانت رؤية البرجوازيين الذين تمتعوا بأشعة الشمس ، وهم عائدون من الشاطىء الرملي ، وعلى رؤوسهم قبعات من القماش ، تثير الاشمئزاز والقرف في نفسي ، كما أن فكرة الالتقاء ب « جيروم و . آدامس » لم يكن فيها ما يغري .

وشيئاً فشيئاً أصبحت الكثبان الرملية مرتعي الوحيد . فقد كنت أجوبها ليلا ، وعند الظهيرة أيضا ، وقد اعترتني الدهشة لشعوري بأني كنت أمشي كما لو كنت حياً .

وكان يحدث لي أن أظن أنه ربما لم يكن لروائع « أوريون — بلاج » اي وجود الا في مخيلتي عندما كنت طفلا جريحا وفي مخيلة مجنون كالعجوز « هانس » . ولو كان الامر كذلك ، فلم يكن بامكان «مورينا» ان تكون شيئا آخر ، في الواقع ، سوى هندية صغيرة تافهة لا تساوي شيئا ، ولكن هذه الفكرة كانت لا تطاق ولا يمكنني تقبلها . كنت قد تقبلت انحطاطها الأخلاقي ، اهمالها وزهدها ، ولكني لن أستطيع مطلقا انا الذي كنت قد وضعتها في موقع رفيع ، محاطة بكل المفاتن ، ان أقبل تصورها بملامح أمرأة سوقية ومبتذلة .

كانت كراهيتي تشتد يوما بعد يوم ، واخذت تصبح مادة حارقة . وبعد قليل ، كان يصبح مستحيلا بالنسبة لي تصور شكل وجه أمي ، على سماء تزداد حركةً واهتزازاً . كانت سلطة عدوي على ارادتي قد بلغت حدا جعلت معه ، رغم كل جهودي ، شبح « مورينا » يتفتت وينهار ، دون ان يبدو لي بعد ذلك الا بالشكل المخيب للآمال ، والمتمثل بفستان فارغ .

— ١٤ —

كان الكوخ الذي اسكنتني فيه « فاليري » مبنيا على أعمدة . وكانت صورة كبيرة لـ « سول هيريديا » تشكل زينته الوحيدة . كانت الجدران المكونة من جذوع الأكاسيا تسمح بمرور الهواء البارد ، وكنت اشعر دائما ، في الليالي العاصفة ، أني اعيش في وسط البحر ، تحت رحمة اول نقطة يقذفني بها .

ولشدة انطوائي في عزلتي ، كالناسك المنزوي في صومعته ، ولكوني كنت ابعث الخوف في قلوب المصطافين حالما كنت اظهر على قمة أحد الكثبان الرملية ، فقد انتهى بي الأمر الى عدم محاولة اقامة اية علاقة مع أي كان ولم يطل بي الوقت حتى اكتشفت وقد انتابتني

الدهشة ، أن للعزلة ميزاتها وثراءها . كانت الذكريات الأوربية تبتعد عن ذاكرتي ، الفقر ، الشوارع ، صفرة الوجوه . كانت أهوال العالم تتلاشى دفعة واحدة أمام احمرار السماء ليلاً ، ورجع أمواج البحر الدؤوب . وكان الفضاء المعطر يشرح صدري . واذا كانت ذكرى « مورينا » أخذت تفوتني لكي تعود فتصبح كلمة دون لب أو كيان ، فقد كان هنالك بالمقابل قوة مجهولة تجتاحني : تلك قوة الاغذية المطهرة التي تجردك من كل شيء وتبعث فيك التعجب والذهول .

لم تكن « فاليري آدامس » تتركني أحتاج شيئا . كانت قليلة الكلام وكانت تحرص بشكل خاص على تأمين طعامي وعلى نظافة ملابسي وكل يوم كانت تأتيني بقميص مكوي تفوح منه رائحة عطر الخزامى . لم أكن ألقي عليها اية أسئلة لا عن علاقاتها العائلية ، ولا عن خطيبها الذي حدثني عنه والدها ، والذي ، على ما يبدو ، كنت قد التقيت به في المحطة . كنت أقبل ضيافة عشيقتي دون أن أبدي لها أي امتنان ورغم فتور الحرارة التي كانت تسود علاقاتنا ، فقد كنت واثقاً على الدوام اني سأجد الفتاة مستلقية على سريري عندما أعود الى كوخي .

كنت اقترب منها دون استعجال . كان جسمها المخملي رائعا . وحالما كنت اقترب من السرير ، كانت تمسك بي وتجذبني نحوها .

وسألتني ذات مساء : « أنت تكره النساء ، أليس كذلك ؟ » ، ومرة أخرى ، عندما سألتها عن رأيها بـ « سول » ، أجابتني بحماسة : « انه زعيـم . »

ـ زعيم يضحي بالجميع في سبيل مجده الخاص .

ـ لماذا ؟ هل تعتقد أن الأمر لا يحتاج لمزيد من الشجاعة لكي يكون المرء غالبا ومنتصرا بدلا من أن يكون ضحية ؟ وهل تعتقد انه ليس هنالك بعض الراحة في الفقر ؟

ـ وهل تسمّين عدم الدقة وغياب الوازع الأخلاقي ، شجاعة ؟

ـ اذا أردت ذلك .

كانت تتحداني بعينيها الصغيرتين الداكنتين المغروستين في وجهها كأنهما حربتين .

« النساء لا يعبدن الا" هذا النوع من الرجال .

ـ لأنهن يعتقدن معرفة نقطة الضعف لدى هؤلاء الرجال ، دون شك . هذه النقطة التي تكاد تسبب ضياعهم ، أو لأنهن يتصورون أن لديهن القدرة على انقاذهم ؟. »

كان صوتي قبيحا ومزعجا ، وكنت اسمعه كما لو كان لا يخرج من حلقي بل من حلق شخص مسكين مستقر في داخلي .

اقتصرت اجابة رفيقتي على قولها : « ان « سول » ليس في وضع يحتاج معه الى انقاذ . »

كانت « فاليري » تدهشني ببرودة اجاباتها وردودها . وكنت اتساءل اين وكيف اكتسبت رباطة جاشها وحدّة ذهنها وكنت انزعج من شعوري بالتأثر والانفعال عندما كان فخذاها يلتفان حول خصري ، وفمها يلتصق بصيدري . لم يكن يبدو على « فاليري » انها مهتمة باهلها ولا بخطيبها الذي لم أكن أسمع عنه أبدا أي شيء . كانت تذهب وتأتي عبر البلد دون أن تعطي أية معلومات عن نشاطاتها او اي تفسير لتلك النشاطات . فماذا كانت تريد مني ؟ لقد كنت عشيقا غير مشبوب العاطفة ، يكاد لا يشعر بالحب ، يتمتع بها دون أن يهتم بمتعتها هي ، ودون أن يشعر حتى بوجودها تقريبا . كنت احيانا اراها تنسلخ عني وتتسلل خارج ذاتي ، وقد أغمضت عينيها وفتحت فمها وكانها تحت تأثير الم شديد . ثم لماذا كانت معجبة بـ « هيريديا » الى هذه الدرجة ؟

كانت عزلتي أنا ، تزداد حدة مع الفراغ الذي كان يزداد اتساعا . وكنت أتقبل مداعبات المرأة مثلما كنت أتقبل الملابس ووجبات الطعام التي كانت تجلبها لي . كنت شخصا تعيسا يقوم بحركات القردة لكي يشعر بأنه موجود .

ومع ذلك ، فقد بدأ الفراغ يحدث تأثيره السحري . والشاطيء الذي كنت أقيم فيه كان قد أصبح جسدا عاريا وعملاقا كنت أستسلم اليه . كانت أشعة الشمس تسلخ الأفق ولم يكن هنالك أبدا أية سفينة تأتي وتعكر هدوء البحر . وكنت أعيش موزعا بين سكون مدينة مدفونة والصخب المتزايد الناجم عن مدينة كانت تشاد خلف ظهري .

ان العزلة تتيح الحرية أحيانا ، وكان من الممكن أن أشعر أنى قد تخلصت من حزني لو لم يكن حضور « سول هيريديا » غير المنظور يشكل هاجسا يلاحقني على الدوام ، لقد كان السيد « آدامس » مصيبا : فقد كان يبدو أن كل شيء يذكر بهذا الرجل ، بدءا من الموسيقا التي كانت تتصاعد من دارات البلاج المجاور ، وحتى ضربات المطارق في البيوت التي كانت قيد البناء . ومهما حاولت أن أدير ظهري ، فلم يكن لذلك أية جدوى ، فقد كنت ، أنا أيضا ، أنتظر يوم التدشين الذي كان قد أعلن عنه ، حيث سترفع اللافتات التي تحمل عبارة : « بلاج العجائب » على كل امتداد الشاطيء .

كانت العربة تمر وتعود فتمر ثانية . كانت أجراسها تترك في الجو ضجيجا مزعجا يلاحقني طيلة النهار بل وحتى أثناء نومي . فقد كان يستحيل عليّ وأنا في كوخي العالي أن أعيش في العزلة والوحدة . فكل ما ينشأ حولي كان مثيرا . ولم أكن أنتمي الى عالم الأسطحة الجديدة ، هذا ، بل الى عالم أسطحة الجص والفساتين الموشاة بالبرق والترتر الذي لم يبق منه اي شاهد سوى عمودين مغروسين في الأرض .

ومع تزايد ظهور الأشجار المورقة على الكثبان المجاورة ، كانت تتصاعد من أعماقي كراهية تزداد وضوحا . كنت مخلوقا كريهاً ومنفراً، ولكن مسكونا .

وذات مساء عندما عدت الى الكوخ ، لا بد أن « فاليري » قد لاحظت بريقا جديدا في عينيّ ، لأنها اقتربت مني وهي تحدق بي بشكل غريب . ثم سألتني :

« أما زالت لديك حقا الرغبة بالانتقام ؟ »

ولأني اخذت الامس خدها مداعبا بلا مبالاة ودون أن أجيب ، فقد اضافت قائلة :

« من الصعب ، كما تعلم ، الاستمرار في الكراهية حتى النهاية ! »

لم يكن في نظرتها قوتها وحزمها المعتادين .

وتابعت بصوت منخفض :

« الكراهية ، أنا أعرفها . صدّقني ، الحب أفضل . »

كانت تبدو وكأنها ترصد كلامي ، ولكني لم أحر جوابا . فقد كنت لا مبالياً الى أقصى حد بقلقها ، وقليل الاهتمام بأن تكون حليفة لي أو عدوة . فقد أتيت الى « أوريون » لأستعيد فيها طفولتي ، وقد نبذني الجميع كاني مصاب بالجذام . لذلك ، فلا شيء ، لا جسد تلك الفتاة ، ولا حتى فتنة وسحر السماء ، يمكن أن يمنعني من الأخذ بالثأر .

كانت الأيام تمر وتنقضي وهي تزيدني ثقة بأن مهمة مقدسة قد أسندت اليّ . لقد قضوا على القطار الصغير ، وعلى مكسر الميناء ، وعلى المنتزه ، وشوّهوا جمال وسحر أمي ، ولكنهم لم يتوصلوا لأن

يجعلوا مني شبحا عائدا من عالم الغيب . وكانت كراهيتي هي الدليل الملموس على وجودي . وشيئا فشيئا استعدت قواي وبعد فترة وجيزة ادركت أنه يوجد في كل مكان اشياء جميلة وأمور توفر السعادة للناس ، وأن كل ذرة رمل هي بالحقيقة احدى الأصداف الصغيرة ، وأن قوائم الطيور البحرية تترك على الشاطىء رسوما تشبه أوراق الشجر ، وأن العرائش التي كانت تنتشر على الكثبان كان لها شفافية العقيق الأحمر. والكثبان الرملية نفسها بدأت تتخذ ، بالنسبة لي ملامح وأشكال الأضرحة المقدسة .

وفي وقت القيلولة ، عندما يختبىء كل الناس في « أوريون » ، من حرارة الشمس داخل الفندق الكريه الذي كان السهم فوق قبته يبدو كأنه يمثل تحدياً بين أشجار البلح ، كنت أنا ، أسير متنزّها على الشاطىء الرملي .

لم أكن أرى كثيرا العجوز « هانس » ، كان يبدو وكأنه قد تبخّر في الهواء . كان يمر أحيانا أمامي دون أن يعرفني ، وفي صباح أحد الأيام ، لمحت فوق أحد المرتفعات قامة الأستاذ « جوتمان » النحيلة . كان يبدو سعيدا . وكان انفه البارز يستنشق الهواء بلذّة . وجّه لي من عينه غمزة ذات مغزى ، وصاح بي ، قائلا :

« كيف يمكن القول أن هذا البلد لا رائحة له ؟ ... ايه ! ان هذا كلام اخرق وغير معقول ، اذ أن فيه أندر وأثمن رائحة : الا وهي رائحة الفضاء الرحب . »

ثم اضاف قائلاً ، بلهجة تنمّ عن اللوم والتقريع : « أصبح حدوث الاعصار وشيكا ، انه يجعلنا ننتظره ولكنه سيكون جميلا . »

وذات ليلة ، أدركت ، بسبب الهدوء النفسي الذي كنت أنعم به ، أنّ ما كان يشكل غذائي الوحيد طيلة ثلاثين سنة : وهو صورة

« مورينا » ، كان قد اختفي نهائيا ، ليس من حياتي وحسب ، بل ومن جسمي أيضا . وحالما عدت الى كوخي ، تأملت نفسي في المرآة ، فهالني فراغ وجهي وخلاوه من أية تعابير . كان واضحا أنّ هنالك شيئا قد أفلت مني دون علمي ، وبكل توئدة وبطء لدرجة اني لم أشعر بذلك إلا في هذا المساء . خشيت من أن يكون الأمر يتعلق بعضو أساسي ، وأخذت أرتجف خوفا من بقائي بلا ذكريات ولا رغبات . ولكن ، لحسن الحظ ، لاحظت بمزيد من السرعة اني كنت اتنفس ، وأنّ عربة « سول » للمرة الأولى ، كانت تمر تحت نافذتي دون أن تسبب لي اي اثارة او انزعاج .

لقد بدا لي فجأة اشراق تلك الأرض البور الواسعة أكثر قوة ووضوحا من المعتاد . كنت حرا ومنتشيا بتأثير ذلك الضياء . انبعث صراخ من حلقي ، كان هنالك أطفال يلعبون على الرمل ، لم تزعجني أصواتهم المرحة .

دخلت « فاليري » الى الكوخ . رتبت بعض الأشياء على المنضدة وخلعت ملابسها . خلعت ملابسي أنا أيضا واستلقيت بجانبها .

سألتني الفتاة وهي تضع يدها الباردة على ذراعي :

« ماذا يحدث ؟ قلت : انظري اليّ ، تأمليني جيدا ! » .

كانت قد تراجعت نحو الجدار . صرخت :

« كلا ، كلا ليس بعد » .

أمسكت فخذيها المنطويين ، وجذبتهما نحوي . وللمرة الاولى منذ أن عايشت « فاليري » ، شعرت بالرغبة بأن أضاجعها وأن أبقى ملتصقا بها .

تابعت قائلاً بهدوء ولطف :

« إني على استعداد » .

- ١٥ -

منذ أن دخل الكوخ ، عرفته من وجهه النحيل .

قلت له : « كنت أعرف أنك ستأتي » .

وجّه لي الشاب عينين كان جفناهما يبدوان مشلولين .

سألني دون مقدمات : « هل هي سعيدة ؟ » .

شعرت بانتفاضة تعتريني .

« لا أعرف عن ذلك شيئا .

ــ ألم تلق على نفسك هذا السؤال أبدا ؟

ــ كلا .

ــ إني أرثي لك » .

ساد صمت طال أمده كنت خلاله أحاول استعادة رباطة جأشي . كان الزائر قد رفض الجلوس على الكرسي الذي قدمته له وأرغمني بذلك على البقاء مرتبكا وواقفا أمامه في وسط الغرفة .

« إننا ، أنا و « فاليري » لم نوقّع أو نتفق على شيء . وأحوال مزاجها تخصها وحدها » .

لو استمر محدثي بمراقبتي بهذا الشكل ، فاني لن استطيع تحمل نظراتــه طويلا .

اخيرا قال : « غدا ، سيدشن بلاج « سول » .

ـ وقد أتيت لابلاغي ذلك ؟

ـ ربمــا » .

كانت عينــا الرجــل الصافيتــان جاحظتين تماما . ولم يرف جفناهما أبدا .

أضاف قائلا :

« اتعرف ما هو الاسم الذي اختاره لمشروعه ؟

ـ إنّ هذا يبعث على السخرية .

ـ إنك مخطيء » .

ماذا كان يريد ؟ وما هو الدافع لقيامه بهذه الزيارة ؟

كان الجو مثقلا جدا في الغرفة وكنت أرغب بفتح النافذة ، ولكن نظراته الجامدة سمرتني في مكاني . لم ترجع « فاليري » وقد بدأت أشعر بالانزعاج لغيابها . اقترب الشاب مني .

« لقد رافقت « سول » في كفاحه ضد الرمال ، امرأة . وهــذه المرأة شجعته واعانته على عدم التخلي ... » .

بدرت مني ضحكة خفيفة .

تابع الرجــل : « لقد ماتت ، وسيطلق « ســول » اسمها على مشروعه » .

شعرت برعشة تنتابني . ما هذه السخرية ؟ لا يمكن ان يكون هذا المجهول يجهل بأني كنت مطلّعاً على كل شيء ، وأني كنت أعـرف تماما الدور الذي قامت به أمي في حياة ذلك السيد .

اضاف الرجل وكأنه بذلك يتجاوب مع أفكاري :

« لقـد كانت قدّيسة .

ـ قديسـة ! » .

التفتُ نحـوه فجأة . لقـد تمادى هـذه المرة . صرخت بـه : « كل هـذا لا يهمني بشـيء ، فأنا أهتم بمـا يعنيني وأنصحك بـأن تفعـل مثلي » .

تنهد الشاب وداعب قفا حذائه بطرف سوطه ، ثم اقترب مـن النافذة وفتحها على مصراعيها ، وقال لي :

« انظر ! » .

الى يسارنا ، وعلى بعد كيلو مترين ، كان البلاج مضاءً ، تتلألأ فيه الأنوار كما في الأعياد الشعبية . وكان مكسره الكبير الممتد داخل مياه البحر يغص بالمتفرجين والفضوليين . وكانت الحان الموسيقا تبلغ مسامعنا . كانت قد هبت الرياح وأخذت تلفح قوائم حصان كان يسير بمحاذاة الشاطيء . وبدأت قهقهات الضحك تتعالى من أفواه ذلـك الجمهور المحتشد . كنت أجد صعوبة في التنفس . كان كل شيء يتدافع مسرعا بشكل مفاجيء كما لو أنه كان على أحدهم أن ينهي حياتـه مهما كان الثمن . خطوت خطوة نحو الباب ولكن شيئا ما سمرني في مكاني . كانت تلك ضحكةً قادمة من جهة البحر ، ضحكة لا يمكن تقبلها . ثم ساد الصمت . أغلقت النافذة بغضب شديد .

صحت بأعلى صوتي : « العجائب ، ليست للفقــراء . ماذا تريد أن أصنع بها ، أنا ؟ »

لمس الشاب صدري بطرف أصابعه ، فتراجعت قليلا . أحنــى رأسه ،هز كتفيه وتناول معطفه الذي كان قد وضعه على احدى الكراسي.

سألني : « هل أنت متأكد أنك غير مخطيء ؟

ــ مخطيء ، أنا ! بشأن اي شيء ؟

ــ بشأن كراهيتك ، مثلا . فهل أنت واثق من أنها لاتتضمن شيئا آخر ؟ » كان قد لمس صدري ثانية . وكلن وجهه قد ازداد نحولا وطولا كما لو كان ذلك بتأثير وفعل كآبة شديدة .

قلت : انك تزعجني ، لديّ عمل يجب أن أنجزه .

ــ حسن ، حسن . ولكن قبل أن تنصرف الى عملك ، كما تقول ، أصغ الى نفسك ، نعم أصغ الى صوتك الذاتي جيداً .

كانت الرياح ، منذ لحظات ، تعصف بشدة محدثة ضجيجا . كان ضجيجها يثير القلق لأنه كان يزعزع جدران كوخي . كان الشاب قد أدار لي ظهره لكي يفتح الباب . رأيته يلتف بمعطفه ، يقفز على ظهر حصانه ، دون أن يضيف كلمة واحدة ، ويتوارى في ظلام الليل .

عندما رأيته يختفي استولى علي القلق ، لأن الظلام ، وان كــان يتخلله البرق ، فقد كان سواده دامساً ، وكانت الرمال التي تعصف بها وتثيرها الرياح تملأ الجو وتجعل كل شيء خطيرا جدا .

ضرخت بصوت عال : « ايه !.. هيه ، أيها الصديق !.. هيــا، انتظر قليلا ! » ولكن الحصان وراكبه كانا قد ذابا تحت المطر الذي كان

ينهمر بغزارة على الكثبان الرملية . كانت الأشجار تلتوي وقد أغمضت عيني لأحمي بصري . لقد كان هذا الشاب مجنونا ، فلا احد يستطيع حماية نفسه من الاعصار . وكان هو يعرف ذلك جيدا . فقد كان ابن المنطقة ، بل ويبدو انه كان يتمتع ببعض صفات العرافين . صحت عاليا : « هيه !.. هيه .. ارجع !.. لكن زائري لم يجبني ، فقد ابتلعته العاصفة ، والرياح . أغلقت باب الكوخ وحبست فيه صراخي .

وحالما اصبحت وحيداً ، انتابني من جديد احساس بأني في عرض البحر ، تحت رحمة العاصفة ، وأكاد أحسد زائري لأنه يملك حصانا يستطيع بواسطته النجاة من المنطقة المهددة . كان ضجيج الرياح قد اصبح يصم الآذان . انهار غصن شجرة أو كاليبتوس على زجاج نافذتي وحطمه . واهتزت صورة « سول » وسقطت قرب السرير . كان المطر يقرع الجدران الخشبية . والمياه تتساقط بكتل كثيفة ، والصراخ يتعالى من البلاج :

« كان العجوز « هانس » قد قال : لا احد يشعر بشيء ، فالسماء تكون صافية وهادئة تماما . وتسمع بعض القهقهات ، ثم الاعصار ، الابيض ، ينفجر ! »

سقف كوخي سينهار عما قليل ، تراجعت حتى التصقت بالجدار وبينما كنت أمد ذراعي لتجنب الاصابة بقطعة من جسر كان يسقط من السقف ، كان الدم يسيل من جرحي ولم أكن أشعر باي ألم بسبب ذلك ، كان لدي فقط احساس مزعج بالوحدة . نجحت بالتخلص من الجسر الذي كان يحتجز كتفي ووصلت الى سريري زحفا على ركبتيّ .

عما قريب سينتهي كل شيء ، سينتهي تماما . والكثبان وهي غير ثابتة أخذت تتفتت وتنهار . ومني أنا ، ربما لن يبقى سوى كتلة غير معروفة يمكن أن تذهب فتنضم الى ماتبقى من حطام الفنـدق . أما « سول » ، من جهته ، فكانت تحميه تلاله العالية وجدرانه المتينة .

وغداً سوف يستطيع تدشين مدينته . بينما يكون عدوه ملقى في مياه مجهولة وقد فارق الحياة .

وسوف يقول الذين يرون قطع الخشب المنتصبة فوق الرمال : « هذه بقايا الكوخ الذي كان مبنيا على اعمدة » .

وبينما كنت أتلوى على سرير لم يكن قد بقي منه سوى فراش من القش لا شكل له ، شعرت فجأة بعضلاتي تتمدد وقلبي يهدأ روعـه عندما راودتني فكرة مؤداها أن كل شيء يوشك أن ينتهي ، وأني ، حتما سأصبح جزءاً من عالم مدفون وأني ، لن يكون علي غداً أن أبغض أحداً .

ولكن ماذا كانت تعني زيارة خطيب « فاليري » المزعـوم ؟ قبـل رحيله ، كان يجب عليّ أن أفهم ذلك ، ولكنّ المياه التي كانت تتدفق من شقوق الخشب كانت تمنعني من التفكير .

لماذا أرسل لي «سول » هذا الشاب ذا العينين الخجولتين ، ولماذا كان ذلك في هذا المساء بالذات الذي كان ينقض فيه الاعصار علينا ؟ وماذا كان يقصد من القائه في ذهني ، على لسان هذا الملاك السيء اسم أمي ؟ تلك « الهندية التافهة ، التي لاتساوي شيئا » سوف تصبح عرابة « بلاج العجائب » وسيكتب اسمها بأحرف كبيرة على جدران وأبـواب الفيلات ، على حد قوله . كان ذلك مضحكا ، وفظا ، ويبعث علـى السخرية . كنت اعامل كمعتوه ، أو كأني متخلف عقلياً . كانوا يسحقونني ملوحين أمامي بصورة أمي متنكرة في زيّ العذراء ! لم يكن هنالك اي شك فقد كان « سول » يتوقع الاعصار ، اذ أن الاستاذ « جوتمان » لابد أنه قد أطلعه على ذلك ، وقد أرسل لي موفداً ليوقف يدي عن العمل . يا له من مغفل ! كيف استطاع أن يصدق اني سأقع في الفخ ؟

كان رأسي يتقلب ويتدحرج على المخدة ، لقد كان « سول » يعرف ماذا يفعل . فكراهيتي ، كراهيتي المسكينة لم تعد تستند الا على خيط

رفيع . فبعد أن تغذت بالسهرات ، والغثيانات ، وبالرغبات التي لا يمكن الاعتراف بها ، فانها لم تعد سوى دفق طويل أحمر كان يخرج من جرح في كتفي فيبلل فراشي المحشي بالقش الذي كان قد بلله المطر ومياه البحر .

هزتني فجأة ضحكة قوية ، ضحكة طفل ضخم الجثة كان على وشك البكاء . كان « سول » يعرفني ، ويعرفني جيدا ويدرك القلق الذي كان ينتابني دائما من ذكر أمي . وقد كان لديه ايضا حس بالمواقف المسرحية وميل اليها . كان الاعصار سينهي دفن « أوريون — بلاج » وعمل شبابه ، وحالما يموت كل ذلك ويموت تماما ، سوف يستطيع أن يدشن بأمان واطمئنان « بلاج العجائب » العائد له .

والبحر لشدة صخبه واضطرابه كان يبلغ السماء التي لم تعد سوى خطا ارجوانيا . ولكي يستجمع قواه ، كان يتراجـع جارفـا معـه جذوع الأشجار .

« بيوت بأكملها قد اختفت ، يا سيد أوريون ! »

ولكن زائري ماذا حدث له ؟ ان أي فتى من أبناء المنطقة لايمكن أن يجهل أن الاعصار كان على اهبة الحدوث . فلماذا خاطر اذن بالحضور الى عندي ؟ ولماذا اطاع سيده ؟ ومن الذي ابلغ « سول » اني كنت متهيأ؟ كانت الأفكار تزدحم وتختلط في ذهني وقد فقدت طريقي في اللحظة التي كنت أوشك أن أجد فيها جوابا لأحد تساؤلاتي . كان لدي انطباع بأني سقطت في شبكة ملأى بالأسماك وان علي أن اتخبط بين أجسامها اللزجة . ومع ذلك فقد تبادرت فجأة الى ذهني فكرة أكثر وضوحا من الأفكار الأخرى : ان هذا الفتى ذا الوجه النحيل والعينين البراقتين كان قـد جازف بحياته لينقذ حياة « سول هيريديا » ، كنت أعتبر ذلك بديهيا تماما ! ولكن لماذا ؟ لماذا كان ذلك بديهيا تماما ؟ امسكت رأسي بكلتا يدي . كان يطفو من جديد ، من موجة الى أخرى ، بمفرده ، وقـد انفصل عن جسمي . وفجأة ، راودني شعور من الأمل ، وهكذا فقـد

تذكرت أن البحر ، يوم وصولي ، كان قد غمر بمياهه جسمي بكامله ودحرجني على الرمال ليخلصني من كوابيسي ومن الأحلام المزعجة التي كانت تنتابني .

صرخت بأعلى صوتي : « فاليري ! » ، ولكن « فاليري » كانت بعيدة ، بل بعيدة جدا عني . ولن تجازف بحياتها لتنقذ حياتي ، كلا ، بالتأكيد لن يحدث ذلك . انها ستسلمني الى « سول » ، كما كانت قد سلمتني له « مورينا » . أين كانت اذن « فاليري » ؟ صحت بأعلى صوتي : « فاليري » ! .. كان قد طار قسم من سقف كوخي في الهواء . وعلى الأرض ، كانت صورة « سول » تشكل بقعة مستطيلة . كنت مبتلا من رأسي الى أخمص قدمي ولم أعد أشكل سوى كتلة واحدة مع سريري . كانت مياه البحر التي ازدادت كثافتها بما تحمل من رمال ، تندفع نحوي بقوة فيصلني بعض رذاذها . كانت « فاليرى » محققة بقيامها بخيانتي ، وبمراقبتي ورصد حركاتي ليلة بعد أخرى ، وبتسليمي الى عشيقها . فقد كانت من النوع الذي يعمل ويتصرف ، بينما أنا ، لم أكن شيئا ، لم أكن شيئا على الاطلاق ، حتى ولا رجلا عاديا .

كان البحر يتعالى باستمرار فاغرا فمه . وكانت أعمدة وجسور الأسطحة تتهاوى . وكانت الثغرة التي فتحت في الجدار تزداد اتساعا تحت نظري . « فاليري » !... « فاليري » ! كنت أشعر بالحاجة الماسة لكتف امرأة أسند عليه رأسي وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة ، وبالحاجة الى أنفاس امرأة تتردد بالقرب مني . نهضت باذلا جهدا أخيرا ، ولكن كل منافذ الغرفة كانت مغلقة ولم أستطع رؤية شيء .. « فاليري » ! حتى ولا الضياء الذي تحدثه الصاعقة ، « فاليري » !... كلا ، لاشيء سوى الدم والماء .

- ١٦ -

عندما أدركت انه قد أصبح الصباح ، كانت ابنة « جيروم و . آدامس » بجانبي .

قلت ، لاهثا : « هذه أنت ؟

قالت : ــ نعم ، لقد انتهى كل شيء . »

كانت الفتاة قد ضمدت جراحي اثناء نومي .

سألتني وهي تلامس جبيني برفق :

« انك لم تنزف طويلا ، أليس كذلك ؟

ــ ليس منذ طفولتي ، وأنا بالحقيقة لا اشعر بأيّ ألم . »

كانت « فاليري » وهي تستند عليّ تبدو حارة وجافة . فقد عفا عنها الاعصار ونجت منه . ولماذا حدث ذلك ؟ وانا ، ماذا كنت أعمل بين بقايا وحطام كوخي ، وانا حي ؟

« لماذا رجعت ؟ »

رفعت رأسها ووجهت نحوي عينين متوهجتين ، ثم بحركة طفولية ، خبأت فمها في صدري .

تمتمت قائلة : « لأن . . . لأن . . .

ــ وخطيبك ؟

ــ لا يهمني كثيرا

ــ و « سول » ؟

ــ اسكت . »

أبرزت وجهها ومرت بشفتيها على عينيّ . ثم ، بعد أن تمددت على سريري ، وألصقت بطنها ببطني ، ضمتني بين ذراعيها واخذت تناديني كما لم تفعل ذلك من قبل أبدا .

بعد بضع لحظات ، عندما انفصلت عني ، فتحت « فاليري » عينيها ثم أغمضتهما في الحال وارتمت على ظهرها دون أن تنبس ببنت شفة . كان عنقها ونهداها مبقعين بالدم .

قلت بصوت خافت : « شكرا » . فلم تجب بشيء .

سألتها ، لماذا ما زلتُ حيا ؟

ــ الكوخ مبني على أعمدة . ولذلك أسكنتك فيه .

ــ ولكن ماذا حدث ؟

ــ اعصــــار .

ــ وماذا عن الفنـــدق ؟

لم تجب على سؤالي .

سألتها : هل ستريني ماذا بقي من « أوريون ــ بلاج » ؟

همست بالجواب : ــ نعم . »

ودون أن تنفصل عني ، ساعدتني الفتاة على النهوض ، ودهشت لعدم شعوري عند ذلك بأي تعب أو انزعاج رغم وجود الجرح في كتفي . خرجنا متشابكين دون أن يكون بنا حاجة لفتح الباب ، لأنه لم يكن قد بقي من كوخنا المبني على أعمدة سوى بعض الجوانب التي قاومت الاعصار ، فظلت منغرسة في أرض لا يمكن تبين معالمها . كانت صورة « سول » قد اختفت ، ولم يبق من أشجار الكينا الضخمة التي كانت خلف البيت، سوى الحطام .

كان الشاطىء يغص بأناس مذعورين يتراكضون في كل الاتجاهات كان كل منهم يمسك بالآخر كالغرقى . كنت أنا و « فاليري » نسير باتجاه الفندق . لم تكن قد بقيت شجرة سليمة بعد الكارثة ولاحظت وقلبي منقبض ، أن العمودين الحجريين اللذين كنت ألمسهما عند مروري لم يعودا في مكانهما . وعلى شاكلتهما ، دون شك ، كان قد دفن قطاري ، قصري وكنيستي . كنا نمشي صامتين ، كما لو كنا في حرم كاتدرائية . وفي نهاية ما كان يشكل سابقا ممشى أشجار النخيل ، الكبير ، كان هنالك كثيب أكثر ارتفاعا من الكثبان الاخرى ، يتلألأ في الصباح ، بعد أن جفّفته أولى أشعة الشمس ، في ذلك اليوم . وكثيب مسطح يخترقه سهم من التوتياء .

كان هنالك أناس من كل الأجناس ، ومن كل الأعمار ، يرتدون قمصان النوم ، أو الملابس الملونة الغريبة الشكل ، يسيرون جيئة وذهابا ، وتبدر منهم حركات تنم عن اليأس ، متجولين على تلك الأرض التي تعرت من كل شيء . كانوا يحيطون ، بكل بلاهة ، بوالد « فاليري » الذي كان يقف ساكنا ، لا يبدي حراكا أمام حطام ما كان ملكيته فيما مضى .

الا وهو فندق « أوريون — بلاج » !

اقترب منا رجل طويل القامة ، على راسه قبعة صغيرة بيضاء . وقال :

« انه مدهش . . . الا ترونه هكذا ؟ لقد رأيت واحدا بمثل جماله في استراليا ، منذ خمسة عشر عاما على الأقل ، ولكن منذ ذلك الحين لم أرَ مثله ابدا ، حتى كدت أيأس ، ولا بد من القول أنه جعلنا ننتظر طويلا ، ولكن أخيرا ! يا لروعته ! واردف يقول فجأة : « ولكن ، أرجو المعذرة ، انكما عاشقان، على ما يبدو لي ، فماذا تهمكما الأعاصير ؟ ويكون لديكما دائما الوقت للنظر والتطلع عندما لم يعد ينظر اليكما أحد . »

حول أنظاره عنا . وكانت نظارته ترتعش من وقت الى آخر على انفه الكبير .

قال فجأة بلهجة المسارة : « آه ! كدت انسى : هذا المساء ، سيتم تدشين بلاج « العجائب » .. هل تعلمان ماذا سيسمونه ؟ « موروينا مار » ، أليس اسما جميلاً ؟ « موروينا » هو اسم المرأة التي كانت رفيقة السيد « هيريديا » . قديسة ، على ما قيل لي . انها ... »

لم أكن أصغي اليه بعد ذلك ، فقد سحقني كلام الأستاذ ، وسحقتني قوة كانت تتجاوزني الى أن تجعلني أغوص في قرارة كياني الذي لم يكن قد توصل حتى الى الذوبان والانحلال في العاصفة .

كانت « فاليري » تضطر لأن تسندني كي أستطيع الوصول الى شاطىء البحر . لم يكن رأسي قد أصبح سوى كتلة متقلصة ، تمكث بشكل ما على عنقي .

لم تكن الفتاة تنبس ببنت شفة ، وكانت تشد على يدي بكلتا يديها . وكنت أعلم أنه لم يعد علي سوى ان اتبعها لكي تتبعني هي أيضا الى اي مكان كان . كنت أشعر انها كانت راضية عني ، وأني ألقى القبول لديها مع كل بؤسي وشقائي . كان الألم الذي احسه مضنيا شديد الوطأة . كان كل شيء يفوتني ويغرب عن بالي ، حتى الكراهية ، الكراهية الطبقية التي تغذت ونمت طيلة عشرين سنة . كان كل شيء يفوتني تحت وطأة ارادة رجل قوي كان قد ابتكر وسيلة لا يقاف ذراعي بوضعه وجه امي في مزود العذراء .

كان رجع مياه البحر مستمرا ، كانت تلك المياه خفيفة ونظيفة على شاطىء تنتشر عليه أغصان الأشجار والأسماك الميتة . كانت بعض بقايا المظلات ترتفع كاستغاثات الغرقى في وسط البلاج . كان السكون الذي يلي الكوارث الكبرى يتسم بما يشبه الاحتفالات القدسية ، التي كانت تفرض ايقاعها على خطواتي . وشعرت من جديد ، اني أسير في حرم كاتدرائية . كانت يد بضة تغمر يدي بالدفء .. ودون ان نشعر بذلك ، كنت أنا و « فاليري » قد اجتزنا الحدود وكدنا نصبح في أرض معادية .

لم تقوَ خيام « بلاج العجائب » على مقاومة الاعصار ، ولكن الفيلات ظلت قائمة ، تبدو من خلال أشجار الصنوبر التي تحيط بها . كان هنالك قرويون مزودون بالمعاول والرفوش يحفرون الرمال التي تجمعت أثناء الليل أمام الأبواب ، ويلقونها على الشاطيء . وهنا ، كانت الشوارع قد خططت بدقة وشقت بين المنازل . والكثبان لم تكن أكواما من الرمل الخام كما في « أوريون » ، بل روابي وتلال جميلة ، زرعت بالحشائش والأعشاب الانكليزيـــة .

مر من أمامنا فتى يمتطي حصانا دون سرج ، واخذ يصرخ بأعلى صوته : « الى الأمام أيها الجنود ، اتبعوا الريشة التي تزين رأسي » ! وكما لو أن الأضواء قد جذبتنا ، فقد لحقنا أنا و « فاليري » الفتى الذي شجعنا وفتح لنا الطريق . ولكنه ويا للأسف ! كان قد اختفى بسرعة كبيرة في ممشى تحيط بها أشجار الزيزفون .

سرنا بمحاذاة منازل فخمة وصالون لتقديم الشاي ، وحانوت لبيع الخردوات الأميركية . واجتزنا احراجا صغيرة تفوح مـــن خلالها رائحة العطر . رأينا نباتات كمنافض الريش العملاقة تنبثق من الرمل ، وبعد قليل ، بينما كنا نكاد نضيع في ممشى تكتنفه شجيرات الورد ، لمحنا قصر « سول هيريديا » منتصبا على قمة رابية تطل على الشــاطيء .

كانت قطعة قماش ، ذات لون ملكي ، لـــون البحر والغضب ، معلقة على الشرفة وقد عرفت أنها الوشاح الاسباني الذي كانت « مورينا » ترتديه في أمسيات الاستقبال .

في الحديقة التي تنحدر نحو الشاطيء ، عرفت أيضا سرير طفولتي الذي كانت أمي تحب أن تملأه بالزهور لتثير دهشة صديقاتها . كان هنالك رجل ، اعتقدت أني تبينت فيه ملامح العجوز « هانس » ، كان منهمكا بتجديد تراب الحديقة بما يلقيه فيها برفشه الصغير . قرأت

على باب الحديقة هاتين الكلمتين : « فيلا مورينا » مكتوبتين بحروف برونزية صقلت ولمعت حديثـا .

قال البستاني ، وهو يلتفت نحوي بوجهه المجهول : « نعـم ، يا سيدي ، ستدشن هذه القرية مساء اليوم ، وسيطلق عليها اسم : « مورينا مار » . و « مورينا » هو اسم قديسة » . ثم اضاف وهو يلتفت نحو رفيقتي :

« آنسة فاليري ، الا تدخلين في هذا الصباح ، فالسيد موجود وحده » . ولكن الفتاة أشاحت بوجهها عنه دون أن تجيب .

عند نهاية « بلاج العجائب » ، ونهاية حدائقه وتلاله ، التي لم يكد الاعصار يمسها بسوء ، كانت تمتد الصحراء . تلك الصحراء التي لم أجروء على الاقتراب منها منذ طفولتي والتي أحتفظ لها بذكرى غامضة ومثيرة متمثلة ببطن كبير لاحدى النساء . على الشاطيء ، وقرب هيكل احدى السفن ، كان الفتى الذي اعتبر نفسه جنديا ، يلعب لعبة العسكر ، قد ترك حصانه واستسلم للنوم .

قالت « فاليري » : « لنتوقف هنا » ، اطعتها واخذت أفك أزرار قميصي . نزعت الفتاة صدريتها وبعد ثوان معدودة تخلصت من لباس البحر (المايو) والقته بعيدا . كان الماء عند اقدامنا هادئا يكاد لا يتحرك إلا بدفعات خفيفة . لففت ذراعي حول قامة رفيقتي العارية وارتمينا في أحضان البحر .

غطست في المـاء الذي عكرته العاصفـة ، دون أن اتلفظ بكلمـة كانت « فاليري » تتبعني ملتفة بي . لم يسبق لنا أبدا أن سبحنا سوية . كانت يداها الناعمتان كقشر الأسماك تلمساني وتتحسسان جسمي . وعندما اندفعتُ عبر التيارات ، ظل ساقاها ملتفّين حول ساقيّ .

وعلى الشاطيء ، كان الفتى قد استيقظ وأخذ يبحث عنا بناظريه . وحالما لمحنا ، القى بنفسه في الماء وحاول أن يلحق بالجسم الوحيد المتحرك الذي كنا ، أنا و « فاليري » ، نكونه ، وأن يستولي عليه . ولكنه تعب بسرعة وملّ من لعبته فتخلى عنها وذهب فجلس على الرمل .

كانت برودة الماء منعشة . ولم يعد لـ « فاليري » وزن ، أو ثقل . كنت أشعر أنها قدتخلت عن الدفاع عن نفسها ، وأنها لن تكون أبدا بعد الآن إلا كما تمنيتها أن تكون : مطواعة ، عذبة وممشوقة القامة ، وكما لو كانت تريد أن تؤكد لي انصياعها وخضوعها ، كانت تلتف بي ثم تبتعد ، متجاوبةً مع أدنى ضغط من يدي أو من ساقي .

كنت أشعر بحرق في كتفي الأيسر يجعلني أقطب حاجبي . كان ذلك هو الجرح الذي أصبت به في الليل وقد امتلأ بالملح . والفتى ، بعد أن ملّ من مراقبتنا ، قهقه ضاحكا وغادرنا .

لم يكن يعكر هدوء الشاطيء سوى رجع الأمواج . خرجنا من الماء وفي الحال استولى علينا خمول الظهيرة .

صحت بكل قواي : « كلا ! لا أريد أن أنام ثانية بعد الآن أبدا » .

بريق ينم عن البهجة بالنصر وسّع حدقتي «فاليري»، فأخذت تركض كما فعل الفتى الذي كان يلاحقنا . كان شعرها متدليا على ظهرها ، ويلامس خصرها . كان نهداها منتصبين تحت أشعة الشمس . أردت أن امسكها ، ولكنها افلتت مني وعادت الى الماء ، أخافت احدى المحارات ، افرغتها والتهمتها . ثم حفرت في الرمل لتستخرج منه أصدافا اخرى . كان فخذاها يلمعان ، وساقاها كانا حارين . عندما انحنيت عليها شعرت أنّ جرحي قد انفتح ، ورغم الألم الذي شعرت به عند ذلك ، بسطت ذراعي لأمنع « فاليري » من العودة الى البحر ، ولكنها ، مرة اخرى ، تسللت من بين أصابعي .

عندما خرجت من الماء ، كان وجهها شاحبا جدا ، وقد انبسطت اساريرها عن ابتسامة . وقفت قبالة الشمس ثم تمددت على ظهرها متخذة وضعية من يتعرض للتعذيب : الساقان متباعدتان والذراعان متشابكان على الصدر .

كنت أنا ، هذه المرة ، الذي تقدمت نحوها ، وبعد أن لامستها وداعبتها مطولا ، غطيت بجسمي كامل جسمها .

* * *

الفهرس

٣٠٠٠ ط١/١١/١٩٩٢

ليست «الوسادة السوداء» مجموعة من الاقاصيص المتتالية، المستقلة عن بعضها سوى في ظاهر الأمر، فرغم تنوع المواضيع، فهي تقود القارئ رغم تنوع المواضيع إلى عالم موحد، ترتبط فيه الشخصيات فيما بينها بقرابة، ففيه عالم لا يمكن الانسلاخ عنه، اذ لا تكاد تنفذ إليه حتى تلاحظ انه مسكون بالظلال والاشباح، ومنفتح على آفاق ومجالات لا يمكن توقعها. فهو لا يبدي بعض الجوانب والمشاهد الواقعية الا ليجعلنا نستسلم بشكل أفضل إلى الخيال وعوالمه. ففي هذه القصص، الأشياء نفسها تتمتع بالقدرة والسلطة، فاطار قديم يمكن ان يصبح فخاً، وصورة من الماضي يمكن ان تبعث الحياة في بعض الكائنات. أبواب تفتح لتفسح المجال لمرور وجوه راحلة، ثم تعيدها إلى الحياة، فتجعلها تتدخل في قدر ومصير الاحياء. والماضي والحاضر يتجاوزان حدودهما ويتحدان عبر وساوس مأساوية. ففي قصة «الدسكرة» مثلاً، هل يمكننا ان نعرف على الاطلاق، فيما اذا كانت بطلة القصة قد قتلت الرجل الذي سبق لها ان عرفته واعتقدت انها التقت به من جديد؟؟ ومركز استحمام «اوريون بلاج» في قصة «أبواب الرمل» هل تهدم بسبب غيرة عاشق أم ان الاعصار هو الذي هدمه؟ هذا الكتاب مسكون بالاشباح، اشباح ما هي سوى وليدة الذاكرة.

المؤلفة غلوريا آلكوترا المولودة في فرنسا، من ابوين ارجنتينيين، تعيش منذ زمن طويل في بيونس آيرس، وطن بورجس مركز اليس وكبورتازار. وساباتو الذي ستنشر له قريباً وزارة الثقافة (ملاك الجحيم) وهي تقول عن الارجنتين ان اسمها شاعري ولا يمكنك ان تتصور تاريخها وجغرافيتها الا عبر الخيال والاساطير أهم أعمال المؤلفة مكتوبة بالفرنسية أو بالاسبانية، وكلها قصص وأقاصيص وقصائد يختلط فيها الخيال بالواقع بشكل لا تستطيع معه التمييز بينهما. وقد اثنى عليها اثنان من كبار شعراء فرنسا هما (سان جون بيرس) و(سوبر فيل).

(الوسادة السوداء) مكتوبة من الأصل باللغة الفرنسية، وقد أتى نقلها إلى العربية مطابقاً للأصل بياناً ومضموناً.

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٥

سعر النسخة داخل القطر ١٢٥ ل.س

في الاقطار العربية مايعادل ٢٥٠ ل.س